النيل يجرى فى دمى

(الجزء الثانى)

فتحى سلامة



النيل يجرى فى دمى

فتحى سلامة

تصميم الغلاف : غريب ندا

التدقيق اللغوى : شريف حسين

رقم الإيداع : ١٩٨٨٠ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى :

I.S.B.N. 977 - 305 - 630 - 9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩

شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

ت : ٨٣٣٨٤٤٠

المراسلات على العنوان التالى

١٦ (أ) ش أمين سامى - قصر العينى - القاهرة

رقم بريدى : ١١٥٦١


الهيئة العامة لقصور الثقافة
رئيس مجلس الإدارة
أنس الفقى
أمين عام النشر
محمد السيد عيد
الإشراف العام
فكرى النقاش
سكرتير التحرير
عماد مطاوع
الإشراف الفنى العام
غريب ندا



الفصل الأول



راقد أنا على فراش العافية بالمستشفى منذ ستة أشهر :

تراچيديا الحزن والألم ، قبض الريح ، هل هو قبض الريح فعلا ؟ هل يداى خاويتان الآن ؟ أجلس وحيدا وقد انفض الناس من حولى ، لا أحد ، أمامى ليل طويل أقضيه وحدى ، تطل علىَّ الممرضات ، هل ما فعلته هو قبض الريح ؟ إذا قلت نعم ، فأين إيمانى بالله ؟ لقد ظللت متعلقا بإيمانى بالله شابا صغيرا ، أو رجلا عجوزا ، يهدده المرض ، ممسكا بيد قوية على إيمانى ، ذهبت إلى المسجد وأنا صغير وملأت الخزان مرارا ، وبكيت وأنا أصلى آلاف المرات وصليت فى الكعبة عشرات ، بل مئات آلاف المرات وصليت فى الروضة الشريفة فى مسجد رسول الله (ﷺ) وكم مرة ناديت الله واستغثت به ودعوته فاستجاب سبحانه وتعالى ، كم من مرة رفعت يدى وقلت هاك يدى يا الله ، يا الله . . هل هذا قبض ريح ؟ الإيمان بالله لا يأتى هكذا ، أن تقرر أنت وحدك أنه يجب الإيمان بالله ، هذا لا يكفى ، نعم لا يكفى . الله يحب من يشاء ويهدى من

يشاء ويرزق الإيمان لمن يشاء . المشيئة الأولية والحتمية لله الواحد القهار الجبار الرازق للإيمان ، الإيمان رزق ، يسوقه الله لعباده المختارين المؤمنين المخلصين ، الإيمان بالله ليس بالإرادة البشرية ، تريد أن تأكل فتأكل ، تريد أنت تمشى فتمشى ، لكن الإيمان بالله يهديك الله إليه ، أن تؤمن بالله الواحد القهار الجبار الرزاق المنان الرحمن ، ثم إذا آمنت يجب ألا تنسى أنك مؤمن وأن الله مطلع على قلبك ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، لقد تعودت ذكر الله ، لأنك إذا دعوت فالدعاء نفسه هداية من الله . المشيئة وليست الإرادة ، لا راد لقضاء الله ، تعلمت هذا من صغرى وترسخ فى قلبى وازداد حبى لله وكلما نطقت وكلما التمعت العلوم فى رأسى ازددت إيمانًا ، لا يا أخى ليس قبض الريح ، عندما كنت فى الرابعة كان يحلو لأبى أن يسألنى ماذا تريد أن تكون ؟ أقول سأصبح أديبا روائيا ، فليس فى أسرتى أديب أو روائى أو مشتغل بالصحافة أو بالأدب أو بالكتب ، وأسرتى من الفلاحين والتجار ومن خريجى الأزهر الشريف الذين يعملون فى مجال الدعوة هؤلاء أسرتى وليس فى بيتى ودارى أو فى دارنا بالبلدة مكتبة أو كتب اللهم إلا كتاب الله يتصفحه جدى ويقرؤه وبعض الصحف اليومية التى يحلو

لجدى أن يقرأها دوما وهو يشرب القهوة فى الصباح أو فى المساء ، وعندما كبرت وتعلمت القراءة كان يطلب منى أن أقرأ له الصحف ليعلمنى كيف أقرأ ، وكانت زوجة عمى تشترى (البعكوكة) من قبيل التسلية فقد ظلت فترة لا تنجب وكانت تتسلى بقراءة البعكوكة حتى تثبت للآخرين أنها متعلمة وتجيد القراءة والكتابة ، أجلس بجوارها لكى تقرأ لى نكات البعكوكة القديمة وأضحك على أم سحلول ، وكان يعجبنى الخيال الجامح الذى لا تحده حدود لهذا الكاتب الساخر الذى يكتب أم سحلول أو غيرها من أبطال البعكوكة القديمة ، وقد تعرفت على هذا الكاتب بعد ذلك ، منذ أعوام قليلة فقط ، تعرفت على عبد الله أحمد عبد الله ، وتصادقنا فى زمن ذهب فيه الضحك ، كنت راغبا فى أن أصبح أديبا وروائيا وهذا هو السر فى أنى تحملت وخضت التجارب ، لتزداد قناعتى واقتناعى بأننى لابد من أن أكون أديبا وروائيا . والأديب الروائى ليس فقط من يكتب القصص والحكايات المسلية إنما هو فيلسوف يرى كل الأشياء مجمعة فى وحدة متكاملة ، لهذا يجب أن يدرس الفيزياء والكيمياء وعلوم الرياضيات وكافة العلوم البشرية بالإضافة إلى تعمقه فى أمر الإيمان بالله وعبودية الإنسان له ،

الواحد ، قرأت فى التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والكيمياء وكل مناحى العلم ، قرأت كل ما استطعت أن أحصل عليه من كتب ، من محل الفسخانى الذى كان بالنسبة لى كنزا لا ينضب من المعرفة . رغبتى فى أن أكون روائيا جعلتنى أتحمل تلك المشقة وأنا صغير : أعمل مع أبى أكثر من عشر ساعات ، وأذهب إلى المدرسة أكثر من ست ساعات ، وأقرأ بقية يومى قراءة جيدة ، لم أقرأ لأى روائى عربى حتى تخرجى فى الجامعة ، كنت أقرأ فقط الروايات الأجنبية مترجمة فى بعض الأحيان ، وفى أصولها فى أكثر الأحيان ، عرفت أن (بلزاك) ليس مجرد روائى إنما هو فيلسوف ، و(سومرست) لم يكن روائيا بل هو مصلح اجتماعى ، وكذلك (تولستوى) و(ديكنز وجوركى) هؤلاء هم القدوة ولابد من أن أصل إليهم بالعلم فما من كتاب يصل إلى يدى إلا وقرأته وأحاول السيطرة عليه وفهمه ، وما من باب للمعرفة إلا وقصدته حتى تلك التجربة مع المدعى الصوفى الذى حاول أن يستغل تلك العادة الموروثة فى قرانا بأن يدعى العلم بالغيب ويرى الرؤيا الصادقة ، صاحبته شهرا حتى أرى حقيقة ما يفعله وأتعرف على سره ، وما كدت أكتشف دجله حتى قدته إلى السجن

ثم ظللت أبكى ندما على مصاحبته ، وعندما تعرضت لمحنة الاعتقال أو محنة السجن قلت هاك تجربة جديدة تستحق التأمل وتستحق المعايشة ، وعندما اقتربت من السلطة لم يكن هدفى الكسب ولا إيثار نفسى بمكانة زائفة بل كان الاقتراب من السلطة لكى أفهم وأعى ، وفهمت ووعيت واختلفت معهم ، وكان اختلافى مثل قط صغير يقف أمام فيل كبير فداسنى الفيل ، وكانت التجربة مرة وتعلمت من الظلم الذى رأيته والاستبداد الذى مسنى وكانت محنة أن أجد نفسى وجها لوجه أمام الإلحاد ، إما أن أسايره ، فأكسب الدنيا وأخسر الآخرة ، وإما أن أتصدى له فأخسر السلطة والمال فى الدنيا ، أما الآخرة فلا علم لى بها وهى عند الله ، التكتل الأعمى للسلطة حاول إقناعى ، ولكنى كنت قد شعرت أن ما يفعله هؤلاء الذين دفعت بهم السلطة هو قبض ريح ، ولا أريد أن أنكر أننى فى البداية كنت معجبا بمنظمة الشباب والتنظيم الطليعى بالتحديد ، وتعاملت معهم وكنت فى المقدمة ، لأنى لا أكتب ذكريات تاريخية موثقة ، فأنا أكتب همهمات لرجل مريض لا يستطيع أن يفعل إلا أن يتذكر حياته السابقة مخلوطة بحياته الحالية ، فاليوم طويل والليل أطول ، والألم يأخذك فى دوائر الظلام ، مثل كرات

تتحرك فى سلال مخروطة ، ماذا فعلت ؟ لم يبق فى يدى شيء لا سلطة ولا مال ولا عمر ، الفعل الذى فعلته ، لا أدرى ما إذا كان يرضى عنه الله أم لا يرضى ؟ المال الذى ادخرته أنفقته الآن والعمل الذى قمت به فى وظيفة أو إدارة ذهب وكأنه لا شيء . حتى كتبى لا شيء لا أحد يذكرنى الآن ، لا أجد اسمى مكتوبا فى أية صحيفةٍ أو مجلة وكأننى ذهبت دون رجعة والذين يتصلون بى من القاهرة قلة قليلة ، وكأن الاتصال أمر فى غاية الصعوبة ألا يدرى هؤلاء الذين يقيمون فى القاهرة ، وكنت معهم أبا وعما وخالا وأستاذا ومعلمًا ومرشدًا أن مكالمة واحدة تكفى لكى أعيش لحظة سعيدة ؟ هل أقول أين أخوالى وأعمامى وأبى وأمى ؟ هل أصرخ ؟ أصرخ من الوحدة وخاصة بعد أن احتبس صوتى أضع السماعة على أذنى وأسمع صوت أولادى وهم يقولون تعالى يا بابا ، وأنا لا أستطيع أن أهمس بالكلمات فلا يستطيعون تفسيرها ، قالت زوجتى ذات مرة لا بنتى التى تصاحبنى (ترجمى) كأننى أصبحت فى ذمة التاريخ ، مثل تاريخ الفراعنة القدامى مجرد أسطر مكتوبة على الحائط لا يفهمها إلا المختصون ، ابنتى تقوم الآن بترجمة صوتى الهيروغليفى إلى زوجتى ، وإلى أولادى جميعا وكأننى

أتحدث لغة لا تتحدث بها أسرتى ، أليس هذا ثقيلا على قلبى المريض ؟ أين الأصدقاء الذين كانوا يتحلقون حولى ؟ منذ أشهر وأنا راقد بالمستشفى ، تجرى لى العمليات ، هل يكذبون ويقولون لا نعرف ؟ هل يستطيع أعمامى أن يقولوا لا نعرف ؟ هل يستطيع الأصدقاء والأخوات ؟ لماذا لا يحدثنى أشقائى ؟ إنها مكالمة لا يزيد ثمنها عن عشرين جنيها ما يعادل ثلاثة جنيهات إنجليزية أنفقها هنا فى سبيل شراء فاكهة ثم لا آكلها ، أشتهى العنب فيأتونى به فما أكاد أضع حبة واحدة فى فمى حتى أشعر بالغثيانج كنت أتلهف على أكل التفاح فيأتونى بالأحمر والأخضر والأصفر ، وأسرع نحو التفاحة لأقضم منها قضمة ، مرارة الدنيا فى تلك القضمة ، يأتى الباكستانى (محمد) بكل شيء يتصور هو أن المريض يحتاجه : شراب التفاح وشراب البرتقال ، لا أدرى من أين يحصل عليها مغلفة تغليفا جميلا وأطعمة أخرى وفاكهة ، (محمد) لم أعرفه إلا هنا عندما حضر مع شقيقه لإجراء عملية جراحية فاستمع إلى القرآن فى غرفتى فجاء متلهفا ودموعه تسبقه ، وقبلنى وجلس يقرأ القرآن ، فإذا به فى اليوم التالى يفاجئنى بالزيارة ومعه أشياء عديدة ، ثم يفاجئنى مرة ثانية بإحضار شرائط للقرآن الكريم بصوت

أحد الباكستانيين مقلدا صوت شيخ من مشاهير مصر ، وعندما يتحدث بلغة عربية يكون حديثه قرآنيا ومن آيات القرآن وتدمع عيناه ثم يتحدث بالإنجليزية ويجلس معى ساعة أو بعض ساعة تكون مريحة لى وتخفيفا عن ألمى ، وأتذكر أين أصدقائى ؟ أين الذين أخلفتهم فى القاهرة ؟ لا أريد منهم مالا ، أريد كلمة طيبة ، آه . . هل الصداقة قبض الريح ؟! هل الوفاء قبض الريح ؟! هل القرابة قبض الريح؟! أفتقد الصديق والقريب ، ماذا أفعل وقد انهدت ابنتى مرضا وازداد شعورها بالإرهاق؟ لولا هذا الطبيب الهندى الذى جاء الآن وأنا فى قمة يأسى لباحت نفسى بالمزيد ، ولكنه جلس بجوارى ، وسألنى وأجبته : حاولت أن أكون روائيا وتحملت غضب أبى نحوى لأنه يريدنى معه فى تجارته ، وقد كنت تاجرا نشطا وتحملت سخافة التعليم الذى يؤهلك لكى تحصل على وظيفة ، فما الضرورة لهذه الوظيفة من أجل مرتب محدود ، كان أبى يرغب فى أن أظل معه وسوف يعطينى ما أشاء من مال .

لكن كان ما كان ، ودخلت كلية الطب ثم أصبت بالعمى لمدة عام كامل قضيته فى الظلام لحظة طويلة دامت عاما كاملا لم تكن مجرد لحظة مثل تلك اللحظات التى مرت بى

عندما سقطت فى النهر أو عندما سقطت تحت عجلات القطار بل كانت طويلة وأنا أقاوم ، أردد ماذا يهم العمى ؟ لن يقف حائلا دون أن أكون أديبا ، طه حسين أعمى وكان وزيرا للمعارف ، فهل حال كف البصر عن مواصلة دراسته حتى أصبح كاتبا أديبا يكتب بفصاحة لغوية محببة إلى النفس ؟ لهذا حولت أوراقى إلى كلية الآداب وقلت أمسك العصا من المنتصف وأدخل قسما يتسم بالعلمانية وفى الوقت نفسه أكون ملتصقا بكلية الآداب التى بها جمع كبير من رواد الأدب سواء فى القصة أو الرواية واستفدت استفادة كبيرة من قسم الدراسات الاجتماعية والنفسية الذى التحقت به عندما كنت أعمى وساعدنى فى ذلك الوقت أننى تعرفت على أحد الزملاء وكان مجندا بالقوات المسلحة .

عندما مَنَّ الله علىَّ بالشفاء وافق أبى على الدراسة الجامعية لأننى كنت فى ذلك الوقت مهددًا بفقد البصر فلم يرد أن يكون قاسيا ويحرمنى مما أرغب وإن ظل هو مقتنعا بأن التعليم لا يجدى ، وأن الشهادات لا نفع فيها ، وأننى قد فقدت الكثير بانفرادى والابتعاد عنه يردد ذلك كثيرا ، لأننى قصدت بابا لا يرجى منه نفع ، وسلكت طريقا لا يرجى منه غنى ، وظل مقتنعا بهذا الأمر . وعندما تزوجت كان هو غير مقتنع بزوجتى لأنها تعمل أيضا ، وكان يرغب

فى تزويجى من بنات إحدى الأسر الكريمات فى بلدتنا ، ولكننى لم أفعل واخترت زوجة لا تجيد صناعة القهوة وهى فى النهاية موظفة واستطاعت هى أن تعمق الفجوة بينى وبين أسرتى لأنها كانت صريحة للغاية لن تعرف نفاقا ولم تعرف الكلمة كيف تقال لأناس مثل أسرتنا من الفلاحين ، وكانت تتباهى عندما تزور قريتى بأنها تكره الفلاحين ، وأنها لا تحب القرى ، كان أبى يريدنى بهى الطلعة جميل الملابس أنيقا ، وكان يحرص على ذلك عندما كنت صغيرا ، فرآنى بعد الزواج أهملت ملابسى لأن زوجتى لم تكن تهتم كثيرا بذلك وفقا لنظرية (قاسم أمين) أن الزوجة ليست عبدًا وليست مسئولة بأن تعد الحذاء لزوجها ، كما أنها ليست مسئولة عن أن تخدمه خدمة الزوجات القدامى ، وشعر أبى بأن زوجتى تعاملنى على أننى مجرد رجل زميل وليس كما تعامله أمى أو كما أرى جدتى تعامل جدى ، والزوجات فى القرى لسن عبيدا كما يتصور البعض ، بل هن كل شىء ، مركز الدائرة ، الزوجة الريفية مسئولة عن زوجها تقدم له الملابس وترشده للفعل وتهيئ له جوا مريحا فإذا ثار كانت هى هادئة ، وإذا خاف كانت هى شجاعة ، وإذا أحس بالخطر دفعته للمواجهة ، ولكن زوجتى لم تكن كذلك ، إذا فرحت بشىء فهو لى ، إذا غضبت من شىء فهو علىّ، إنها

مشغولة بعملها طوال النهار ، وعندما أنجبت انشغلت بقية النهار ببناتها ولم أر منها ذلك الحلم الذى أتخيله وانعكس هذا بصورة أو بأخرى على أسرتى التى كنت أحرص على زيارتهم فأنا أحب أبى حبا شديدا وأتلهف لرؤية أمى حتى أننى دوما أبكى عندما أغادرها ، كثرت زياراتى لأسرتى بمفردى أو مع أولادى البنات ، فقد كنت حريصا على أن أظل على علاقة طيبة بأسرتى وأن أوطد العلاقة بين أسرتى وبناتى ، عدت الآن إلى أمر الزواج ، وبدأت أشكو ، آه لا يهم هذا أيضا قبض الريح . جاءت الممرضة الآن وقامت بالتغيير على الجرح وساعدتنى فى خلع ملابسى ووضعتنى كالطفل الصغير على الفراش ولكن لا نوم هناك ، سألنى (إنديا) لماذا لا تنام قلت: بل أنام ساعة أو بعض ساعة ، وكنت فى القديم لا أنام مطلقا حتى بلغت الخامسة والأربعين ، ثم بدأت أنام بعض الوقت فى الفراش ولكن يظل عقلى متأهبا للإجابة على أى سؤال، وتعودت أسرتى الصغيرة على أن تسألنى وأنا نائم عن أى أمر وأنا أجيب ، أصحو وقتما أشاء، أذهب إلى فراشى وقتما أشاء ، أعطونى الحرية ولكنها حرية مؤلمة ، حرية تركتنى وحيدا لأوهامى وكم تاهت الأوهام ، واختلطت بالآمال وامتزجت بالأحلام واندمجت بالكابوس ، هل أنا فعلا قد حصلت على بغيتى ؟

وأصبحت أديبا روائيا ، منذ عام كامل ولم يكتب أحد عن روايتى الأخيرة ولم يكتب أحد عن مجموعتى التى صدرت منذ أشهر فقط ، أديب وكاتب روائى ولى الكثير من الكتب والمصنفات الفنية العلمية والمسرحيات والدراما التليفزيونية وأفلام السينما وآلاف المقالات فى الأدب والنقد وما إليها ومع هذا أشعر أن كل ذلك قبض الريح !

لا يهم الآن ، أنت الآن ترقد على السرير الأبيض فى غرفة منعزلة عن بقية الغرف. قالت الممرضة: يجب أن لا أخالط بقية المرضى، قالتها بجفاء إنجليزى غبى آلمنى ، وجعلنى أجلس طوال اليوم فى حجرتى نائما أو راقدا أو جالسا، وقد ازداد شعورى بالمرارة وازدادت الحسرة داخل نفسى وكأننى من المنبوذين . . يا الله ، وما أنا بفاعل شيئا وما فعلت شيئا ، أنا عدم ، أنا لا شىء ، كل ما أنجزته لا شىء ، كل ما فعلته لا شىء ، أنظر إلى سقف الحجرة أريد أن أثقب ذلك السقف . أريد أن أمزق تلك الحيطان ، تلك الجدران الباهتة اللون ، أريد أن أصرخ أدق رأسى فى الجدار ، أن أمزق ملابسى أن أخرج وأستغفر الله ، أشعر بدبيب المرض والضعف لا أستطيع أن أحلم ، لا شىء يحدث خارجى وبداخلى أعيش كالعادة منقسما إلى اثنين

أحدهما يفعل والآخر لا يفعل ، أما الذى يفعل فهو داخلى ، وأما الذى لا يفعل فهو أنا ، الممرضات يعرفن هذا الرجل النائم دوما ، الراقد دوما يتألم أو يهمس إلى مسجلاته ، يسألننى ماذا تفعل ؟ أقول لا شىء . حاولت أن أكون روائيا ، كتبت تحملت آلام المرض وعذاباته ، التحقيق والاتهام وعذابات كثيرة، وصادقت بداية من جمال عبد الناصر إلى ميكانيكى فى إدارة المرور ، كنت أجلس إلى كل هؤلاء ، تعاملت معهم ولكن كنت أتعامل من منظور الراغب فى أن يكون روائيا لا شىء أكثر ولا شىء أقل ، فهل أنا قدمت للرواية ما تستحق ؟ أعتقد لا شىء ، أنا لست ممن يستطيعون التسلل إلى الشلل ، أنا رابض خلف مكتبى أقرأ وأكتب ، جاءنى المرض ، أجلس على السرير أتألم ، وأشكو لا أحد ، تصور لا أحد ، لا شىء ، سبحانك ربى سبحانك ، أنت الملاذ وأنت الستار الحليم وأنت المنان الغفور ألجأ إليك ، أهفو إليك ، أقرع بابك بكل قوتى ، أتذلل أمام بابك ، أسجد راكعا ، أعفر دماغى فى التراب ، يلمس خدى التراب أشعر بنعومة التراب ولزوجة دمعى عليه ، أصرخ من أعماقى أنقذنى ، اشفنى ، أخرجنى من هنا أخرجنى من عزلتى يا رب. تنسال دموعى، أسمع صوت

طفلى ينادينى تعالَ يا أبى يا ولدى كيف أعود؟! أشتاق إلى أولادى ، أشتاق إليهم عندما أعود سوف أجعلهم يجلسون حولى ولا يتركوننى أبدا ليلا أو نهارا ، يأكلون فوق دماغى ويجلسون فوق دماغى وينظرون إلى دماغى وأنا أنظر إليهم يا الله هل هذا ممكن ؟ هل ممكن أن أعود إلى مكتبى وإلى كتبى وإلى أوراقى وأقلامى وزوجتى وأولادى . . تحدثوا إلىّ اليوم ، لا تقولوا شيئا ، يكفى فقط تعال يا بابا ؛ لأن صوتى لا يصل إليهم ، دعوات بالخير وكأنه برنامج إذاعى ، نحن بخير وسلامنا إلى الأهل ، نحن فى انتظارك ، المحادثة التليفونية لا تقدم ولا تؤخر ، فقط الرغبة فى الرؤية وأنا حبيس ذلك الصوت الذى فقدته فى أكسفورد ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ابنتى تجلس صامتة طوال اليوم تنظر ، أعرف أنها قد تعبت ومرضت ، لجأت إلى الأطباء ولكن ماذا أفعل لها ؟ أريد أن أشفى من أجلها ، أريد أن أتحرك من أجلها، لقد اتهمونى بالكسل ، وأنا إنسان كسول ، أنا إنسان مريض ، أنا إنسان أصاب بكل أنواع المرض ، ودخلنى الميكروب اللعين ، داهمنى عندما فكرت فى أن أكون روائيا ، تسلل إلى دماغى أصبت بالصداع ثم أصابنى بالعمى ، وضاقت بى الدنيا ولكن عطف الله، هو الستار

الحليم وهو المبتغى ، أحببتك يا الله ، أحببتك يا الله ، ألجأ إليك . ملاذى ، أنت خالقى أنا عبدك وابن عبدك ، أنا ابن عبيدك يا الله ، نجنى مما أخاف ، نجنى من عملى ، أنقذنى من رواياتى ، من أحلامى ، ومن النقاد الذين لا يتورعون عن أن يتجاهلونى ، وما تجاهلت أحدًا منهم ، تعاملت معهم فى براءة الأطفال وحكمة الرجال وشموخ الشيوخ، ومع هذا لم يفسحوا لى مكانًا فى قلوبهم ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولماذا أشكو ؟ لا أدرى . جاءنى من يخبرنى بأن هناك فى الحجرة المجاورة من يبكى لأنه فى انتظار إجراء جراحة يتصور أنها عملية مميتة ، يقول يارب خذنى ، بكيت، ذهبت إليه رغم حراسة الممرضات، وقلت له : يا هذا لا تبكى أنت فى أمان الله ، أنت فى حضن الله ، الآن يجلس بجوارك العظيم الأعظم ، ملك الملوك خالق السماوات والأرض ، كل شىء يسبح باسمه ، إنك غير مؤمن ، صرخ هو بأعلى صوته ، بل صليت الفجر حاضرا ، ولكنى خائف . عجوز فوق الستين ، يرتعش يبكى كالطفل لأنه افتقد زوجته وابنته يرقد ميتا فى انتظار الجراحة قلت له : معك من هو على كل شىء قدير ، قرأت القرآن ، ريكورد صغير فى يدى ، أقص

عليكم الحكاية ؟ فلتكن إذن حكاية لطيفة ، بعد هذا الجزء الممل ، حكاية فى غاية اللطف ، جاء أحد المرضى ، عندما علموا أنه لا يعرف اللغة الإنجليزية يلجأون إليَّ وإلى ابنتى ، وقالوا ترجموا لنا وله ، إنه رجل طيب قال : لا أملك مالا قلنا : نعطيك . قال : لا أملك رداء أرتديه ، أحضرنا له ما أراد ، قال : كيف أسددها ؟ قلنا لا يهم وبعد العملية سمحوا له بالخروج . فى اليوم الأول جاء ومعه جلباب أبيض ، قال : هذه هدية قلت : مقبولة . قال : وهذا ريكورد مثل الذى معك . قلت حسنا يا مصطفى احتفظ به . فى اليوم التالى جاء وقال : ذهبت إلى قلب لندن ، ورأيت المتاحف وبناء بيكاديللى ورأيت الحمام يسير فى الشوارع ورأيت كذا وكذا ، وكان سعيدا للغاية ، واشتريت كذا وكذا وأرانى ما اشترى : تليفزيونا صغيرا . . ثم مجموعات من المسجلات ، بعض الملابس ، فقلت له يا مصطفى أنت قلت عندما حضرت إلى هنا إنك لا تملك نقودا ، فكيف إذن اشتريت هذا كله ؟ قال معى نقودك وهى مال حلال مبارك ، فى اليوم الثالث جاء شاكيا لقد حجزوا له تذكرة العودة يوم الثلاثاء ومسكنه ينتهى إيجاره يوم الأحد فأين يبيت الليلتين الباقيتين على سفره بعد نفاد النقود ؟ قلت :

لقد تعبت منك والله ولم أتعب من مرضى ، فى البداية قلت ليس معى نقود ، صدقناك رحت تبذر النقود ، شمالا ويمينا ، تشترى أشياء عجيبة ، والآن كف عن الشكوى ماذا تريد الآن؟ قال : أود أن أشترى فيديو ، هل يمكن أن يسمحوا لى بإدخال فيديو إلى مصر؟ وكم تبلغ قيمة الجمارك؟ قلت بالله عليك ألا تكف؟ ليس معك إيجار الغرفة وتود شراء فيديو ؟! دعنا ندبر إقامتك أولا حتى موعد سفرك ، وعندما حان موعد سفره جاء يسلم ويودعنى فى براءة طفل ، وقال : سأحاول أن أصل إلى الإسكندرية الليلة بإذن الله وربما أخذت عربة خاصة ، فابتسمت ، هذا الرجل الذى ادعى أنه لا يملك مالا ثم أراه يشترى أشياء كأفضل ما يكون الشراء وبمبالغ كبيرة ، أشياء ربما تكون مجرد أشياء ثانوية وليست أشياء ضرورية أليس هذا أمرا مضحكا؟ نحن هنا أبناء مصر العزيزة نجعل أنفسنا مسخا أمام الآخرين ، فى إمكاننا بدافع الكرامة أن نكون من الكبار نفوسا ، ولكن للأسف نحن كبار فى الجسد صغار فى النفوس وهذا أمر فى غاية السوء وخاصة من الذين يقيمون فى لندن يبكون على لا شىء ويجعلون أنفسهم مداسا للآخرين ، آه.. عدت إلى الشكوى أنا الآخر ، على الرغم من رغبتى فى إضافة مسحة

من المرح ، سألنى زميلى (حسين) وكان قد عاد من القاهرة . . ماذا حدث فى الليلة الخامسة بعد العملية الجراحية الثانية؟ وكنت قد وصلت إلى حافة الهاوية ، حافة الجنون ، أن يصل العقل إلى عدم إدراك المحسوسات وعدم القدرة على أخذ المدلول الصحيح من وقائع الأحداث فيختلط الأمر لديه فيرى ما لا يرى ، ويفهم ما لا يفهم ، ويعيش فيما لا يعيش كما تمتزج الرؤى وتصبح (ذاته هو) التى يعيشها بخلاف واقع يعيشه الآخرون ، صحت بابنتى ، يجب أن أرى طبيبا نفسيا ، صرخت ابنتى ودموعها تتساقط ، لست محتاجا يا أبى . أنت أعقل الرجال ، قلت : أنا أتكلم الآن فى لحظة صفاء عقلى وما يدريك ماذا يحدث بعد ذلك ، فأنا مثلا لست أنا ، قالت : أنت أبى . قلت : أنا كانو ، قالت ، وما هذا الكانو ؟ قلت بل تنطق هكذا ، كانو ، اسمى . وانفجر الغيظ من رأسى إلى وجهها ، ففزعت ولكننى لم أهتم ، وقلت : يجب أن تعرفى اسمى جيدا ، أنا فعلا كانو قائد قوات الدفاع وقد أحدثت ثورة منذ ثلاثة أيام ضد هذا الملك الطفل الذى جاءوا به بعد أن قتلوا إخناتون رسول الإله الواحد ، وأغلقوا معابد آتون ودمروا محتوياتها ، صرخت ابنتى ، لا أدرى هل أنا والدها بالفعل

أم كانو ؟ يا إلهى لا أدرى بالفعل سقطت من فراشى ، قالت يا أبى لقد أعطوك مخدرا ، لكى تنام والآن الساعة الثالثة صباحا ، قلت : لها تأكدى يا ابنتى أننى الأمير كانو قائد قوات الدفاع وقد قمت بثورة فعلية ضد الملك الطفل وضد كهنة معابد آمون ، ذلك الشرير الذى امتص دماء المصريين ، سأحرر طيبة وسأكون ملكا . صرخت ابنتى ارقد يا أبى أنت مجروح ، لا يمكن إجراء عملية ثالثة ، لقد أجروا لك عمليتين، أجلس ، لن أهدأ حتى أحرر طيبة ورفعت سيفى وأمسكت به بشدة وأخذت أضرب كهنة آمون الملاعين الذين يريدون لمصر أن تعود لعبادة الأصنام، لن تعود مصر إلا للإله الواحد القهار الذى خلق كل شىء هذا ما كتبه الرسول إخناتون ، الذى أماتوه ، إنهم قتلوه يا ابنتى ولن يلذ لى شراب أو نوم أو رقاد الآن ، انظرى ها هم أولاء مساعدونى، انظرى هذا (سينوتاو) الذى يقود عربة مسلحة تجرها الجياد سأخوض غمار الحرب ، صغيرتى خافت منى ابتعدت ، اقتربت منها بكيت بشدة لا أدرى هل أنا الكانو أم شخص أخر ، أنا قائد قبائل (العولس) ، ، نحن متمسكون بمحمد ومتمسكون بالخليفة أبى بكر ، أمسكت بى ، اهدأ يا أبى اهدأ فلست هذا ولا ذاك ، أنت أبى ، أنت أبى ، لا ،

لست أباك إنما أنا قائد المسلمين سوف أحرر كل البلاد الإسلامية، رأيت فى عينيها الخوف ورأيت امرأة إنجليزية تنظر إليها بعطف، غضبت، رقدت على فراشى، من أكون؟ هل أنا مريض؟ صدرى مملوء بكل تلك الأشياء القبيحة، نظرت فى المرآة رأيت صدرى يغطيه الشعر الأسود الكثيف، تحسست الشعر فوجدته خشنا أسود، قلت : انظرى. قالت : يا أبى إنها غرز الجراحة. قلت : لا، هذا ظهر بعير. انظرى ها هو ذا شعر البعير، أنا لست كما تتخيلين، أنا، أنا عالم الفيزياء الشهير، أنت لا تعرفين من أنا، انظرى إلى عالمى، انظرى إلى أوراقى، انظرى إلى ما حاولت أن أفعله، أنا الأمير كانو الذى يحارب والذى حكم عليه بالهزيمة وهم يضعونه فى المشنقة نتحرر من الدنيا، نموت. جاءت سيدة سوداء قدمت إلينا مشروبا، هل بهذا المشروب سيقتلوننى؟ بكت ابنتى، توسلت، وضعتنى على مقعد آه، ها هو ذا كرسى العرش، أنا الآن الملك، لقد انتصرت ولم يستطيعوا شنقى، ركبت العربة، عربة الجياد، ستة جياد مطعمة ومصقولة بالذهب.. العربة الملكية، سقت العربة ولكننى يجب أن أذهب إلى دورة المياه، لماذا أترك العربة وأذهب إلى دورة المياه، فلتسل

المياه ، وسالت ، نظرت ابنتى نحوى فى أسى وملابسى قد ابتلت والماء يسيل وأنا أضحك ، دفعتنى ، ودفعت الجياد ، عدنا إلى الدور الأول ، قدمت لى مشروبا وضعته فى يدى حاولت ابتلاع المشروب نقطة نقطة، ملابسى ابتلت . الناس من حولى يدخلون ويخرجون وهم عرايا ، الماء ينسال منى ، أشعر بالماء الساخن يخرج من جسدى وأشعر بالماء البارد يتساقط على وجهى أنا الملك ، فعلا أنا الملك . نظرت نحو موظف الاستقبال فى المستشفى شذرا ألا تعرف من أنا ؟ دفعتنى ابنتى وأوقفت العربة فى مكان فسيح وجاء كل هؤلاء عبيدى وسوف أشنق من يضحك فى وجهى أو يبتسم أو حتى ينظر نحوى فى حزن . ذهبت ابنتى وعادت لتقدم لى قطعة چيلاتى ، قلت لا . أريد أن أجلس على عرش المملكة ، أن أجعلهم كلهم من الموحدين ابتسمت ابنتى وقالت هيا بنا نذهب إلى حجرتنا ، أية حجرة تعنى ، تصوروا أن أكون طفلا ملكا ورجلا شيخا وأبا لابنة فى سن الزواج ولا أدرى حقيقة من أنا! ولماذا جئت؟ وماذا فعلت؟ أية مرارة تشعر بها ، أن تنقسم إلى أربعة بل إلى عشرة أشخاص وأنت لا تدرى هل أنت قائد المسلمين أم قائد الفراعنة أم عالم الطبيعة والفيزياء أم الكاتب أم أب تلك

الفتاة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله نظر (حسين) نحوى وقال وهو يمد يده بالتسجيل : يبدو أنك عانيت كثيرا ، ولكن كيف أمكنك تسجيل هذا ؟ قلت مبتسما : ربما الأنا السادس هو الذى فعل هذا ، ما الذى يحدث عندما تتصادم الأحداث والإرادات وتتشابك المصالح الفردية مع المصالح العامة ؟ رأيت هذا عندما كنت طالبا وكنت أتدرب فى مؤسسة الأحداث وأعمل بها فى الوقت نفسه ، وعندما كنت قريبا من الرئيس محمد أنور السادات عندما كان يعمل فى دار التحرير ، الإرادات الوحدوية كل منها يسعى إلى تحقيق مصلحة خاصة ، فكانت جريدة الجمهورية فى ذلك الوقت تضم كتابا من أمثال (نجيب محفوظ) و(طه حسين) و (السباعى) ، وغيرهم من كتاب الجيل الشامخ ، وكان لى شرف التعامل مع الكثير منهم . ثم بعد ذلك اشتغلت فى رعاية الشباب وتعاملت مع (البغدادى) و(كمال الدين حسين) وغيرهم ، لا أتذكرهم الآن بالاسم ؛ مريض يرقد مطروحا على الفراش ويتألم لأن الأصدقاء لا يسألون عنه ويتركونه للزمن يأكله ، وهكذا مرت بنا الأيام لأن المصالح الفردية تتصادم دوما وتصطدم بالصالح العالم وقد كان هناك فى ذلك الوقت صراع حول السلطة ، هل هى ديمقراطية ،

أم ديكتاتورية ؟ هل هى شيوعية أم إسلامية ؟ تصادمت المصالح لا من أجل تطبيق الشريعة أو تطبيق الاشتراكية أو تطبيق مبادئ الثورة أو تطبيق حتى الحكم الديمقراطى ، تصادمت الآراء الشخصية والإرادات صداما حادا كما يحدث لى فى تلك الأحلام المزعجة التى تتقاذفنى يمينا وشمالا حتى كدت أصدقها وكنت أصرخ طالبا النجدة وتحويلى إلى مستشفى الأمراض العقلية ، فهل أنا كاتب أم قائد ثورى أم ماذا ؟ هل أنا فلاح ؟ تاجر موظف ؟ كل شىء قد اختلط وكل شىء قد امتزج مثلما رأيت عندما قدمت من قريتى ، واشتغلت فى أول دار صحفية صادفتنى بحماس شاب يؤمن بأن العمل واجب والعمل حق وأن العمل عبادة ، ولكنى اكتشفت بعد قليل أن العمل هو أن تعمل لصالحك ، وأن تنتج لذاتك ، وأن تساير الموقف فإذا كان اشتراكيا فيجب أن تكون كذلك ، وإذا كان رأسماليا فأنت أكبر داعية للرأسمالية ، وإذا كان إسلاميا فأنت ولسانك . رأيت هذا فى شارع الحلمية عندما صحبنى عمى إلى اجتماع لجماعة الإخوان . وكان اجتماع للمكتب التنفيذى لاختيار خليفة لحسن البنا بعد أن قتل ثم تأثرت الجماعة بقيام الثورة وأصبح لها عدة أجنحة جناح مع الضباط وجناح ضد

الثورة ، جناح يحاول أن يساير الطريقة الإخوانية الذى قادها (حسن البنا) الداعية الإسلامى ، كانوا يرغبون فى أن تكون الجماعة الإخوانية جماعة دينية تعرف الناس بمبادئ الإسلام ليكون الإسلام دين الحق وليس دين السلطة والجيش ، وأوجدت تلك الاختلافات إعصارا يأكل كل شىء أمامه أكلنى وأنا فتى لا أعرف ما الحقيقة التى تتقاذفنى وكأننى كرة فى ملعب لا أدرى أين الصواب ؟ وأين الصراط المستقيم ؟ وألجأ إلى الله وأصلى ، أدعو عندما أذهب إلى العمل لأجد جميع المصالح تتضارب . . هناك من يتشيع لرئيس مجلس الإدارة الذى كان فى ذلك الوقت أنور السادات الذى يقال عنه إنه عقل الثورة وقائدها المتعبدى ، وهناك (ثروت عكاشة) فى جانب وهناك (خالد محى الدين) فى جانب و (كمال الدين حسين) فى جانب . هزنى صديقى حسين وهو يقول : كيف مر عليك كل هذا ، لقد كنت طفلا فكيف وسع عقلك كل هذا لست وحدى يا حسين ، نحن أبناء هذا الجيل عشنا هذا ؟! العصر ، ولكنى تميزت عنهم بأنى اشتغلت بالقرب من مراكز الأعاصير ، وطالنى منها أذى كثير ، وإن كان هذا (الأذى) منحنى معرفة وعلما ومقدرة على التفكير ، آسف . . أشعر بالإرهاق وأرجو أن تغلق هذا المسجل .

الفصل الثاني



عندما انصرف الدكتور تحولت إلى مركب صغير فى عرض البحر وعندما اقتربت منى السيدة القطرية ، وقالت : لماذا لم تأكل يا ولدى ؟، قلت اجلسى يا أمى . عندما كنت صغيرا كان أبى يريد أن أكون معه فى التجارة ، كان يرى مستقبلى فيها ، وكنت أنا أحلم بأن أكون أديبا واصطدمت الإرادتان ، إرادة أب يريد لابنه عالم التجارة برحابه الذى يراه مستقبلا مبشرا لولده البكر ، يسانده ويسنده ويظل محله بعده ليظل اسمه متجددا ، وإرادة ولد يرى أن يكون أديبا أفضل . فى نهاية العام ينجح الغلام ويفشل الأب فى إقناع ولده بالكف عن العلام، ولكن الغلام يتابع العلام ويكمل العلام ويتحمل الأب فشله فى عام سابق على أن ينجح فى عام لاحق ، وجاءت الجامعة وكانت الصدمة الأكبر؛ لأن الغلام أو الفتى اصطدم بالظلام ، وصار فى وضع الأعمى وتوحدت الإرادتان ، كل يحاول الوصول إلى بر الأمان ولكن من زاويته الخاصة ، وعندما جئت إلى القاهرة وصدمنى الظلام ، حاولت أن ألتفت لنفسى وأن تتوحد إرادتى ، إرادة النجاح فى السنة الأولى بعد أن حولت

أوراقى إلى كلية الآداب ، ونجحت فى عبور نفق الظلام وفى عبور السنة الأولى ، وانهمكت جادا فى دراساتى وفى عملى ، كنا ندخل الجامعة رافعى الأيدى نحمل بطاقات الجامعة حتى يراها الجند على مبعدة وهم شاهروا السلاح ، ولا أدرى لماذا لم يذكر أحد من هؤلاء الذين يكتبون التاريخ أو يكتبون الدراما التلفزيونية تلك الصورة البشعة التى كانت عليها الجامعة عندما دخلت لأول مرة ؟ ورأيت الجند ، يقفون على مبعدة من سور جامعة القاهرة ويتركون ثغرة قليلة نمر منها واحدا واحدا وكل منا رافع يده ببطاقته الجامعية التى كنا وقتها ندفع فيها ثمانية عشر جنيها ، وكان يعد مبلغا فى ذلك الوقت باهظا فإذا دخلنا فلا كلام لنا فى السياسة ، ولا كلام لنا فى العلم ، نجلس فى المدرج ويأتى الأستاذ ويقول ، وعلينا أن نسجل ما يقول ، فإذا لم نستطع ملاحقته نتجمع بعد محاضرته ليرى كل منا ماذا كتب زميله ، ونحفظ عن ظهر قلب ما قاله الأستاذ لكى ننجح ، وفى النهاية كل عام يدرك الأستاذ أننا ما حصلنا من علمه شيئا فيقول : علينا أن نذاكر الفصل الأول والخامس لكى نمتحن فيهما وهذا يكفى؛ لأن العلم فى (الكراس وليس فى الرأس) كما يقول أباطنة ومحترفو الامتحانات فى الجامعة . . وتدهورت حالة

الجامعة لأن الإرادة الفردية هى المسيطرة ، وإرادة الأستاذ هى المرجع ، فلا داعى للمكتبة ولا للمصادر ولا للكتب ، وإرادة العميد فوق الأستاذ؛ لأنه يستطيع إلغاء مادة أو مادتين ؛ لأنهم ليستا على مزاجه. وقد حدث هذا تكرارا ، فإذا ما حصل فتانا على الليسانس ودخل إلى متاهات الدراسات العليا فإنه دخل بجسده وبرأسه إلى قفص الأسود ينهشه الأستاذ ويصنع به ما حلا له ، فإذا ما انتهى هذا الفتى بعد أن أصبح رجلا ناضجا وفوقه أعمال الأسرة حصل على الدكتوراه بصعوبة بالغة . ذلك أن الأستاذ قرر منحه إياها لا عن علم تعلمه ولا عن دراسة أكدها الطالب ببحثه القيم بل لأغراض أخرى وكله بثوابه والأجر والثواب عند الله .

هكذا بعد أن حاصروها ، وأصبحت مهيأة لكى تأكلها الديدان والحشرات والإرادات الفردية ، وأصبحت الدرجات العلمية تعطى لأبناء الأساتذة ، ولمن يدفع ، ولأبناء من يملك الدولار وكله بثوابه حتى رسائل الدكتوراه يتعهدها المتعهدون ، المنتشرون فى كل مكان يكتبون الرسائل بدلا من الطلاب لأن الطلاب مشغولون بإلقاء المحاضرات بدلا من الأساتذة ، والأستاذ عنده جدول فى الإسكندرية وثان فى قنا وثالث فى أسوان ورابع فى جرجا وخامس فى بنها

فكيف يستطيع الذهاب إلى كل هذه الجهات فى الوقت نفسه؟ إذن لا بد من حيلة ، وفى النهاية تباع مخطوطات الرسائل فى مقابل جنيهات قليلة ، ذلك لأن الأستاذ قد ضاق بالرسائل القديمة التى لم يقرأ منها إلا صفحات معدودة لكى يهيئ نفسه للمناقشة ، وضاعت الرسائل الجامعية بين إرادات الأساتذة وإرادات الطلاب وإرادات الجامعة ، والتوسع الجامعى ؛ لأن كل من يريد أن يتزوج عليه الحصول على شهادة الجامعة أما إذا لم يدخل الجامعة فهى مصيبة كبرى أصابت الأسرة ، تتواسى الأسر وتتذمر ويشعر الزعيم بأن إرادات شعبه ربما تتجمع لتصنع إرادة واحدة تثور عليه ، فيبعثر الجامعات يمينا وشمالا ، ويخلق المعاهد والدراسات التى يمكن عن طريقها عمل التحويلات ليدخل الجميع ساحة الجامعة ، ولأن هؤلاء جميعا يحتاجون إلى مدرسين وأساتذة فإن شهادة الدكتوراه يجب أن تكون متاحة فلا داعى لمناقشة طويلة وبحث أطول .

كان حديث اليوم مع توفيق الحكيم حول الكذب ، قال : عيبك أنك لا تكذب ، قلت : هل تعلمنى الكذب ؟ قال : نعم . قلت هذا حرام ، قال : اسمع أنا لا أتحدث عن الكذب كما تفهم أى أنك تقول ما ليس هو فى الحقيقة

واقع ، بل أتحدث عن المحاورة ، يجب أن تقنع المتعامل معك بأنك لا تهتم بما يعرضه عليك بينما تكون أنت فى حاجة إليه ، يجب ألا تصر على أنك فى حاجة إلى الشىء فيأتى إليك ، يجب أن تكون زاهدا فى الأشياء وفى الوقت نفسه تريدها ، هذا ما أعنيه بالكذب وأنت لا تفعل ذلك ، ضحكت وانصرفت عائدا إلى مكتبى ، وفى اليوم التالى جاء صوته عاليا ، تعال اجلس وجلست ، قال أنا ألومك بشدة ، قلت : على ماذا ؟ قال : أنت تحول كل أعمال الأدباء إلى أعمال جميلة فى التلفزيون ، ولا تأخذ أعمالى مع أننى كما تدعى أبوك ، وقلت نعم والله . قال إذن خذ أحد كتبى وحوله إلى عمل تلفزيونى ، فقلت ، اختر أنت وأنا على استعداد لفعل ذلك ، قال أريد مالا كثيرا ، قلت سوف أبذل جهدى لكى تحصل على المال الكثير ، قال لقد كتبت لك قصة باسمك وناولنى بيد مرتعشة ورقتين اثنتين ، فقرأت (محاكمة شهر زاد) بقلم فتحى سلامة ، فقلت كيف تكتب لى قصة بخطك أنت وتكتب عليها من تأليفى وأنت توفيق الحكيم؟! قال هذا ما فعلت واقرأ القصة جيدا ، فأرجو أن تحولها إلى عمل درامى جميل . قرأت القصة: شهر زاد تعود فتحاكم كل من كتب عنها بالتحديد توفيق الحكيم وطه

حسين ، فقلت له : بعد أن قرأت القصة أو بمعنى أصح ملخص العمل الدرامى الطويل ،قلت له : كيف أقدمها للتليفزيون وأنت كتبت بخطك هذه القصة وبالتالى كيف تحصل على الأجر ، قال: لقد فكرت فى هذا طويلا ، كل ما فى الأمر أننى أريد أن أحصل على مال ، فقلت له : أنت تتكلم بصراحة ولا تكذب الآن ؟ قال : معك أنت أتكلم كما أشاء ، فقلت له : حسنا سوف أفكر ، قال بل تفعل ، فقلت: أنا غير مقتنع لأن هذا يقتضى منى دراسة كل الأعمال التى تناولت حكاية شهر زاد ، حكاية ألف ليلة وليلة فى كل الكتب العلمية والأدبية لكى ألم بالموضوع وهذا يقتضى منى وقتا طويلا وليس عندى منه شىء ، اختر رواية أخرى تكون جاهزة وأنا أفعل ، فقال لى : هاك المفتاح وتعالَ نستعرض الروايات أو الكتب التى تصلح للتحويل . فتحنا الدرج بمفتاح يتدلى من سلسلة طويلة كان قد ربطها بصديرى داخلى لأنه يرتدى دوما أكثر من صديرى وأكثر من چاكتة ليحافظ على نفسه ثم البالطو يرتديه عندما يخرج وطبعا البيريه والعصا وهو لا ينسى ذلك مطلقا ، يضع النقود داخل الصديرى الداخلى فى حرص بالغ ، يفعل هذا فى تؤده بعد أن يكلفنى بعد النقود وأضعها له فى جيب سرى

داخل الصديرى الداخلى الملتصق بقميصه ، وأخرجنا الكتب واخترنا أن نحول يوميات نائب فى الأرياف إلى عمل درامى طويل ، وبذلك قمت بتلخيص الرواية التى أعجبتنى كثيرا ، وكنت أول مرة أقرأ تلك الرواية ، وذهبت إلى التلفزيون وعرضت الأمر على السيدة (سامية صادق) التى رحبت بالأمر فى سعادة ملفتة لتعاونها مع الكاتب الكبير : توفيق الحكيم ووافقت على أن تقوم بإنتاج هذا المسلسل ، فقلت إن له شرطا واحدا ، أن يقبض ثمن الرواية وفورا ثم يوقع العقد ، قالت فى صراحة ودودة : نفعل هذا، ولكن بطريقتنا. وبالفعل قاموا بتحرير العقد وكلفوا صرافا بحمل النقود وأيضا حمل العقد فإذا ما وقع العقد يقبض المال ، وبهذه الطريقة قد نكون أرضينا الكاتب الكبير ، وذهبت مع الصراف إلى مكتبه وقلت مبشرا إياه .. هاك النقود يا أستاذى ، قال : كم؟ قلت : ثلاثة آلاف جنيه ، قال : فقط ؟ قلت : إن الجميع يحصلون على ألف ونصف ولأنك رائد لنا يجب أن تحصل على أجر مضاعف ، قال : هل أتممت عد النقود ؟ قلت : نعم . قال : بل تعيد عدها أمامى فقمت بعدها أمامه ، قال : ضعها كما تعودت داخل السرداب ، فتحت الجاكت ثم الصديرى الأول ، ثم

الصديرى الثانى ، ثم الصديرى الملتصق بجسده ، ثم وضعت النقود فى جيبه السرى الذى اكتظ بالمال الوفير ، حتى إننى حرت ماذا أفعل ؟ فوضعت فى كل جيب رزمة من النقود ، أغلقت الصديرى الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الجاكتة ، واضجع هو فى سعادة شديدة . قلت : يجب أن توقع على إذن الصرف والعقد . قال : ولم ؟ قلت له : اسمع لا محاورة ولا مناورة لقد أتيت لك بالمال والعقد فإذا لم توقع فإن هذا سيكون بمثابة مقلب كبير أشربه أنا وتشربه سامية صادق ، ووقع العقد دون أن يقرأ ، وكانت هذه أول مرة يفعل ذلك ووقع إذن الصرف . همس لى الصراف بأنه يريد منه أن يمضى على جنيه واحد . قال الحكيم هذه خسارة يا ولدى ، لماذا تريدنى أوقع على هذا الجنيه ؟ فقال: تذكار ، قال : أتحبس عندك جنيها كاملا لمجرد أن توفيق الحكيم وقع عليه ؟! قلت له الجنيه من عنده وهذا يسعده . قال : ولكنه خراب ديار ، كيف يحبس جنيها كاملا فى جيبه لمجرد أن عليه توقيع توفيق الحكيم ؟! قلت له وقع من فضلك؛ هذا الرجل مطالب الآن بأن يذهب إلى رؤسائه ليريهم العقد ،فكتب اسمه على الجنيه كما وقع ورقة بأنه موافق على تحويل روايته يوميات نائب فى الأرياف إلى

مسلسل تلفزيونى أقوم أنا بتحويل العمل من رواية إلى عمل درامى ، وأخذ الصراف كل تلك الأوراق إلى التلفزيون وفى اليوم التالى حدثتنى سامية صادق فى مرارة وقالت : كيف تكذب علينا ونحن نثق بك ؟ قلت ولمّ هذا الحديث ؟ قالت : توفيق الحكيم أرسل إلى شكوى الآن يقول : إنه حصل على المال ولكن ليس من أجل تحويل يوميات نائب فى الأرياف ، ولن يكلفك أنت شخصيا بذلك ، فقلت لها يا سيدتى لقد وقع الورقة أمام الصراف ، و أنا مستعد للتخلى عن العمل لأننى شخصيا لم أقبض من التلفزيون مليما واحدا ، ولم أوقع عقدا ، قالت : ولكننا نريد أن نحول هذه الرواية ونريد أن نتعامل مع توفيق الحكيم ، قلت لها: أعطنى فرصة لكى أتحدث معه وذهبت إليه . . . كيف تفعل بى هذا ؟ أنا أعلم أن هذه مناورات منك تقوم بها يوميا لكى تحصل بها على أكبر عائد من المال ، ولكن أن تفعل هذا بى فهذا ظلم كبير ، فقال فعلا أرسلت إلى التلفزيون أخبرهم بأننى غير موافق على تحويل هذا العمل بالذات ، فليأخذوا عملا أخر ، كنت قد عرفت توفيق الحكيم عن قرب ، فقلت عملا أخر ؟ أجر أخر ، أى عقد آخر هذا ما تسعى إليه ، أما سمعتى أنا شخصيا فهى لا تهمك ، وأصابتنى نوبة من

الصراخ والثورة فقد كنت شابا فى ذلك الوقت أستطيع الثورة ولا أستطيع الصبر ، فجاء ثروت أباظة على صوتى ، قلت : كيف تفعلون بى هذا ، أنا الذى أقدم إليكم المعروف فتجحدون وتتنكرون لى فى وقت الشدة ؟! وسقطت مريضا وجاء الطبيب إلى مكتب توفيق الحكيم ، وقال لى محذرا سأحملك المسئولية إذا حدث لك شىء . ضحكت كيف أتحمل أنا مسئولية ما حدث لى ؟! حملونى إلى البيت وأنا فى حالة سيئة ، كيف يفعل بى توفيق الحكيم هذا ؟! وخاصة وقد غضبت سامية صادق ؛ ولأنه أصر على رأيه فإذا ما أرادوا التعامل معه فلا بد من أن يطلبوا منه رواية جديدة وأن يحصل هو على أجر جديد لأنه لم يرشح هذا العمل ، وبعد يومين كان اجتماع شعبة الآداب فى المجالس القومية وكان هو رئيسها وأنا عضو فى تلك الشعبة ، وكانت الشعبة فى ذلك الوقت تضم عمالقة الآداب فى مصر ، وبدأ الاجتماع ، وقام يوسف جوهر وشرح أمر الخلاف الحاد بينى وبين توفيق الحكيم ، وقال لتوفيق إن ما حدث يعد أمرا بسيطا للغاية يمكن علاجه بأن توافق ، قال : لن أتراجع عن قرار اتخذته ، فقال ثروت أباظة : إذن كلفنى بالاتصال بكل الأطراف وأنهى هذا الموضوع ، لأنك بالفعل موافق على

تحويل الرواية وقد اطلعت على خطاب التحويل وهو موجود لدى السيدة سامية صادق ووقعت العقد ، وأخذت النقود على هذا النحو ، فكيف بالله عليك تقول لهم الآن : لا أريد ؟ أنت تضع فتحى فى موقف حرج للغاية ، إما أنه قام بتزوير توقيعك وأخذ المال لنفسه ، وسيكون قد وقع فى ذنب لا يغتفر وجرم يعاقب عليه القانون ، وهذا ما لا ترضاه لابنك أنا أعلم حبك له ، فقال له توفيق الحكيم : إذن أعطيك الحق فى أن تقوم بالاتصالات التى تنهى هذا الموضوع لصالح فتحى ، قال له نجيب محفوظ : يا توفيق بيه .. جاءت الممرضة وانزعجت لارتفاع نسبة الدم فى البول ، وذهبت لتأتى بالطبيب ، قال نجيب محفوظ يا توفيق بيه أخطأت فى حق فتحى وهو ابننا على كل حال وهو ابنك المدلل يكفى أن تعتذر له ، فقال فعلا أنا أخطأت فى حقه ، وطلعت مغفل ، دقت كلمة مغفل فى آذاننا بالعجب والدهشة ، هذه أول مرة يعترف توفيق الحكيم أمامنا جميعا بأنه قد أخطأ بل يقول عن نفسه هذا اللفظ الجارح ، فوضع نجيب محفوظ يده حول أذنه وقال له : أنت ماذا يا توفيق بيه ؟ فثار توفيق الحكيم وقال : سمعت يا نجيب ، لقد سمعت ، هل تريد أن أكررها وضحكنا ، وانقلب الموقف

إلى مضحكة ، ولكنه أثر فى نفسى كثيرا ، كيف يفعل بى توفيق الحكيم هذا ؟ بينما وقف بجوارى وناصرنى فى مواقف عدة مثل تحويل (الورطة) إلى عمل مسرحى وأراد أحد النقاد أن يهز العلاقة بينى وبين توفيق الحكيم فادعى أننى قد حولت رواية الورطة إلى مسرحية نجحت نجاحا جماهيريا كبيرا بينما لم تنجح الورطة وسقطت بعد أسبوع واحد سقوطا مذهلا ، أما الرواية الجديدة وهى مجرم تحت الاختبار والتى كتبتها عن الورطة فقد نجحت نجاحا منقطع النظير واستمر عرضها لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام على ما أذكر ، وحاول الناقد الوقيعة بينى وبين توفيق الحكيم الذى ثار وأرسل إلى رئيس التحرير مقالا مختصرا (أنه وافق على تحويل الورطة وأنه أعجبه ما كتبه فتحى سلامة ، المسرحية جيدة ، كان يتمنى أن يكتبها هو ، وكتبها فتحى سلامة عن جدارة وتميز يعترف به) ، ونشر مقال الحكيم واستطاع أن يوقف حملة ضاربه كادت تطيح بى ، تعلمت الكثير من توفيق الحكيم ولكنى لم أتعلم المناورة والمحاورة اللتين كانتا يحاول أن يعلمنى إياهما ، وقد ذكرنى هذا الموضوع بموقف قد حدث لى منذ ثلاثين عاما تقريبا ، فقد أقام لنا مؤتمرًا للأدباء الشباب كان من بينهم أديب ناقد لامع

الاسم ، يتحدث كثيرا عن الدراما وعن الرواية الكلاسيكية والرومانسية واليونانية إلى غير ذلك من أحاديث ومقالات يدبجها فنشعر أننا أمام ناقد كبير ، جهبز كما يقولون . كان المؤتمر قد توزع إلى لجان ، وكان من بينهما لجنة الرواية وكان من الطبيعى أن ألتحق بتلك اللجنة ، فجلست فى اليوم الأول ولم أفتح فمى ، كنت أريد أن أستمع وتصدى الناقد المشهور ليكون مقررا فأخذ يستعرض عضلاته الثقافية والفكرية فقال إنه قد قرأ كتبا كثيرة حول الرواية وأخذ يردد أسماء المؤلفين من فرنسا وإنجلترا وألمانيا وروسيا وأمريكا ، والجميع ، وكنا شبابا فى ذلك الوقت ، ننصت باهتمام نفتح أفواهنا وهو يلوك أسماء أجنبية لم نسمع بها من قبل ، وكنت والحمد لله مطلع على الأدب الغربى وعلى الأدب الروسى وأدب أمريكا اللاتينية أكثر ما اطلعت على الأدب المصرى الحديث وخاصة فى مجال القصة والرواية وكنت لم أقرأ بعد كل أعمال (نجيب محفوظ) و(يوسف السباعى) و(محمد عبد الحليم عبد الله) ولا أعمال غيرهم من أمثال (أحمد باكثير) و(يوسف جوهر) و(سعد مكاوى) وغيرهم ، كنت ملهوفا على قراءة تولستوى وأعمال عمالقة الأدب الروسى وأيضا صفوة من أعمال الكتاب العمالقة

الذين أثروا الرواية وخاصة الرواية فى فرنسا وإنجلترا وكنت معجبا شديد الإعجاب بالكتاب الروس والفرنسيين وعلمت منهم أن الرواية ليست حكاية تحكى ولا قصة تروى ، إنما هى قطعة من حياة وعلى الكاتب أن يتسلح بالعلم فى كافة المجالات ، وقد أفادتنى هذه الرؤية كثيرا كما اطلعت على الأعمال النقدية وخاصة الأعمال الحديثة ، فأخذت أفتش فى ذاكرتى عن تلك الأسماء التى قالها زميلى المقرر ، وله فى قلبى منزلة خاصة فقد أحببته كثيرا رغم علمى بدجله ، وأمر النفس هذه أمر شائك ، فى تلك الجلسة أخذ يلوك فى فمه أسماء فرنسية وإنجليزية وأمريكية وروسية حتى إن الجميع جلسوا صامتين خاشعين؛ لأنهم أمام مفكر عبقرى يعرف أكثر منهم ، فى الجلسة التالية أردت أن أمتحن هذا المقرر الناقد الفحل ، فقلت له يا أستاذنا هل تسمح لى بخلاف بسيط بينى وبينك ؛ لأننى قرأت كتابا للناقد الإنجليزى المشهور ، ذكرت اسما من وحى خيالى مجرد اسم ألفته ، وقلت مجموعة من المصطلحات التى يمكن أن تبدو حقيقية وبالتأكيد أفادتنى دراساتى الأكاديمية فبلورت مجموعة من تلك المصطلحات أخذت أتحدث عن البروفيسور فلان وأخذت أؤلف اسما ألمانيا وثانيا إنجليزيا

وثالثا فرنسيا يتحدثون عن الرواية وألوك على ألسنتهم ومستشهدا بمجموعة من الجمل ذات الرنين وذات المضمون غير المفهوم ، نظر نحوى أعضاء اللجنة بانبهار شديد ، وتوقف هو طويلا وهو يتأملنى وظننت أول مرة أنه سوف يضحك أو يقول توقف ، فإن تلك الأسماء غير حقيقية حيث إنه يشير إلىّ دوما أن ما من كتاب حول النقد الأدبى ظهر فى أوروبا إلا وقد قرأه فإذا كان هو كذلك فلماذا لم يعرف أن تلك الأسماء التى أصنعها صنعا ليست بحقيقية ، فلما انكشف هذا الناقد الفحل أمامى خرجت من اللجنة ولم أعد إليها ، وعرفت أن النقد لدينا منذ أواخر الستينيات أى كلام ، لا أدرى لماذا تذكرت هذا الموقف الآن ؛ لأن هذا الموقف يعد مثلا لما يحدث فى حياتنا ، ليس فى مجال النقد وحده بل فى كل المجالات ، يكفى أن تجلس وأن تضع ساقا فوق ساق ثم تلوك بعض المصطلحات الإفرنجية مستغرقا فى تفكير عميق وتترك للسانك العنان مستخدما أغرب الكلمات وتقيم لونا من ألوان الخداع الكلامى أو اللغوى لكى تبرهن على أنك عالم كبير فى مجال الطب أو الهندسة أو الفلسفة أو الأدب ، يكفى أن تعرف مجموعة من المصطلحات ، وتدخلها فى جمل غير مفيدة ، لكى يراك

الناس على أنك عالم متبحر ولأن الناس لا يقرأون فإن ما تقوله هو عين الصواب فإذا قلت إن هذا الأمر يخضع لقانون الجاذبية أو أنه لا يخضع ؛ لأنهم لا يعرفون ما هو قانون الجاذبية ، إلا إذا كان الحديث حول الجاذبية الجنسية فإنهم يندفعون فى حماس لكى يزيدوا كلامك توضيحا ، أما إذا كان فى مجال الأدب والعلم والفلسفة والفكر ، فإنهم ينظرون إليك فى لا مبالاة لأن لاشىء يهم ، الطناش هو الفلسفة القائمة الآن ، ولأنه كما قلت المسألة هى إرادة أفراد وليست إرادة جماعية ، الإرادة الجماعية لا تتجمع إلا فى كارثة تحل بالمجتمع كله أو فرح طاغ ، أما إذا كانت بين ذلك أو أقل فإن الأمر يهون ، وكل منا يبحث عن طريق ، وكل منا يمشى بجوار الحائط ، لا أدرى لماذا أقول هذا الكلام الآن ؟ ربما ضعفى الشديد هو السبب ، هنا فى المستشفى يروننى رجلا سعيدا ومحظوظا وشجاعا ، الحقيقة ليست كذلك على الإطلاق ؛ فأنا أجلس مهموما ، عقلى كله يدور فى فراغ، يذكر أشياء تافهة، يتذكر عندما كنت فى الرابعة وجاء شرطى وقتل كلبى (فوكس) وقد كان كلبا جميلا ، من نوع الوولف ، أعطاه لى أبى وكنت أنا أمتطيه وأذهب إلى مدرستى وهو يجرى مثل حصان فى ميدان

السباق ، فإذا ما وصلت إلى باب المدرسة نزلت ودخلت وظل هو واقفا حتى أخرج فى نهاية اليوم الدراسى ونعود للبيت معا ليأكل هو نصف أقة لحمة مفرومة أعدها أبى ، ويجلس على باب حجرتى ملبيا أى طلب أطلبه فإذا قلت له أعطنى المنديل يعطينى ، وإذا لعبت بالكرة ولاعبته وقذفتها له بعيدا يحضرها إليّ ، وإذا ذهبت إلى الحقل يجرى خلفى حتى إننى اشتهرت بأننى أجرى مثله ، ولذلك كنت أسرع أطفال المدرسة ، ولا أدرى كيف تعلمتها بل وأندهش الآن أننى كنت أفعل ذلك لأننى أصبحت لا أجرى ولا أكاد أسير ، تذكرت هذا عندما ذهبت إلى مدرستى وظللت ثلاثة أعوام لا أعرف . . القراءة ولا الكتابة . قام الطبيب بعمل ثقب فى الرقبة وأدخل أمبوبا كبيرا ثم أوصله بمجموعة من الأسلاك ، كانت الوجوه من حولى مشفقة ، لا أدرى لماذا ، وكان الطبيب نفسه ، ينظر نحوى كل لحظة ليتأكد أننى لا أزال أعيش ، أدخل الأنابيب والأسلاك فى أجهزة كثيرة وشعرت بالبرد الشديد ، قلت ضاحكا :

- لماذا هذا الحزن على وجوهكم؟

- ابتسمت لولا وقالت :

- لا شىء . . فقط حاول أن تتماسك .

لولا من الصين وتعيش مع رجل دون زواج ، عيونها خضراء ، وهى سمراء وقلبها أبيض . . وتداخلت الصورة فى دماغى .

(الجحش) ، كنت فى طفولتى أراقب الجحش ، وهو اللفظ الذى يطلقونه على الحمير الصغيرة -إلى حد ما- أو شباب الحمير ، وهم أكثر فاعلية؛ لأنهم يتحملون المشاق ، وفى كل بيت جحش كبير ، وهذا الجحش له أهمية قصوى ، تكاد تعادل رب الأسرة ذاته ، وهو حمَّال الأسية ، يعمل طوال يومه من الحقل إلى البيت ومن البيت إلى الحقل ، ومن البيت إلى السوق ومن السوق إلى البيت وهكذا ، فإذا ما أراد الفلاح أن يذهب إلى فرح أو مأتم يركبه ، وإذا أراده شاحنة أو إذا أراده عربة ملاكى فهو كذلك ، كل ما يتغير ظهر الحمار أو ظهر الجحش ، يضع عليه ثوبا أنيقا؛ لأنه ذاهب إلى فرح، وغبيطا لأنه يحمل سباخا أو رمادا و(شنفة) لأنه يحمل تبنا ، تتغير الأشياء التى يحملها وما يتغير الجحش ، مطأطأ الرأس ، منكس الذيل والأذنين ، يمشى بجوار الحائط لا يهش ولا ينش ، يحفظ الطريق من أول مرة وأحيانا يقرضه صاحبه إلى شخص آخر . أرسلنا الطعام الذى جاء إلينا من الأصدقاء إلى

الممرضات ، كانت (الكبسة) ساخنة ضحكت الممرضات عندما أخبرناها بأن أمى قد أرسلت هذا الطعام الساخن من بلدنا بالطائرة ، قال بعض الزوار : إن الأسلاك المدلاة تعوقنى عن الحركة ، نسيت وجود الزوار فى حجرتى. قال جحا: إنه اشترى حمارا فأركب ولده الحمار ومشى هو خلفه ، فقال له الناس أيركب ولدك وهو صغير وتمشى أنت وأنت كبير ، وركبا معا وقال له الناس أتركبا أنتما الاثنان على ظهر هذا الحمار المسكين ، وهبطا الاثنان وتركا الحمار خلفهما فقال له الناس ولماذا خلقت الحمير؟! لماذا لا تركبان ؟ فقام جحا وولده فحملا الحمار ، وتنتهى القصة الساخرة التى لعب فيها الحمار دورا مؤثرا فى الحكايات الشعبية ، دائما تجد الجنية التى تتحول إلى حمار ، إذا استطاع فلاح ماهر أن يضع فى ظهرها (مسلة) يكسب الفلاح الذكى حمارا قويا لا يمل من العمل ليلا ونهارا ، وأيضا لا يأكل وهذه أمنية داخل كل فلاح يتمنى دوما جحشا أو حمارا لا يأكل لأن طعام الحمار هم ثقيل، ولى قصة اسميها (أبو الروس) كتبتها فى زمن عبد الناصر وهى قصة فلاح ذكى لاحظ أن أهل القرية يبيعون التراب إلى أصحاب مصانع الطوب لكى يحولوه إلى الطوب الأحمر وازداد الطلب إلى

التراب والتراب يحمل على حمير واستطاع هذا الفلاح الذكى أن يقنع الناس بأن يؤجروا حميرهم إلى أصحاب تلك المصانع ، فإذا ما سلب الفلاح حماره فإنه لا يستطيع الوصول إلى مزرعته ولا إلى بيته فيظل قابعا بجوار باب داره منتظرا أجر الحمار، ولأن أصحاب مصانع الطوب لا يدفعون إلا كل أسبوع فعلى فلاحى القرية الانتظار ، وتولى أبو الروس أخذ النقود جملة لكى يوزعها عليهم . ولأن الحمير تحتاج لمن يقودها لتعمل أسرع ، وأيضا لكى يتضاعف المبالغ التى يجب أن يحصل عليها الفلاح فقد اقترح الفلاح الذكى أن يعمل أطفال القرية مع الحمير والرجال يجلسون أمام بيوتهم ، يلعبون السيجة ويغنون والنساء فى الدار ، يتلهين بالطهو والغسيل وإنتاج الأطفال ، والأطفال يجرون خلف الحمير لكى يدفع أصحاب المصانع المال إلى أبى الروس كل يوم سبت ، ولأن المال فى يد أبى الروس أكثر أمانا ، فقد أقنع الفلاحين بأنه من الممكن أن يشترى لهم ما يشاءون وتعود الفلاحون أن يعتمدوا فى كل شىء على أبى الروس ، لدرجة أنه إذا مات أحدهم يتولى هو دفنه وإقامة المأتم ، واستراح الرجال إلى هذا الأمر فتركوا أمورهم إلى أبى الروس الذى نشط فى همة يتحمل

كل همومهم وكل متاعبهم واستراحت النساء لأنهم يرون على مقربة منهم أزواجهن لا يفعلون شيئا ، ثم إنهم بجوارهن والأكل على النار ، وبالتالى ازدادت النساء إنجابا وكثر الأطفال وازدادت القرية عزا . . فى يوم وجدوا أبا الروس وقد مات على حافة النهر ، وقف أهل القرية فى حيرة ماذا يفعلون؟ لو كان حيا لقال لهم ماذا يفعلون ، ولكنه لا ينطق ، مات أبو الروس ، ويظل أبو الروس ممددًا بين جسر النهر ومجراه ولا أحد بقادر على أن يقرر شيئا ، نشرت هذه القصة فى مجلة الهلال وسبب لى نشرها حرجا شديدا بل إن مباحث أمن الدولة مشت خلفى شهرا كاملا ، لتدقق هل أنا شيوعى أم إخوانى أم ماذا ؟ واكتفوا بأن قرروا خصما لرئيس التحرير ؛ لأنه نشر هذه القصة وحزنت كل الحزن عندما علمت بهذا الأمر ، وإن كنت قد تعمدت أن أنشرها على هذا النحو الذى فهمته مباحث أمن الدولة كما فهمها الناس . الجحش الذى أتكلم عنه جحش انفرد بالسلطة وقبض بيد من حديد على كل الأمور وصار أبا الكل وأبا الناس والزعيم الأوحد والزعيم المرشد والملهم ، نموت ويحيا هو بالروح بالدم كلنا فى سبيل جحش واحد ، نحن جميعا مجندون حياة وموتا ، إذا أراد أن نموت فلنمت ، وإذا أراد أن

نعيش فلنعش على خيراته وبركاته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، الجحشنة فى دماء البشر ، فقد تحول كل واحد منا إلى جحش ، يأمر وينهى وإرادته هى الفعل ودائما تجد فى كل لجنة جحشا أو جحشين أو ربما ثلاثة على الأقل ، جحش يقوم بالفعل وحده ، والباقون يجلسون ويقبضون ثم ينفضون وكل منهم يفكر فى بيته وأولاده وبطنه وفرجه ، لا شىء سوى ذلك ، هذا ما رأيته فى كل مكان ذهبت إليه ، هناك جحش يقوم بالعمل وللأسف الشديد ، لأنى جحش كبير لم أفهم أننى جحش إلا الآن ، إلا عندما تعبت ورقدت طريح الفراش منذ أشهر لا يزورنى أحد ولا يسأل عنى أحد إلا قليل القليل ، اكتشفت أننى جحش ، كنت جحشا عندما اشتغلت فى بداية عهدى مع أبى ، كنت أعمل ثمانى عشرة ساعة باليوم الواحد ، وفى النهاية قال لى أبى : إننى أفقر أولاده ، وأقلهم حظا فى الدنيا وإنه حزين من أجلى .

بعد كل هذا يا أبى تقول عنى إننى مجرد جحش ، حسنا كنت جحشا طوال طفولتى وصباى التى حرمت فيها اللعب واللهو مثل بقية الأطفال وظللت أعمل بجوارك مثل جحش صغير ، ربما يحزنك هذا ولكنها حقيقة ، وعندما اشتغلت فى جريدة الجمهورية كنت أعمل أكثر من ثمانى عشرة ساعة

فى اليوم الواحد، كنت الجحش الوحيد بين بقية زملائى وفى الوقت نفسه يصرون على أن أدعوهم للعشاء كلما قبضت مكافأة ، فى الإسكان اصطدمت بسكر التى كانت على وشك قتلى ولأنى جحش لم أفهم أننى من الممكن أن أستفيد من سكر بدلا من أن أكون جحشا ، أعرض حياتى للخطر ، وفى رعاية الشباب اشتغلت مثل جحش بل كنت مثل عدة جحوش إن شئت الجمع . . وصنعت كل ما صنعت وفى النهاية لم أحصل إلا على إيقافى لمدة ثلاثة أعوام ، مع المحاكمات والتحقيقات ، ألست جحشا ؟ وفى مجلة الإذاعة اشتغلت مثل جحش ، عندما أرادوا أن يكتبوا لنا عقود عمل أعطوا زملائى الثلاثة لكل منهم أجرا مضاعفا لأجرى ذلك لأننى جحش، ولما طلبت المساواة على الأقل قابلوا هذا الطلب بالاستنكار الشديد ، ولأننى جحش رضيت بذلك ، وعندما طالبت بالمساواة وليس برفع أجرى عنهم بشهادتى لسابق خبرتى جاءوا إلىّ يستعطفون ويمسحون على ظهرى ، مثل الجحش عندما يمسح على ظهره الفلاح ، فيفرح الحمار أو الجحش ولا يملك إلا أن ينهق مهللا مسرورا ، وفى اللجان أنا الجحش الذى يكتب التقارير . والجحش الذى يحدد الدرجات والبركة فيك

يا بابا ، كانوا يسموننى فى العلن بابا ولكن فى سرهم مجرد جحش يعمل بلا ملل . جحش يحتاج إلى قليل من البرسيم أقصد قليلا من النقود ، عندما بعت إحدى مسرحياتى ربحت الفرقة ما يقرب من المليون جنيه أرباحا صافية للمسرحية لم أحصل إلا على حفنة من نقود تساوى كيلة ذرة أو كيلة فول على أقصى تقدير ذلك لأننى مجرد جحش يكفينى كيلة فول لكى أكف عن الطلب ، لم أحصل إلا على ألف جنيه وكانت هى العربون أو المقدم ، ثم لم أحصل على شىء، وفى أفلامى لم أحصل إلا على العربون ، وفيلم آخر لم أحصل إلا على العشاء (حمام محشو بالفريك) ، أكلته مع منتج الفيلم والمخرج واكتفوا بما أطعمونى ذات ليلة وسرقوا الفيلم وسرقوا موضوع الفيلم لعدة مسرحيات أخرى ولعدة أفلام أخرى ، تكرر هذا معى فى أفلام ومسرحيات أخذوها منى بلا مقابل وتكرر هذا الموقف فى أعمال تلفزيونية وفى مقالات سواء فى مصر أم فى خارج مصر ، وتكرر مع مجلات عربية وكنت دوما ذلك الجحش حتى بالنسبة لأصدقائى فأنا جحش دائم التحفز للدفاع عن أصحابى ، أحيانا أعتز بدور الجحش فى بعض الأمور وأغضب لدور الجحش فى أمور أخرى ، فإذا قصدنى زميل أكون جحشا

لخير أفعله أكون به راضيا ، أما إذا أرادنى الآخرون أن أكون جحشا لشر فى نفوسهم فإن هذا يؤلمنى ، وهكذا أيضا اكتشفت أننى أنا الراقد على سرير المرض وحيدا ، حجرتى فى مؤخرة . . المستشفى ، الطرقة خالية وبقية الغرف التى بجوارى لا أحد فيها ، قد أكون معزولا وكأننى مصدر خطر أو مصدر وباء، اكتشفت الآن أننى مجرد جحش ، وأنا الذى أقوم بإضحاك الممرضات وإضحاك الأطباء وابتسامتى تعلو وجهى عندما تأتى ممرضة أو يأتى طبيب فإنى أسارع بالابتسام ويسألوننى هل أنت فى حالة جيدة ؟ فأقول بروح مرحة نعم ولكنى قلق بشأنك يا أختى كيف حالك وحال الأولاد ذهبوا للمدرسة وحال زوجك ؟ كنت بالأمس متعبة . . تشكو الممرضة بدلا من أن أشكو أنا ، وتستريح وأنا المتعب لا أشكو وهذا طبع الجحش ، حقيقة هذا طبع الجحش ، يأتى إلىّ الأصدقاء ، وأكتب عنهم واحدًا تلو الآخر ثم يأخذ ثالث فى لومى يا أخ ، لماذا لم تكتب عنى ؟ وهل كتب عنى أحد؟ ألست أحد الكتاب ، ألست أيضا كاتبا ولى إبداعاتى المختلفة ؟ لم يكتب عنى أحد؟ يأتى إلىّ أحدهم شاكيا باكيا أنت لم تكتب عنى ، وقد أعطيتك ثلاثة كتب حتى الآن ، أقول له يا أخى أنت تنشر كل أسبوع كيف

يلاحقك النقاد أو كيف ألاحقك أنا هل أكتب عنك كل أسبوع ؟ أليس هناك آخرون ؟ وأحيانا تأخذنى الجحشنة فأثور عليها وأصبح حمارا حصاويا يبرتع وأقول أنا أيضا كاتب يا إخوانى ، لم يكتب عنى أحد . ألست أنا أيضا مبدعا؟ أليست رواياتى التى تربوا الآن على نحو خمسة عشرة رواية تستحق منكم إشادة ؟ إنكم تبخلون علئ بذم أو مدح ، يا اااه الكثير من المواقف أكتشفها الآن وأنا جالس هنا ، جحش كبير ، ألم يضعونى فى عربة ثم فى طائرة ثم فى مسرح العمليات لكى تجرى لى عملية جراحية ثم أخرى ؟ خلال عشرة أيام أسقط فى بحر المرض ولا أدرى ما الصواب ؟ هل الطبيب المصرى على صواب عندما قرر لى العملية الجراحية؟ هل كان (مستر ويسبى) على صواب عندما قرر لى العمليتين ؟ هل كان مجدى يعقوب على صواب عندما أرقدنى فى هذه المستشفى طوال هذه المدة ؟ من منهم الذى كان على صواب ؟ عندما أسمع هنا فى المستشفى أن كل مريض له حكاية وكان جحشا فى الدوائر المغلقة بين طبيب وطبيب ، وهذا أستاذ فى طب عين شمس ، وذاك فى القصر العينى وثالث فى جامعة الزقازيق . . ، وخامس فى جامعة المنصورة، وسادس فى الإسكندرية كل منهم يقول رأيا ولكن

لا يقول قولا قاطعا (ويقوله بعد أن يسفك دمى ويشترى منى الحديدة التى صرت عليها وأخيرا يسمحون لى بأن أسافر إلى لندن لإجراء جراحة فى القلب ، وأكون قد عانيت من ذلك معاناة تفوق حمل البشر فأسقط فى البئر جحشا) هل الأستاذ بالمنصورة على حق ؟ أم أستاذ طب القاهرة؟ أم أستاذ طب أسيوط؟ أم أستاذ طب الأزهر؟ أم أستاذ طب الوادى الجديد؟ من منهم على حق؟ وإذا كانوا فلاسفة إلى هذا الحد وإذا كانت أجورهم تصل إلى الآلاف فلماذا لا يجرون لنا العمليات إذا كانوا بهذا الفطنة وهذه الحكمة؟! كرهت كل الأطباء ، ولا أحد يلومنى لم أعد أثق بهم جميعا صدقتهم ولكنهم كذبوا ، كادوا يصلون بى إلى القبر ، وما أنقذنى إلا ربى . . أنقذنى الله سبحانه وتعالى ، ولأن الحمير لا تكسب الجوائز ولا تضع نفسها تحت الأضواء بل تذهب إلى راكبى الحمير وتنسى الحمار ذاته ، هذا من أصول الجحشنة والجحشنة صفة غير مكتسبة ، إنها صفة فطرية أو موهبة ولا يستطيع أحد من الناس أن يقرر أنه سيصبح جحشا إذا أراد ، ألم تروا معى أنها موهبة مثل الموسيقى والأدب والغناء وما إلى ذلك ؟ موهبة من تلك المواهب القديمة ، مثل موهبة (شوقى) فى الشعر ، مثل (عبد الوهاب) ، ولأن مطربينا الآن صاروا ينهقون مثل الحمير

وما هم بحمير فلم يرزقوا نعمة الجحشنة ؛ لأن الجحش لا ينهق ، ومن النادر أن تجد حمارا ينهق . وقد كنت أكتب كتابا وهميا أؤلفه على «كيفى» وعلى مزاجى وأنا طالب فى الجامعة اتخذت له اسما تراثيا مثل (تحليل الأسماء عند أبى العلاء) أو كنت أسميه أحيانا (الواضح فى أسماء الناس والمناطح) لابن أبى سلامة الشهير بفتحى سلامة إنه فى الجزء التاسع من الطبعة البولاقية وتحت كلمة (حاء ميم ألف راء) أيضا فى الطبعة الإستنبولية الموجودة فى إستنبول تحت رقم خمسة واحد اثنين ثلاثة (كاف ميم لام) تجد أنه فى البولاقية الجزء التاسع فى الصفحة رقم سبعمية واتناشر تحت حاء ميم ألف راء وتجده فى الجزء العاشر من الطبعة الإستنبولية أو التركية الموجودة الآن فى مكتبة إستنبول فى صفحة خمسمية واتناشر حاء ميم وتفسير ذلك وعلته أنه قد عقد مؤتمر للحمير ذلك كان فى عام ستمية اثنين وسبعين قبل الميلاد وفى مدينة جحشون المطلة الآن على وادى علقة! انعقد المؤتمر الأول للحمير ورأت الحمير بسابق خبرتها وفطنتها أنهم لا يذهبون إلى السوق أو إلى الحقل عندما تمطر السماء لأن الفلاحين يخشون عليها من السقوط أو كسر أرجلها فيكتفون بإطعامها وحبسها فى الدار ، ولأنهم يريدون البقاء مدة طويلة فى الدور بدلا من ذلك العمل المتواصل فإنهم

قرروا أن يجعلوا الأرض طينة ، فماذا يفعلون ؟ يتبولون ، كل منهم يتبول على بول غيره ، هكذا تصير الأرض طينة فيقلق الفلاحون وفى الدور قابعون حابسون حميرهم يخشون عليها من الانزلاق وتقرر هذا الأمر وبدأت الحمير فى تنفيذ هذا القرار ولهذا لا يزالون فى حالة تنفيذ القرار الأول وهو أن يجعلوا الأرض طينة ، ببولهم وعندما يرى الجحش بول غيره فإن عليه أن يتوقف ويبول عليها ثم يتشمم الهواء لكى يعلن للحمير الأخرى أنه نفذ الاتفاقية وذلك حتى لا يقع تحت طائلة المسئولية فلا يقوم حلف الأطلنطى بدق رقبته بالقنابل الذرية أو تقوم أمريكا بعزله عن بقية الحمير ، أو يأكل الصرب الحمير كما فعلوا بأهل البوسنة والروس بأهل الشيشان وأفغانستان أو أن يأكل بعضهم البعض أو كما يفعلون فى الجزائر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، انتهى ، أى انتهى الجزء المأخوذ من الكتاب المسمى فى بعض الأحيان تحليل الأسماء وتفسير الأعلام لابن أبى سلامة ، وقد قام بعض المحققين بدراسة الكتاب ونال بعضهم أيضا درجة الدكتوراه حول تحقيقه وإعادة دراسته وتقييمه ، بل قام المترجمون بترجمته إلى لغات مختلفة(وجوته) ذات نفسه الذى كان شاعرا ألمانيا أخذ بعض تعاليمه وقصصه وسرق بعض أفكاره ولم يأبه إلى أن يقول ذلك فى

كتبه ، ومن الحق أن نعترف بأن بعض الكتاب والنقاد والدارسون فى الجامعات الأمريكية اعترفوا بفضل ابن أبى سلامة وقرروا الإشادة به وذكر مرجعيته كمرجع علمى أساسى لتحليل الأسماء فعندما يسأله السائل لماذا سميت الدقى ؟ أقول لك عد إلى ذلك المصدر الذى اختلف النقاد والمؤرخون والمحققون فى تسميته الأصلية؛ لأنه ترك بلا غلاف نقول وبالله التوفيق ، إنه فى الجزء الخامس من الطبعة البولاقية التى بين أيدينا الآن والتى حققها عن جدارة ومهارة علامة شهير يدعى بالمدير الذى كان فى زمنه عالمًا بالعلوم وهو مفكر خطير ، وبأبحاثه ليس له نظير ، نقول إنه بالرجوع إلى ذلك الكتاب القيم والسفر العظيم النافع ، إنه فى الجزء الخامس وفى الصفحة ثمان مائة اثنتين وتسعين وتحت كلمة (دال قاف) وهى للأسف الشديد صفحة تكاد تكون فى الأصل مقطوعة فصححها ذلك الباحث القدير استطاع بذلك أن يصحح بعض أرقامها وأن يحقق عن جدارة ومهارة كل ما جاء فيها من علوم وأسرار لأن بها من الأخبار مالا يمكن حصره أو وضعه فى كتاب واحد ، نقول إنه بالتحقيق تحت كلمة دال قاف ياء ، إنه عندما حضر الملك سعود بعد نفيه من المملكة إلى مصر فقد نزل إلى بر مصر

عند المنطقة المسماة الآن بكوبرى الجلاء ، وما كان اسمها كذلك فى القديم ، لأنه لم يكن هناك كوبرى ولا يحزنون ، يقول الكتاب إنه جاء بمركبة إلى تلك المنطقة التى هى الآن موقع الكوبرى ، وكان فى سفينة كبيرة وبجواره شكوكو وإسماعيل ياسين ومن حوله الأمراء والخفراء والجوارى والعبيد والخصيان ولما وصل إلى البر جاء إليه ناس كثيرون . وقال عمدة تلك المنطقة وكان ذا شأن كبير ، يعرف من الأخبار أن هذا الرجل هو الملك سعود ذات نفسه الذى كان موضع تمجيد من أهل الديار ، فجمع أهل بيته وجمع الناس من حوله وجاء بالمزيكا وعندما رفع الملك قدمه إلى البر ووضع الثانية قال العمدة : دقى يا مزيكا ، دقى يامزيكا ، فضحك الملك وقهقه وكذلك فعل شكوكو وإسماعيل ياسين وهذا ما لا يعرفه المؤرخون إنما يعرفه قلة من الناس ، حتى لا يذهب بهم إلى الوسواس فيشتكوننى أو يدفعوننى إلى الجنون فقد حدث هذا بالفعل ودقت الموسيقى وضحك الملك . وهاص شكوكو وقد كان مكلفا بالترفيه عن الملك ، عندئذ قال الملك فى صوت غليظ . . (إذن نحن فى الدقى) ، وهكذا صارت تلك المنطقة محرفة لكلمة الدقى ، عندها كنت فى زيارة لإحدى

المناطق الآسيوية وأراد أحدهم أن يضعنى فى موضع الحرج وأن يتهمنى بالساداتية ، وبخيانة الوطن؛ لأننى لست ناصريا ، ولما كان هذا الإحراج أمام جمهرة من المثقفين أو أمام هؤلاء الذين يدعون أنهم من المثقفين وما هم كذلك للأسف الشديد فلأنه سألنى أنت تدعى أنك كاتب كبير قد ألفت مرجعا علميا ليس له نظير ، وفى الأسماء كلها له تفسير، فما قولك لماذا سمى هو - شيمنه ؟ فنظرت إليه مليا وقلت له: يارجل أنا أحفظ كتاب جدى حفظا عن ظهر قلب ، وأنا أحيلك إلى المرجع ذاته الذى ذكرت ، ففى مكتبة قنطرة الطبعة العاشرة من كتاب جدى الذى مضى وفى الجزء التاسع عشر من هذا السفر الكبير وفى صفحة محددة هى بالتأكيد صفحة مئتان واتناشر بعد الألف الأول وتحت كلمة هاء واو ، أقول وبالله التوفيق إنه جاء فى الكتاب أن أم هو- شيمنه كانت حاملا فى هو - شيمنه ، فدعاها الملك ، ملك مصر فى ذلك الوقت لزيارة القطر والفرجة على تلك المسخرة التى فى الأقصر فهناك تماثيل تكاد تنطق بأنها من صميم البشر بل ظن بعض الناس أنها مسخوطات أنها كانت بشرا وجعلهم الله من المساخيط فأرادت رؤية تلك المساخيط وخاصة أنها ليست فى أى بر أخر غير مصر ،

فجاءت السيدة وابنها فى بطنها فلما رأت المدعو آمون ثم
من بعده المدعو رع انفلت الغلام وهبط بسلام وصرخ
صراخا حادا ، فلما رأت الفتيات والسيدات ذلك أتين
بالدفوف ورقصن حول الأم الولود معجبات بتلك السيدة
الخواجاية التى ولدت بجوار المساخيط وغنوا خشى يا أختى
بقيتن منه ، ذلك كان فى أول الأمر يغنون لفتاة تدخل لأول
مرة بيت زوجها أو بيت عرسها ، ومن عادة الفلاحين منذ
الأسرة السابعة وقبل مجىء رمسيس كانوا يغنون للفتيات
عندما يدخلن دور الحماوات حتى يشعرن بأمان فى بيت
العائلة وليسوا من الأغراب اللئام ، كانوا يغنون خشى يا بت
بقيت منا ، أى أنك أصبحت من تلك العائلة وليست غريبة
كما كانت حالة طيبة القديمة ، تنظر إلى الغرباء على أنهم
وباء يجب أن يتحاشوهم ولا يختلطون بهم فدقوا الدفوف
وغنوا لهذه السيدة الخواجاية تلك الأغنية حتى تصير منهم
وتألفهم ولا تخاف ، لأنه إذا خافت الوالدة عند ولادتها فإنها
لا تحمل أبدا وهذا لهو اسم أخر لا يجب اللجوء إليه الآن ،
له تعليل ربما يغضب بعض الحماوات ، يقول الكتاب إنه
عندما سمعت الأم ذلك الغناء صرخت وقالت فليصبح
هوشيمنه ، هذا الغلام هوشيمنه ولأنهم خواجات من آسيا

وليسوا خواجات من أوروبا فهم لا ينطقون حرف الخاء إلا فى روسيا الشيوعية ، فأصبح اسم هوشيمنه بدلا من خوشيمنه ، ثم ظهر هذا الغلام فتى عظيم الشأن وأصبح من كبار الأعلام والله بما أقول عالم وعليم . وأما زميلى الذى أراد أن يجعلنى كبش فداء يسبح فى مهاب الرياح ، فغضب وصاح : أنت جاسوس ، فعلا جاسوس من وجهة نظرك أما فى الحقيقة فأنا فرعونى الأصل عربى القومية مسلم الديانة ابن (مينا) موحد القطرين وابن (خوفو) بانى الهرم وابن (رمسيس) الذى أذل العالم وابن (سعد زغلول) و(عرابى) و(محمد نجيب) و(جمال عبد الناصر) و(ابن السادات) يا أخى أنا ذلك الفتى الذى ولد منذ آلاف السنين ، فوحدت البلاد وعمرت الوادى بالزراعة ، وجعلت نظام الرى لا يمكن لأى بلد أن تقلده ولا يمكن إنكاره ، بنيت الأهرام والتماثيل والمسلات ما يعجز عنه الآن أبناء المنجزات العلمية ذات القوى التكنولوچية التى لا نراها إلا بالرسوم المتحركة ، ولتذهب أنت وأهلك إلى حيث تشاءون ، فأنا ذلك الفتى وأفتخر بذلك وأتباهى فلتكف عن الحديث فلم يحولنا إلى جحوش إلا ذلك الملك المكنوش الذى انتهى به الأمر إلى النكسة . اقتحم حجرتى مجموعة من

الممرضات ، كل منهن تحمل جهازا وأوعية تعودت عليها وعلى ما تصنعه لى من آلام ، ثم جاء الدكتور بانديا وراح يدفع الشريط المطهر داخل صدرى مستخدمًا قضيبا حديديا وهو يطلب منى أن أترجم له ما سجلته فلما عرف سألنى فى لهفة (حتى ينسينى ما يفعله) :

ولكن ما علاقة كل هذا بنظرية الجحشنة ؟ قلت : أذكر أن الجحش أنقذنى ذات مرة من موت مؤكد ، ذلك لأننى كنت أحب جدا ركوب الجحش فى صغرى وكنت أسعد كثيرا عندما أركب ويسرع بى وكأنه حصان فى ميدان السباق وأمسك بشعر رقبته الطويل ونسابق الريح كان يشعر بى وكنت أكلمه عندما أريد وقد كان مهيبا كبيرا ذا سيقان عالية وظهر عريض منبسط وأذنان كبيرتان وعيون مبحلقة دوما ولكنها حزينة ، كنت أصعد إلى نافذة بيتنا التى شغلت بحديد يسمح لأمثالى من الأطفال الصغار بتسلقها وكأنها سلم ، وأصعد إلى مستوى ظهره الذى يقترب بمفرده للنافذة وأقفز إلى ظهر الحمار وأسعد بتلك القفزة سعادة طاغية وننطلق لا أحمل أنا هما للدنيا وهو أيضا ، ونجرى نحو حقلنا ، وكان هذا الحقل على مبعدة كبيرة من بيتنا بحيث كانت المسافة تستغرق ما يقرب من ساعة ، لهذا كنت

استمتع بركوب الحمار فترة طويلة حتى نصل إلى حقلنا فيأتى عمى ويأخذنى بين أحضانه سعيدا فرحا ويجرى الحصان قصدى الحمار مهرولا نحو الحقول ليأكل فإذا أردت العودة فإن عمى يحملنى ويضعنى على ظهر الحمار وهو يسألنى هل تستطيع العودة بمفردك ؟ ونكرر هذه النزهة الجميلة وهذا السباق مع الريح كلما . . سنحت الفرصة أحيانا كل أسبوع وأحيانا كل شهر ، ولا زلت أحمل لتلك الرحلات الجميلة ذكرى عطرة كما أحمل للبرسيم وزهوره الصغيرة الصفراء ذكرى جميلة وأغمض عينى وأتخيل البرسيم وهو يموج فى موجات مثل البحر الأخضر ومثل سحابات خضراء صغيرة كنت أجرى وأحتضن البرسيم وأنا أتكلم وأحكى معه ، وهو يسمعنى أما إذا ركبت ظهر الحمار فإننى أخاطبه لكى يسرع أو لكى يتوقف لأننى أريد أن أخطف تلك الليمونة الصفراء التى تتدلى من حديقة (أبى كريم) وعند تلك المنطقة المسماة بحديقة ليمون أبى كريم ، كانت توجد حديقتان متقابلتان والطريق بينهما دائما مظلم من كثافة الأشجار التى تحجب ضوء الشمس ، وذات يوم وأنا أعبر هذه المنطقة أحمل عصا صغيرة أشير بها وكأننى فارس بنى هلال العبسى يحارب الأعداء فلما امتطى (أبو زيد

الهلالى سلامة) ظهر حصانه رفع سيفه فقال : يا (زناتى) ، هات ، أرنى عصاك فإنى اليوم أعلمك بأنك لست ندا لى . يزوم الزناتى رافعا سيفه ويردد خسئت يا أسود ويومك اليوم أسود . كنت أرقب عمى وهو يقرأ الهلالية وأنا سعيد كل السعادة وها هو ذا أبو زيد يهجم هجمة شرسة على الزناتى خليفه الذى كان صديقه ورفيق رحلته إلى تونس ولكن ها هما ذان اختلفا ويا للأسف ، بنى سلامة يختلفون وينشقون ويتحالفون مع غيرهم وكأن الساحة ، ساحة اليوم هى ساحة الماضى نفسه ساحة العراق مع الكويت وتتخاصم سوريا مع العراق ، وتصطدم ليبيا بمصر وفى إريتريا مشاجرات وفى اليمن خناقات وفى الحبشة مشاحنات وفى السودان مجاعة (وكأنك يا أبو زيد ما غزيت) وكأن رحلة قومى الأقدمين (بنى سلامة) لم تسفر إلا عن مشاحنات حول (ناعسة ويونس وأبو زيد) الذى يحارب من أجل البطولة بعد أن كان يبحث عن ماء وطعام لقومه فإذا به يبحث عن مجد زائل ، وبطولة زائفة ويحاول قتل رفيقه الزناتى خليفة الذى يقتل ملك تونس ويتزوج زوجته ويعتلى عرشه ويحارب من أجل هذا العرش الزائل ، فأين أنت يا زناتى ألست جحشا كبيرا يا بنى ؟ أنت يا أبا زيد يا فارس بنى عبس يا فارس بنى

هلال يا فارس بنى العرب يا فارس من بنى سلامة أين أنت يا رجل ، ألست مجرد جحش صغير ركبك قومك فصرت تحارب بسيفك تحارب حمارا يتباهى بشعر رقبته ، فأحيانا يفلت الشعر هكذا مثل سيف مسلول ، وأحيانا يغمده فينزلق على رقبته ناعما ذا بريق تحت وهج الشمس ، ذات يوم يا أبا زيد ركبت حمارى ورفعت عصاتى ملوحا بها وكأنها سيف مسلول أنشدت الزناتى خليفة أنى قاتلك اليوم فهذا هو اليوم السابع فى نزالنا يا زناتى وحمارى أقصد حصانى يجرى مهرولا فى قفزات سريعة الخطى ولكنه يتوقف فجأة ، يبدو أن الزناتى يهاجمنى من المؤخرة ويستدير الحمار فأجد حولى مجموعة من الرجال الملثمين لا أرى إلا بريق عيونهم وأيديهم ممتدة نحوى استدار الحمار وركل الرجال بقدميه الخلفيتين فيسقط أحدهم ويزداد إصرار الرجال ولكن الحمار يستدير دورة كاملة وأقبض أنا عليه بشدة ، بعد أن سقط سيفى على الأرض أو غصن الليمون الذى كان معى ، وتلتف قدماى الصغيرتان حول رقبته بشدة وهو يستدير كأنه لاعب الباليه ، يرقص ويركل وفى كل ركلة يهوى أحدهم ويبتعدون ولكن ليعودوا ليهاجمونى . وأنا أصرخ فى رعب وقد أخذ الخوف منى مأخذه ، ويصارع حمارى هؤلاء

الرجال فى بطولة مستبسلة حتى سمعت صوتا من بعيد يأتى
تقريبا من عند جميزة (عم عباس) الجناينى يقول جايلك ،
أى أنه فى طريق النجدة وينفض الرجال فجأة من حولى عند
سماعهم صوت الرجل ويندسون مختفين فى حديقة الليمون
تخفيهم عنى تلك الأشجار الخضراء المحملة بثمار صفراء
ويعدو حمارى مسرعا إلى دارنا ، يجرى خلفنا الرجل
بحماره أيضا وعندما نصل إلى أبى يتوقف الحمار فجأة وكأنه
يقول له : خذ ابنك فقد ضقت به وتعبت من تلك المطاردة
ويأخذنى أبى بين أحضانه وأنا أبكى بشدة فقد كان الخوف
لا يزال مستوليا على قلبى كما هو يستولى على قلبى الآن ،
الخوف من المطاردة والخوف من المرض يتساويان ، آه لقد
أنقذك الحمار من موت محقق قالها الرجل الذى كان يجرى
خلفنا ، قالها لى وأبى يحتضنى بشدة ويبكى هو الآخر غير
متخيل أو غير متصور أن أحدا من الناس يكرهه إلى مثل هذا
الحد فيحاول قتل وحيده ، كان أبى رجلا شهما طيبا كريما
محبوبا بين قومه ومحبوبا بين أهل قريته رغم قسوته أحيانا
إلا أنه كان كريما - إلى حد كبير - فأحبه الرجال والنساء
فلما ذهبت إلى أمى وجاءت جدتى نسيت الأمر كله تذكرت
حمارى وأخذت كمية كبيرة من الفول وكان لدينا الكثير

بطبيعة الحال لاشتغال والدى بالتجارة فى كميات كبيرة هائلة من الفول بحيث إنه من السهل جدا الحصول على هذا الفول بالليل والنهار ، حملت كمية كبيرة وذهبت بها إلى زريبة بيتنا ووضعتها بحرص شديد وامتنان أشد إلى حمارى الذى أقدم على الفول بجرشه فى سعادة ثم يرفع شفته العليا وينظر نحوى وأنا أضع يدى الصغيرة فوق أرنبة أنفه وأقول له شكرا يا حصاوى وقد كان اسمه بالنسبة لى (حصاوى) لقد أنقذت حياتى وأنا ممتن لك بذلك ، غريبة ، وما الغريب فى هذا الأمر ؟ كلبى أنقذنى من الغرق ، وجحشى أنقذنى من الموت أو القتل على الأقل ولكن حاول قتلى جحش ثانٍ يدعى (ويسبى) من جامعة أكسفورد وكذلك هناك جحش ثالث وضع مستقبلى على حافة الهاوية وكاد يدحرجنى نحو القاع ، وهذا الجحش أيضا لا يستحق رتبة الجحشاوية ، آه آسف فالجحش مفيد والجحش أنقذنى وبالتالى هذا لا ينطبق على مستر ويسبى إنما الذى ينطبق عليه الجحشنة هو مستر يعقوب الذى يحاول الآن إنقاذ حياتى ، إذن فالجحشنة أيها السادة لون من ألوان البطولة فليس الجحش معيبا إلى هذا الحد ، وعندما نقول إن هذا الرجل حمار لا يعنى هذا أنه رجل تافه أو سيئ لأنك تصفه بالوصف الجميل فهو جحش

حمال الأسية ، حمال الهموم منقذ البشرية ، كم حمارا فى مصر ؟ من يعمل ؟ هل رأيت ذات مرة حمارا فى إجازة ؟ هل رأيت ذات مرة حمارا يزوغ من الشغل؟ هل رأيت حمارا كسولا لا يعمل أو حمارا يعمل فى عدة أماكن من الوقت ذاته ، فى الوقت نفسه لكى يحصل على أجر كل الأماكن التى يجب أن تعطيه نقودا وهو فى الوقت نفسه فى مكان واحد ؟! هل وجدت مثلا حمارا يأخذ من المرضى آلاف الجنيهات بدون وجه حق وبكلمات إنجليزية لا يفهمها عم مبروك ولا عم تبارك ولا عم عباس ولا عم حلوانى ؟! فقد أخذوا من زملائى المرضى آلافا من الجنيهات وطاروا بهم من معمل إلى معمل ومن فحص إكلينيكى إلى آخر بيزينطى لكى يقولوا لكل واحد فى النهاية إن قلبك يحتاج إلى عملية كبرى ، إلى عملية ذات أهمية يجب أن تجريها ولا يعطيك بعد ذلك ما ينفعك رغم كل ما دفعت ، هل رأيت حمارا يفعل ذلك؟ هل رأيت حمارا يكذب ، يخادع ينافق ، يقول لك ما لا يؤمن به ، ويقابلك فى بشاشة ثم إذا ذهبت يقول عنك ما لا يقال ؟ هل رأيت حمارا لا يخجل ولا يستحى ؟ هل رأيت حمارا لا يعرف الطريق ؟ مستر ويسبى قطع أحبالى الصوتية ومستر يعقوب يقول ليس أمامك سوى

أسبوعين ، ومستر بانديا هو الذى قال لى أنت جحش إذن .
فلماذا تغضب يا صديقى من قولى إنك جحش أو إنك حمار أو إنك معى فى مذهب الجحشنة ؟ عندما قلت إن تلك اللجان التى تعقد لتنفض وتنفض لتعقد من أجل مبلغ لا يساوى يومية غفير ولكن يتنافس المتنافسون ويأتى المتصارعون يتصارعون على هذا الأجر القليل ثم لا شىء بعد ذلك فيتولى الجحش فى تلك اللجنة مهمة رفع الأثقال وحمل الهموم وكتابة التقارير ويا عم البركة فيك ثم لا يأخذ إلا الأجر نفسه الذى حصل عليه الزملاء الذين جاءوا ولا حول لهم ولا قوة بل ولا يقدمون ولا يؤخرون ، من الحمار إذن؟ أليس هذا صحيحا ؟ هذا كلام موزون ، وليس كل مسطول يأخذ فى اليوم الواحد أكثر من عشرين دواء منها من ينام به ومنها من يهدئ أعصابه ومنها ما يصل إلى قلبه ومنها ما يفتك بالداء به ، ألم أقل لكم إن هذه رواية حمقاء؟ ألستم معى فى إن الجحشنة يجب أن تسود؟ وأن ننادى معا وأن نقف فى ميدان التحرير ونقول تحيا الجحشنة ؟ نتحول جميعا من جحوش إلى حمير ، يا ريت ، اذهبوا إلى أى مكتب ، إلى إدارة التموين ، إلى إدارة المرور ، إلى أية إدارة أو شركة فإنكم تجدون والله أن الحمير هربت من قسوة

أصحاب الإدارة الذين يتباهون بمناصبهم . ألست معى يا دكتور بانديا ؟

نظر نحوى وقال : حاول أن تتماسك نحن نشق جرحا فى رقبتك ، أمسكت بى (لولا) الممرضة ، ضحكت لأنها تعيش مع رجل لا يريد أن يتزوجها وتدخر لتسافر إلى أمريكا ،ظهر وجه صديقى فاروق ولكنه توارى عندما شاهد الجراحة التى تتم فى حجرتى ، حزنت لأنه سيتألم ، سوف أقص عليه (نكتة) ألفتها الآن عن الحمير ، أفكر فى أن . .أن ،أفكر . .و لكن يبدو أن عقلى لا يريد أن يعمل الآن . .هددنى مدرس الكيمياء بالطرد من الفصل لأننى كثير الأسئلة ، وقال مدرس اللغة العربية إننى سليط اللسان ، وقالت أمى لجارتها ابنى خجول مثل البنات . . . .

* * *





الفصل الثالث



أوهام المغترب فى دنيا العجم والعرب ، لقد فكرت فى تغيير اسم الرواية بعد أن مضيت بها على هذا النحو ، فجاء فى ذهنى أن أسميها أوهام المغترب فى دنيا العجم أو فى بلاد العجم والعرب ، لا داعى الآن للاسترسال حول التسمية فإن كل اسم له دلالته وفى الإمكان تعليله بكل العلل على نحو ما ولكن أيضا إن كلمة أوهام من كلمة هموم وهو اسم كتاب صدر لى وهو كتاب نقدى ، ولكن أوهام أقرب إلى طبيعة العمل وإلى طبيعة الرواية - إلى حد كبير - والتى أقوم بتسجيلها كل يوم ساعة أو بضع ساعات عن طريق شريط جهاز الريكورد الذى أحمله فى يدى رغم ضعف يدى وهو صغير الحجم وابنتى تمدنى بالشرائط فآخذ فى تدوين ما يجرى فى رأسى فى الحال لأن الأفكار تسبقنى فأقوم من ألم إلى ألم وأركب سحابة الألم إلى أخرى وأنطلق مع مدفع الألم من نقطة إلى أخرى ، ساعة أكون فيها فى أحسن الأحوال وترانى الممرضات وأنا ألوح بيدى ، المصابة وكأننى أرقص فيتضاحكن من حولى وكأنى من بلاد العجائب ، بعض الممرضات هنا زرن مصر ويتحدثن بشغف شديد عن الملوخية وعن الهرم وعن قذارة المكان عند الهرم

ولا أدرى ما علاقة القذارة بالهرم ، الهرم بناه خوفو ، أما القذارة فقد حدثت من الحصان أو من الجمل أو الجحش ألم ننته من مسألة الجحشنة ؟ الممرضات يتحدثن بإعجاب عن الأهرامات وأسمع أن وزير الثقافة ذهب فى وفد كبير من المسئولين ليروا كيف يستريح السواح هنا ويتفرجون بعد أن أصبح المكان لا يليق لا بخوفو ولا بالحمير وأخشى ما أخشاه أن ينفض هذا الموكب عن منع الحمير ، مع العلم بأن الحمير لا تأكل بالنهار فكل أكلها بالليل ولهذا فكل برازها بالليل أيضا أى أنها لا تخلف تلك المخلفات التى للحصان الذى يأكل طول النهار والجمل أيضا ، مدافعا عن الحمار الذى يركبه السواح ، وإن كانت صلتى بالحمير وركوبى الحمير ارتبط فى ذهنى بقصص الهلالية وأبو زيد سلامة وناعسة ويونس، قصص محببة إلى نفسى أسمعها فى شغف شديد . أخوالى يجيدون الحكاوى التى تدعو إلى التفكير ، وكان خالى (عبد العال) يجيد رواية الحكاوى والقصص وكنت شغوفا بذلك كل الشغف، ومن تلك الحكايات التى لا زالت فى رأسى ، تلك الحكاية الطريفة التى قصها علىّ أحد أخوالى - رحمه الله - وأفسح له مكانا فى الجنة، وكثيرا من تلك الحكاوى ضمنتها رواياتى ومن

حق أخوالى أن أشيد بهم ، فما زلت أذكر مثلا قصص ألف ليلة وليلة ، التى كان يقصها على من كتاب أصفر ، وما زلت أذكر تلك الجنية العجيبة التى تأتى دوما للشاطر حسن أو الشاطر على أو أى شاطر فى تلك القصص ، لتنجى المحصور فى آخر لحظة، وتقرب البعيد، وتأتى لهم بالحبيب، وهذا أمر كان عجيبا على عقل هذا الطفل الذى يسعى سعيا لسماع تلك الحواديت بشغف شديد فلا ينام إلا بعد أن تتم القصة ، وسمعت فى سن مبكر قصص آل نجد الذين حاولوا الحصول على طعام فإذا هم يتبعثرون فى البلاد، أمدتنى تلك القصص بحكايات حول أميرة وأمير عاشقين ، ثم جنية شريرة يقابلها وتنافسها جنية طيبة ، من هذا المربع توجد الحكايات ، فالملك يبحث عن زوج لابنته أو يبحث عن طريقة لإنقاذها أو يكيد له العداء فيخطفون ولده الوحيد ، المهم أن يكون هناك ملك وملكة ثم أمير أو أميرة وكأن ملوك زمان كانوا يعرفون تحديد النسل حاولت أن أحفظ تلك الحواديت ، فلما كبرت قليلا أخذت فى البحث عن تلك الكتب الصفراء وقرأتها جميعا فإذا بها مختلفة فى روايتها للأحداث ، كل كتاب يروى بطريقته ، عن انتصار لأبى وأخر يشيد ببطولة الزناتى وثالث يشيد

بالأمير حسن ولكن الحق يقال إن تلك الحواديت قد خلت من الجنية سواء الشريرة أو الطيبة التى تعرقل قوة الشاطر أو تساعده . تقوم المعارك وتنفض ولا يزال الخير ساعيا كما أن الشر لا يزال يقف خلف الستار منتظرًا الانقضاض . أخذت حقنة المضاد الحيوى . جنية خير تسعى إلى القضاء على جنيات الشر أو السموم. أود من الكاتب الذى سيكلف بتحويل هذا العمل من كتاب مسموع إلى كتاب مقروء أن يراعى أن تلك الأوهام فنية تماما فلا يصح العبث بها ، وهذه وصية لمن كان بعدى لأنه يجب نشر الكتاب على هذا النحو من اللخبطة ولهذا أهمية كبرى من وجهة نظرى ، فقد روى توفيق الحكيم حياته فى قصص كثيرة كل ما فى الأمر أنه قد أخفى اسمه ربما لبراعته الشديدة وربما أيضا لخوفه الأشد ، فقد تعامل توفيق الحكيم مع الحمير وله كتاب مشهور اسمه حمار الحكيم وعندما تم تعيين سكرتيرة له جاءت إليه فى أول يوم بمجموعة من التماثيل الصغيرة الطريفة لأنواع من الحمير ووضعتها على مكتبه وضاق بها كل الضيق وحنق على السكرتيرة ثم رفع تماثيل الحمير ورماها من النافذة ويومها علمت أنه لم يكتب رواية حمار الحكيم إلا كبدعة من البدع ، وأحسست أنه لم ير حمارا من قبل ولم يعامل

حمارا من قبل وإلا كان أحبه حبا شديدا ، كما أحببت أنا
الحمار ولا زلت أحبه حتى الآن أتمنى لأطفالى أن يركبوه ،
ودائما كنت أتخيل نفسى عندما أبلغ الخمسين من عمرى
سأكون غنيا ومشهورا فأكف عن العمل واشترى مزرعة فى
الجبل ، أزرعها عنبا لأننى شديد الولع بالعنب ، ويا جمال
هذه الحبات المضمومة فى عنقود يتدلى ، من شجرة صغيرة
تتدلى القطوف تضوى تحت الشمس كأنها حبات كهرمان ،
اصطادها غواص ذكى ووضعها فى ضوء الشمس لتجف
فينعكس عليها ضوء الشمس فتبرق فى إشراق ، ولكن نفسى
الآن تعافها ، كم أتمنى قرصا من الطعمية أو أمسك بيد
واحدة سطلا من الماء العذب ، ماء نهرنا وأشربه دفعة
واحدة ، لا أستطيع الشرب ، الآن مثل طفل لا يزال فى سن
الرضاعة ، يشرب جرعة جرعة فلا تشفى غليله من
العطش ، ولا تروى ظمأه وأحلم بكوز من الماء البارد من
بير الجناينى وأمسك به بيدى الاثنتين وأضعه على فمى
وأشعر بالماء ينزلق إلى جوفى يروينى ولسانى يستطيب طعم
الماء وحلقى قد ذهب عنه جفافه ، وأرتوى حتى أشبع ثم
لا يزال فى الكوز ماء ولا يزال فى البئر ماء ، ماء عذب
أمسك بالقلة الفخار تضعها أختى الصغيرة على نافذة دارنا

وتغطيها بغطاء أصفر اللون ، مزركش عليه عصفورة جميلة ذات جناحين وقد همت بالطيران، وغطاء أبيض جميل شفاف يضم القلة فى وداعة وكأنها عروس (حسن عبد المنعم) الذى كتب قصة عن فتاة ظل هو يحبها سنوات ثم يكتشف بعد السنوات الطويلة أنها مجرد قلة ، قد غطتها صاحبتها بملاءة بيضاء وراحت أحلام عمنا المرحوم حسن عبد المنعم ، وقد حزنت حزنا شديدا عندما كتبت نقدا قاسيا حول تلك القصة وقصص أخرى كان قد نشرها الأديب حسن عبد المنعم الذى شغل فى أخر أيامه رئيسا لاتحاد الإذاعة والتلفزيون ، جئت إليه بعد أن نشرت مقالى القاسى فى مجلة الثقافة وكان لى مطلب عنده فأجاب مطلبى بما أسعدنى ، ولم يناقش فى مقالى النقدى فأعجبت به إعجابا شديدا وعدت لقراءة تلك القصة ، قصة القلة وإن كنت لا زلت حتى يومنا هذا أتعجب من سذاجة القصة ولكنى بعد أن قرأتها مرة ثانية وثالثة احترمته احتراما كبيرا وقارنته بهؤلاء العباقرة الذين يكتبون عن العجب والعجاب ، الذى يجرى فى مصر بالذات ، وكأن مصر فعلا بلد العجائب الغريبة والشذوذ وكل الأفعال الغريبة ، يكتبون عن هذا أدبا مكشوفا ويقبضون أحيانا بالدولار وأحيانا بعملة سمعت أنهم لغوها

تسمى الروبل . قامت الممرضة بتغير كيس الدم وهى متبرمة . . تذكرت الجحش الحرون أعود إلى نظام الجحشنة وإلى تدليل الحمير وكيف لعبت دورا فى قصص الأولين ، كيف كانت فى قصص ألف ليلة وليلة ، كيف لعبت دورا كبيرا فى كل الحواديت الشعبية ، سمعت قصة الجنية التى تحولت إلى حمار وكيف خرجت من البحر على هيئة حمار فرآها عم (مغاورى) الذى كان جالسا بجوار النهر يحرس أرضهم من الفيضان فعلم بذكائه أنها جنية ، فأسرع بغرز المسلة فى ظهرها فظلت هكذا حمارا ، ولما سمعت تلك القصة من خالى عبد العال ، وكان مجاورا لعم مغاورى ظللت طوال مدة تزيد عن أسبوع وأنا أحملق فى كل الحمير التى أراها ، وأسألها فى تخابث ، هل أنت الجنية ؟ كنت أود أن أنزع المسلة لتعود الجنية إلى أولادها ، ذهبت لأرى حمار عم مغاورى وكانت خيبتى ثقيلة عندما اكتشفت أن عم مغاورى لا يملك حمارا ، فلما واجهت خالى بعد ذلك ، ضحك ولم يجب . ثم روى لى قصة أخرى بها حمير قلت : له ألا يوجد فى قصصك إلا الحمير ؟ قال : بل والثيران. قال: إنه فى يوم من الأيام عندما كانوا يقيمون صوامع الغلال ، فإذا بأرنبين صغيرين يتسللان داخل مخزن

الغلال خلسة ، لما امتلأت المخازن أقاموا عليها الحراس والغفر وبعد عام احتاجوا إلى الغلال فأخذوا يحفرون المخازن ويرفعون الغطاء فلما فعلوا ذلك إذا بثورين هائجين يخرجان فى شراسة وعنف وفر الفلاحون خوفا وهم ينظرون خلفهم ويتعجبون من أين أتت تلك الثيران؟! هل أتت فعلا من مخازن الغلال ؟ المدورة المصنوعة من الطين أم أنها جنيات فلما سألت خالى من أين تلك الثيران فعلا ؟ وكيف ظلت حبيسة على هذا النحو وهى بهذا الحجم الذى تخيلته قال ألم أذكر لك إنهم كانوا فى الأصل أرانب صغيرة ، أكلت من القمح ما شاء لها فتحولت من أرانب إلى ثيران ؟!
دخلت الممرضة السمراء ، كانت تقوم بعملها فى صمت وغضب ، ولكنى اكتشفت بعد أن أعطيتها الفرصة لكى تتحدث عن نفسها أنها سيدة طيبة القلب عطوفة لديها ولدان فى المدرسة ، وأنها تحب الزهور ، جاء الأطباء لأخذ عينة دم وكان لابد من أن أترك جسدى لهم أدخل فى ذكرياتى فأذهب بعيدا إلى طفولتى وكان أول مصدر للمعرفة هى جدتى ، التى تتحدث عن تلك الفترة التى عاشتها فى بور سعيد حيث كان يعمل جدى وكيف كان رجلا وقورا ومشهورا، وموظفا مرموقا فى تلك الشركة الكبيرة التى تدير

وتملك قناة السويس، وكانوا يسكنون فى منطقة جميلة بها حدائق مزهرة وكيف ترعرع والدى فى تلك المناطق الجميلة ، وكيف كان يأكل الشيكولاتة ثم تتحدث جدتى كثيرا عن طهو أنواع السمك الجمبرى والإستاكوزا وغيرها التى أسمع عنها ولا أراها ولا أستطيع شراءها وجدتى سيدة واقعية جدا لا تملك خيالا تعطيك إياه ، إنما تملك بعض الأمثال الشعبية تقولها كل حين وكانت جدتى بيضاء بياضا يشبه وجوه الملائكة لها وجها جميلا بهى الطلعة مستديرا به حمرة قليلة تذكرك بتلك الأيام الخوالى لأميرات السلاطين ، وكان جدى يسمع كلامها ويعاملها فى حرص بالغ وهى حريصة عليه كل الحرص ، حبيبة إلى قلبه وعندما يطلب (العجوة) التى كان يحبها لا تعطيه بسهولة بل تقول له إنها نفدت وأعلم أن فى صندوقها الكثير من (العجوة) وعندما يلح جدى وتحضر القليل منها يضعه أمامه ثم يصنع قهوته فى كنكة نحاسية كبيرة موضوعة على جمر فى إناء فخارى . . جدى لا يحكى الحواديت التى تغرى طفلاً مثلى بأن يجلس بجواره ، لكن كانت الفائدة الأولى أن أجلس إليه وأستمع إلى كل ما يقوله وأحفظه عن ظهر قلب، وكان لجدى اهتمام بالسياسة فهو قد عاش زمن سعد زغلول

والثورة المصرية أم ثورات مصر والعالم العربى متحيزا لها يأخذ فى قراءة الجريدة اليومية ويشرح لى كل الأحداث وتاريخ أبطالها ، هذا هو (النقراشى باشا) وذلك هو (أحمد عبد الهادى) ويتحدث عن (حسن البنا) فى إشفاق وحب وأنا جالس أنصت وهو يتحدث معى وكأننى قطب من أقطاب السياسة ، أفهم الدوافع الخلفية لمرامى السياسة المصرية، ثم يشرح لى كيف استعمر الإنجليز العالم وكيف قسموه إلى مناطق نفوذ بينهم وبين فرنسا ويقول إن تلك الدولة البعيدة والمسماة أمريكا سوف تقوم بدور كبير فى المستقبل القريب . أحيانا يدخن (الجوزة) وكنت أندهش تماما من رؤية رجل مثقف ومتعلم وكان موظفا كبيرا يجلس هكذا مثل الفلاحين ويشرب (الجوزة) ، هى الجوزة نفسها التى أراها فى يد فلاحين مثل أبى (اليزيد) و(العجمى) و(عباس الجناينى) ، كيف يفعل ما أستنكره على الفلاحين الأجراء الذين يعملون فى حقلنا أو فى دور الآخرين وحقولهم ؟! ولكن جدى لم يكن له هواية إلا أن يجلس هكذا يصنع القهوة بنفسه ويشربها فى تمتع وتلذذ ، ثم بعدها يمسك بالجوزة ويشد الدخان ليخرجه حلقات متتالية من دخان أبيض له رائحة نفاذة ، فأسعل أنا بشدة وأرتعد ، فتأتى

جدتى سريعا على سعالى وتبعدنى وتقول له : يا رجل كف عن هذا ، لم تكن بك تلك العادة عندما كنت شابا ورجلا ، فيضحك جدى ويقول لها لم أصل بعد سن العواجيز ، ويضحكان وأشعر أنا بالخجل وكأننى أمام عروسين فى ليلة زفافهما ، كما شاهدت بعد ذلك هذا المشهد مرارا ، مع عمتى وزوجها العريس ابن عمتى أيضا . جدتى لعبت دورا كبيرا فى حياتى ، فقد كنت أنام فى حضنها منذ أن ولدت إلى أن شببت عن الطوق وأصبحت حاصلا على التوجيهية ولكن لأغلب الأيام وأغلب الليالى وخاصة فى الإجازات حيث يكون لى فراغ من المذاكرة أو العمل أو القراءة ، أذهب إلى حجرتها وأجلس معها وأنام فى حضنها وقد أحببت جدتى حبا شديدا فهى كريمة اليد عطاءة جميلة البشرة كأنها ملاك ، تتعامل مع كل الناس بحب شديد ولا تعرف مطلقا معنى الكراهية ، فهى دائما حبيبة لبيبة ذكية مع كل الناس ، تحلب اللبن وهى التى تشرف على البيت كله ، هى التى تعد الطبيخ وتعد الطعام وتعد الخزين ولا أحد سواها ، أشعر برغبة شديدة فى البكاء . اعتذر الطبيب معتقدًا أن نصله الحاد هو سبب بكائى ولكنى تذكرت جدتى التى ماتت وتركتنى وحيدا أناضل من أجل الحياة ، ياه . .

أحاول أن أستمر أن أتمالك جدتى ملكة متوجة ولكنها ليست مثل حتشبسوت التى اغتصبت الحكم من أخيها وحاولت أن تمحو اسمه من كل المعابد ، كتبت اسمها وحكمت بقبضة من نار شعب مصر وصارت فرعونا ، جدتى لم تكن فرعونا لم تكن مجرد ملكة بل سيدة كريمة ، ذات يدين ملآى بالخير : ينقر الحمام الحب ، وتلتقط العصافير أكلها ، وتلمس المريض فإذا هو يشفى ، وتعطى بغير حساب ، فهذا يأكل حتى يشبع وذاك يسأل ولا أحد تقول له لا ، فجدتى لديها دوما طعام لمن يطلب ، لديها كساء لكل من يطلبه ومن لا يطلبه ، كانت جدتى لا تفرغ من عمل القهوة ، وبراد الشاى ، لا تروى الحواديت وتنصح النساء بالابتعاد عن الكلام ، السيدة يجب ألا تتكلم ، أن تهتم بأمور بيتها وأن تكون سيدة لا أن تكون ثرثارة ، ترعى بيتها كما ترعى حقوق الله ، وهى تعطف على أمى وتقول لها دوما ياعمتى ، وقد احترت ذات مرة فسألت جدتى إنك أمى وتلك السمراء أمى تبسم وجهها وأضاء مثل لمبة كبيرة من لمبات نمرة عشرة وقالت: هى أمك وعمتى أيضا، وأخذت تشرح لى تشابكات أسرية لم أفهمها وقتها ، فخالى يقول له أبى يا خال وجدتى تقول لأمى يا عمتى، وعندما كبرت

فهمت أن تلك الأسماء يطلقونها على سبيل الاحترام . قالت الممرضة إنها لو طالبت من يقيم معها بالزواج لخرج ولم يعد . . تشابك المصاهرات فى أسرتنا أدى إلى هذا ، فأصبحت أمى عمة لجدتى فى المنزلة ولكن ليست عمتها المباشرة، وخالى هو فى الوقتنفسه خال أبى، توحدت الأصول واختلفت الفروع ولكنهم ما نسوا أبدا أنهم من نسل واحد فتمسكوا بتلك القربى وازدادوا لها تمسكا مع الأحداث. عندها ثلاثة أطفال وهو لا يريد أن يتزوجها رسميا ومستعد دوما للهربو حاولت الممرضة أن تبتسم وهى تحكى ثم ربطت حول صدرى حزاما حديديا ، وأغوص مع نفسى . . ذات مرة اشتبك عمى فى مشاجرة عنيفة وكنا فى شهر رمضان وسمعنا ونحن نتناول طعام الإفطار بعد عمل يوم شاق أن عمى قد طعن ، وكنت أدرك فى ذلك الوقت معنى الأشياء - إلى حد ما - فرأيت أبى يرفع سيفه ومن خلفه الأعمام والأخوال وأبناء العم وأبناء الأخوال يهاجمون القرية فى ضراوة فخاف الناس أشد الخوف وفروا إلى الحقول واستطاع بعض العقلاء أن يأتوا بعمآ(سليما) معافىً وهو يصيح فى أبى (يا أبى أنا بخير وكل ما حدث مزاح شباب طايش) وتوقف أبى ونظر إليه فوجده سليما معافىً

يبتسم فى هدوء فصفعه صفعة قوية ألقته أرضا وأبى يردد لقد كدت أقتل الناس بلا جريمة والعياذ بالله ، وكان الناس من خوفهم قد تهربوا إلى الحقول لما عرفوه عن أبى من شدة وقسوة ، ولكنه هدأ وراح يناديهم حتى يعودوا ، وأقسم ألا يفطر حتى يعود الناس . أوحشتنى يا أبى . . أعلم أنك لم تعلم بمرضى ولا بسفرى . . ذهب الطبيب بعد أن أنهى الجراحة . جدتى لعبت دورا حيويا فى حياتى وأخوالى كانوا مصدر الحكايات الخيالية والأسطورية . . وكانت جدتى مصدر الواقع الذى نعيشه ومثالا للعطاء والكرم والجود وحسن المقابلة وأيضا الكثير من التقوى ، تقوى الله والتمسك بالدين وكان جدى مصدرا لما يمكن أن يسمى بالحس الوطنى الذى تفجر فى صدرى منذ أن كنت صغيرا ، وعندما بلغت مبلغ الشباب كنت من المتطوعين لمحاربة الإنجليز ، كان الحس الوطنى يدفعنى لكى أتدرب وألتحق بكتائب الفدائيين ، ودفعتنى أحوال جدى وما حدث له على يد الإنجليز ، عندما كان يعمل فى شركة قناة السويس ، وعند أول حادث حدث له تخلوا عنه ، فعاد إلى قريته وهو لا يملك شيئا بعد أن سلبوه كل شىء ، وعلمنى جدى أن الثورة فى القاهرة والإسكندرية والسويس ودمياط وأسوان

فى ساعة واحدة وكان بينهم اتفاق وصوت واحد (هبوا أيها المصريون وانزعوا عنكم القيد الحديدى) رأيت أهلى فى بلدتنا وهم وقوفا مثل أحجار سد عالية بأجسادهم، أيديهم خالية ليمنعوا طوفان النهر فى مواسم الفيضان ، يقف كل شاب منهم فى منطقة يرعاها ، يتصايحون ليل نهار يسدون الثغرات فلا يستطيع النهر أن يهزمنا وأحيانا يفشلون وعندما يفشلون لا يتركون أرض المعركة، يسرعون إلى القوارب ينقذون ما يمكن إنقاذه من النباتات والمحاصيل ولا يهم زرع من ومحصول من ، الكل يعمل رجالا ونساء وأطفالا ، كلنا فى وقت واحد أيدٍ تحصد ، أيدٍ تجمع ، أيدٍ تدفع القوارب ، أيدٍ تأخذ من القوارب وتضع على الجسور ، لا أحد يسأل لمن هذا المحصول ؟ عليه فقط أن ينقذ ما يمكن إنقاذه ، ثم إذا ما فعلوا ذلك قسموا ما جمعوه ، هذه الأرض خصبة جدا ، عندما تغرق فى الفيضان ثم ينحصر عنها يتركها أرضا ملساء فى نعومة جلد الأطفال ، تبرق فى الشمس مثل وهج الذهب ، وكنا نحن الأطفال نجرى وأحيانا ننزلق عليها ونحن فى قمة السعادة نتضاحك ونتبادل الأحاكى ونقول من يصل إلى الشجرة يكون ملكا ولا ندرى لماذا دائما صورة الملك القادر على فعل أى شىء يعجز عن

فعله الإنسان العادى ، من يتزوج أم كلثوم لا بد من أن يكون ملكا ، والملك يستطيع تحطيم هذا الحجر ، فالملك عندنا يأكل خروفا محشوا بالحمام ولديه سريرا مفروشا بريش النعام وحوله الوزراء والجند يأمر فيطيعون ، وأحيانا يكون حكيما بارعا متفوقًا فى الذكاء ، هذه هى صورة الملك فى عقولنا نحن أطفال البلدة فمن يستطيع أن يهزم فلانا الذى يلعب بالعصا مثل رهوان غير الملك ؟ من يستطيع أن يتفوق فى لعبة الضمة إلا الملك ؟ من يستطيع القفز إلى نهر النيل عند منطقة الجسر إلا الملك؟ شخص وحيد اسمه سمك يغوص فى تلك المنطقة التى تلتهم شابا كل شهر ؛ لأن بها جنية كبيرة تبتلع كل من يحاول أن يدخل إلى بحرها ولكن (سمك) يغوص فى عز البرد ويأتى إلينا بسمكة رعاشة دسمة تطبخها أمى فى إناء فخارى تضعه فى الفرن ليخرج إلينا طعاما طيب الرائحة ولذيذ الطعم ، ودوما يأتى خالى (سمك) حاملا إناء يحتوى على هذا النوع من السمك كل أسبوع تقريبا فيقدمه لأمى فى الفجر حتى لا يراه أحد . ترك جدى العمل فى بورسعيد ، وقعد فى البيت وهو لا يزال عنده الكثير من الفتوة ، يقبع خلف (المنأد) الذى يدس فيه كنكته ليضع القهوة السوداء ، ثم بعد ذلك يشرب الجوزة ،

أقبع بجواره ولا حديث له إلا عن ثورة ١٩ وما حدث لها وكيف صارت إلى ما صارت إليه ، مجموعة من الأحزاب تتاجر والملك يفعل ما يشاء ، والوزارة تقبض على الإخوان مرة وعلى الشيوعيين مرة وعلى ناس أبرياء فى كثير من الأحيان ، وكنت أفهم ما يقوله أحيانا وأحيانا لا أفهمه ويتحدث بلغة غريبة بغضب ، سألت جدتى ماذا يقول؟ كانت تضحك وتقول: عندما يكون غاضبا يتحدث بلغة التركمانية حتى لا يفهمه، أحد ، وأحيانا، يشتمنا بلغة فرنسية ، جدى أضاء عقلى فقرأت فى كل العلوم وأحببت الرياضيات كما أحببت علوم الطبيعة والكيمياء . . كنت أبارز من كان أكبر منى فى شعر أبى العلاء والمتنبى وامرئ القيس وغيرهم ، ولأن جدى كان مولعا بهؤلاء دفعنى إلى حبهم . . ولما كنت الطفل الوحيد ، فى تلك الأسرة الكبيرة التى كان لا يزال معظم أفرادها من الشباب أو الذين تزوجوا ولم ينجبوا أصبحت أنا المدلل بينهم أجول بين أحضان جدتى لأمى وجدتى لأبى أو زوجات عمى أو زوجات خالى لى فى كل بيت حجرة ولى فى كل بيت مطلب فإذا لم ترضخ تلك الأسرة أو زوجة العم أو الجدة لما أطلب أخرج غاضبا ألتمس الشىء نفسه فى بيت عم لى أو خال أو جد ،

وكثيرا ما لبت جدتى الطلب نفسه فى الوقت نفسه فأطلب مثلا أرزا معمرا وكان يطيب لى ، فأذهب إلى حليمة وأقول هل لديك أرز معمر ؟ وأرى صينية الأرز المعمر وقد خرجت توا من الفرن ، لتضعه أمامى ثم تدس يدها فى وسطه لتخرج قبضة وتضعها فى الطبق ثم تطعمنى إياه قطعة قطعة، وعندما أضيق بها أجرى إلى جدتى ست أبوها فإذا بها وكأنها هى نفسها جدتى حليمة قد وضعت قبضتها فى طبق الأرز ساخنا تفوح رائحته الذكية ويسيل لعابى مرة أخرى فتضع فى فمى بضع حبات منه أتذوقها فى تلذذ وأنعم بالنظر إلى جدتى وأحيانا كنت أنام توا على حجرها تدللا أو تظاهرًا بالغضب لكى أحظى بالمزيد من حب زوجات أخوالى وأعمامى ،ويأتى عمى ويقول لا تجلس مجالس النساء فأنت رجل ويجب أن تجلس مجالس الرجال . لم أره قط يجلس مع أمى أو جدتى، أراه فى البيت إما نائما أو مصليا أو فى عمل من الفجر حتى منتصف الليل ، وبعد أن كبرت قليلا كنت اللازمة ، وكان أبى يحب الشاى حبا شديدا ، وقد أخذت عنه ذلك فكنت ولعا بالشاى إلى درجة غريبة، ولأن الشاى فى محلاتنا لا يكلفنا شراءه لهذا فإن (وابور السبرتو) تراه مشتعلا دائما أسفل البراد ، وكوب

الشاى الثقيل جدا مر المذاق فى يدى لا يفرغ أبدا ، وقد تولى (العجمى) إعداد الشاى لعدة سنوات ، هذا العجمى الذى كنت أسميه (ترباس الفقر) لأنه يقال إنه عندما ولد أشهر أبوه إفلاسه بعد أن كان من أغنى الأغنياء فى بلدتنا ، ولأنه عاطل لا يعمل إلا أن يجلس بجوارى لكى يحضر الماء البارد ويصنع لى الشاى عندما أطلبه فى مقابل قروش زهيدة من أبى ، ولكن الرجل أصبح الآن صاحب عربات (إسكانيا) ثمن الواحدة منها مليون من الجنيهات ولديه العديد منها . . تقدم (أحمد القطرى) وهو ابن جارتى فى المستشفى ووضع أمامى برادا وكوبا وأخذ يصب لى الشاى ، حاولت أن أشرب ولكنى لم أستطع، يبدو أنهم أحدثوا بحلقى جرحا؛ لا أقدر على البلع ، حاول هو أن يساعدنى ، إنه يدرس السياحة ويشعر أننى قريب منه . . .
تعلمت من جدى كيف كان مينا موحد القطرين عظيما وحكيما كان إذا نظر من نافذة بيته قال يا إلهى لا تحاسبنى على جائع لا أراه . أليس هذا ما قاله أيضا (عمر بن الخطاب)؟ ثم يقولون أيضا إنه حاكم مستبد! (بريستد) عالم الآثار المشهور أمريكانى الجنسية يثبت لنا أن خوفو الذى أسس الأسرة الرابعة وبنى مجد مصر القديمة كان حكيما

وعادلا وبلغت مصر أرقى درجة من درجات الحضارة لم تصل إليها بلد بعدها ، علمنى جدى كيف أكون تحتمس وأحمد عرابى وسعد زغلول فى آن واحد ، كيف أكون مصريا كيف أعشق النيل وتراب الأرض وزرع الفلاح ، كيف أغمس جسدى كله فى قريتى ملتصقا بدارى ولهذا لم أغادر بلدى رغم المعاناة ، لم أعمل فى الخارج على الرغم من كل الإغراءات ، سافرت إلى بلاد العالم شرقية أو غربية ولكنى دوما أشعر بالحنين فأعود سريعا ، ذات مرة وأنا أعبر ميدانا كبيرا فى نابولى سمعت صوت عبد الوهاب وهو يغنى الجندول وتوقفت وكادت السيارات تصدمنى فلما تنبهت عبرت الميدان بسرعة ثم أخذت أدور فى الميدان بحثًا عن المقهى التى تذيع أغنية الجندول وطالت دورتى، لم أنجح فى الوصول إلى مصدر تلك الأغنية، ثم اكتشفت بعد ذلك أن هذا الأمر يتكرر معى فى أماكن كثيرة فطنت إلى أنه قادم من أعماق رأسى أنا ، وعلمت أن هذا ما علمنى إياه جدى الذى كان يعشق الموسيقى والغناء وكان لديه (جرامفون) يضع الأسطوانات فيشدو عبد الوهاب بأغانيه القديمة وأطرب مع جدى ونتحد مع الموسيقى ، وعندما كبرت كنت لا أترك حفلا موسيقيا إلا وحضرته ، وذات مرة ذهبت إلى

حفلة للموسيقى العربية لفرقة تركية لم أسمع إلا المقدمة وفى نهاية الحفل ومع تصفيق الجماهير صحوت وأنا فى شدة الخجل وفى شدة الغيظ أيضا ، وفى سوريا حضرت حفلاً وكانت أيضا موسيقا عربية تعزفها فرقة تركية صحوت كأننى كنت فى حلم ، لهاتين الحفلتين ألجأ إليهما كلما حل بى الألم ومنذ قليل أعطونى حقنا وحملونى من السرير إلى المقعد أردت أن أستعيد نشاطى ولكنى لم أفلح ، فقط سمعت الموسيقى ، تعلمت عن جدى هذا الذى لا يتحدث عن ماضيه وكأن الشركة التى كان يعمل بها فى قناة السويس لم تفعل به شيئا ، لم تطرده بعد أن تحطمت ضلوعه فى العمل لم تعطه أجرا ولا تعويضا ولم تعالجه بل شطبت اسمه من السجلات، وعندما سأل أبى عنه قالوا إنه لم يكن يعمل هنا ، أبى كان يعرفهم واحدا واحدا وكانوا كثيرا ما يتملقونه ويجلبون له الشيكولاتة من هولندا وفرنسا وإنجلترا من أجل جدى ولكن بعد أن طردوا جدى ونقله المصريون إلى إحدى المستشفيات الأميرية فى الحى العربى قالوا لا نعرفه . مكث شهرا ثم عاد إلى قريتنا مريضا مهيض الجناح لا مال ولا ادخار وكأنه لم يكن يعمل فى شركة عالمية كبيرة تربح الملايين ، أبى كان يقص على تلك القصة مرات عديدة وفى

كل مرة بأشكال مختلفة حتى إنك فى كل مرة تسمعه يحكيها تظن أنك تسمعها لأول مرة فهو حكاء شديد الذكاء من الممكن أن يحكى عن شىء تافه جدا وحكاية لا تستحق الرواية إلا أنه يحكيها بطريقة تجعلك تظن أنها أهم حكاية فى حياته وفى حياتك أنت أيضا . يدخل بانديا ليعاود أخذ عينة من الدم ويقول : يجب أن تصبر وأن تتحمل ، وراح يبحث عن موضع يصلح لوضع الحقنة واستمر ذلك طويلا ، أبى يحكى قصة جدى بطريقة مشوقة وكل مرة يضيف إليها العديد ، وقد سمعتها عنه عشرات بل مئات المرات وفى كل مرة أشعر كأننى أسمعها لأول مرة . تعلمت من أبى أيضا كيف كان امرؤ القيس شجاعا ،وكيف كان عرابى قائدا شجاعا وليس خائنا كما كانوا يقولون . تعلمت من أبى شجاعة الحزم وشجاعة القرار ولم يتراجع قط ، وأيضا تعلمت منه كيف يكون العطاء جميلا للنفس وليس لأنه مجرد عطاء وكرم بل هو مثل جمال النفس عندما تسمو وتشعر بها الذات فقد سمت هى أيضا ، وقد تعلمت من أمى الحلم والرقة وكيف أعامل الناس وأنا أبتسم وإن كنت أتألم من الداخل ، وتعلمت الإيمان من جدتى ، كيف يكون الإيمان مطلقا لا ريبة فيه ، ولا حكمة ولا فلسفة بل هو

إيمان مطلق بالله لا تزعزعه شائبة شك وكيف تكون صلاة النفس جميلة تروى النفس بالكثير من الإحساسات المبهجة والسعيدة ، تعلمت من جدتى أيضا كيف يتحمل الإنسان الألم مهما كان هذا الألم عظيما وتعلمت من أخوالى الحكمة فقد سمعت منهم آلاف الحواديت والقصص التى توحى بذلك وتعلمت من أعمامى أشياء كثيرة تعلمت كيف أصنع لنفسى مركبا من الحشائش وكيف أصنع أرنبا وحصانا من طين الأرض ، وكان لى عم يعتقل كثيرا بسبب انضمامه لجماعة الإخوان ، وفى سجن القلعة كان يصنع لنفسه «شطرنج» من لقم الخبز ويصنع مثله لزملائه ويصنع الكثير من الأشياء البسيطة ، وكان يعلمنى كيف أصنع من الأشياء التافهة أشياء نافعة . فإذا ما كبرت وجدت الكتب فى دكان الفسخانى ورحت ألتهمها التهاما ، كنت أطوق إلى المعرفة فما عرفت القراءة والكتابة حتى بدأت علاقتى بالكتاب وبالكلمة المكتوبة ، دائما أهرب إليها وأقضى مع الكتب ساعات وساعات بل كنت أتحمل من أجل هذا الكثير من المعاناة وإن كان وقتى مقسما إلى ثلاث ، الذهاب إلى المدرسة وهذا واجب، ثم معاونة أبى فى تجارته وهذا أمر حتمى لا يمكن أن أتخلف عنه وكان يستغرق منى الوقت

نفسه الذى تستغرقه الدراسة فلا يبقى أمامى إلا وقت النوم لأستولى عليه لكى أقرأ المزيد . . نجح الدكتور فى أخذ عينة من دمى كان أحد زوارى فى انتظار السماح له بالدخول ، فأذنوا له ، فأخبرنى بأن مقالاتى التى كتبتها قد بدأت تنشر فى الأهرام ، وأن أحد كتبى يباع هنا عند ناشر عربى ، حاولت الاتصال بأصدقاء لى فى دبى ، ولكن يبدو أن شيئا ما قد حدث ؛ لأنهم تغيروا من ناحيتى ، لا أدرى لماذا أخسر الأصدقاء بسرعة ، كانوا يتعاملون معى بود خالص ولكن تغير الحال ولم يعودوا كذلك ، لا شىء يهم ، لم تعد للحياة فائدة مأمولة ولكنى أحارب هذا الأمر فى داخلى ، أتظاهر بالمرح والتماسك ، على الرغم من الخواء الذى أعيشه ، لم تعد للأشياء مذاق . كما لم تعد للحياة معنى ، وأخيرا سمعت صوت زوجتى . . .

المغترب فى بلاد العجم والعرب أنا ذلك المغترب مرضا ونفسا أبدو من الخارج متماسكا - إلى حد ما- والحمد لله له الشكر هو الشافى . قالت الممرضة ، عندما رأتنى فى الصباح ، إن الله معك ، ابتسمت فى سعادة لأنها تعرف الله ، الجميع هنا من جنسيات مختلفة يدينون بأديان متعددة وإن كان الدين فى الأعماق مستترا ، المشاكل هنا

كبيرة تكاد تعصف بحياتهم ، ويتصورون أنهم مواطنون درجة ثانية على الرغم من أن الكثير قد ولد هنا فى لندن . فأقاموا مساكنهم ، وأنشأوا مزارعهم ، وعملوا فى جد واجتهاد ، فى مصانع إنجلترا وغزوا شرايينها بالمال ، فجاء أبناءهم لكى يرثوا عنهم العمل الشاق والاجتهاد وعلو المكانة أيضا خصوصا المكانة العلمية وهنا أشهر الأطباء من المصريين وأشهر الممرضات من بنجلاديش ومن ماليزيا وإندونيسيا وإيران وباكستان وغيرها من البلدان ، الزنوج كما قلت كثرة ، الجميع هنا يعمل باجتهاد ولكن عندما تجلس مع إحداهن فإنك ستجد أن فى الأعماق آلاما مدفونة ومشكلات تحيط بهن لا حدود لها مثل أمواج البحر التى تعصف بالجزيرة الإنجليزية ، بل إن الإنجليز أنفسهم يعانون من المشكلات وهى كثيرة مثل اللغة ، فرنسا تحرّم استخدام لغة غير الفرنسية ، وإيطاليا كذلك ، إنهم يخشون على أنفسهم من الذوبان فى أوروبا الموحدة ، الإنجليز هنا يتحفظون والجميع يعيشون فى حالة إضطراب قاس ، الذين يقولون لك غير ذلك أقاموا أسبوعا أو أسبوعين ، جاءوا لكى يشاهدوا ميدان بيكاديللى ويتنزهون فى هايدبارك ورأوا العجب العجاب ثم عادوا ليرووا القصص أنا لم أر بيكاديللى

أو غيره كما أسمع من زملائى المرضى الذين خرجوا وعادوا ليعيدوا الكشف ، كيف انبهروا بالحمام وهو يروح ويغدو فى سلام وكيف أن القطار تحت الأرض يسير بسرعة هائلة ويصل إلى عدة أماكن ويضحكون ، قد ينفقون كل المال على ملابس وأشياء تافهة مصنوعة فى ماليزيا وإندونيسيا وهونج كونج ، حتى الطعام القادم من تلك البلدان ، ومن هولندا وباكستان والهند ومصر ، كل الأطعمة أتوا بها من بلدان مختلفة ، ثم لا شىء بعد ذلك ، أهم مشكلة تواجه الفتيات الإنجليزيات أو الأجنبيات اللائى يتجنسن بالجنسية البريطانية هى الزواج فلا أحد يتزوج ، لا يريد الشباب أن يتزوج ، إن كل شىء مباح ومتاح .. العمل والطعام والجنس فلماذا يتزوج ؟ الشقة موجودة ولكنها لا تسمح فقط إلا بدخول الصديقة ليلة أو ليلتين وربما تقيم معه إقامة كاملة .. يتعاونان ، كل منهما يطهو الطعام فى يوم راحته ، أو يطهو أحدهما ليلا والثانى نهارا . ويتبادلان النكت كما يتبادلان الجنس ثم لا شىء بعد ذلك ، تسألها وَلِمَ لا تسألينه الزواج ؟ فأنت تقيمين معه إقامة كاملة مثل الزوج والزوجة ؟ تقول لى هذا معناه أن يخرج من حياتى ولا يعود ، كيف أعيش إذن وقد اقتربت من الأربعين ؟ كيف أطلب منه

الزواج ؟ هذا معناه أن يرحل إلى واحدة أصغر منى وأجمل فى عالم يضج بالفتيات اللائى يتحفزن للانقضاض على الرجال ، والرجال يتقاذفون البنات كما يتبادلون الكرة فى الملاعب ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، الآباء من كل الجنسيات ، يتحدثون بمرارة عن البنات ، كلهم يرغبون فى تزويج بناتهم سواء أكانوا من المسلمين أم من هؤلاء الذين لم يعودوا يؤمنون بأى دين ، إنهم جميعا يعانون من هذا الكابوس الذى يسمى الزواج ، فلا زواج ولا يحزنون بل هناك من المآسى ما يندى له الجبين ، هناك نظام تبادل الزوجات وهذا معمول به ومشهود للعيان ، وهناك زواج الشواذ مسموح به قانونا فى داخل الكنيسة ، الشيطان هنا رحل منذ فترة طويلة ، لم يعد له مكان ؛ لأن الإنسان تحول إلى شيطان ، تقول لك الفتاة أنا أعمل طوال الأسبوع عشر ساعات يوميا وأحيانا أكثر ، ثم أعود إلى غرفتى ، كيف أعيش ؟ لا تسلية ولا يحزنون ، إذن أذهب إلى الطريق وآتى بالصديق فكلنا هنا مثل العبيد ليسلينى ليعاشرنى ثم يذهب ، وأعود لكى أفعل ذلك فى اليوم التالى ، فلما سألت : إذن ما المصير وإلى أين ؟! ابتسمت ولكنى لمحت دمعة تسقط فى حزن وهى تقول : أنت رجل وأب كريم ، قالت ليلى

وهى تغرز الحقنة صاحت فى تهلل سأسافر بعد أسبوعين إلى كاليفورنيا قلت : وصديقك ، قالت : يذهب معى ، نسافر لأرى ابن أخى الذى رزق به بعد طول غياب وعمره الآن أكثر من شهرين هى متلهفة لرؤيته وسوف تتكبد مبالغ باهظة للسفر من لندن إلى كاليفورنيا وتقيم شهرا عند أخيها ، لقد دفع كل منا ثمن التذكرة ، قلت : وهل صديقك هذا يقيم معك منذ فترة ؟ قالت : نعم . قدمت إلىّ الطعام ، اكتفيت بأكل قطعة سمك . حضر الآن الدكتور (شرم برم) آسف لاستخدامى هذا الاسم فاسمه ليس كذلك ، ولكنى رأيت أن أسميه به لغرابة أسمه الأصلى ولما سألت عن جنسيته قالوا إنه من جنوب الهند ، من تلك الجماعة التى تناضل من أجل الانفصال عن الهند وتشكل جمهورية مستقلة . هناك يقتلون المسلمين ، كرهته لأنه من طائفة تدعو للقتل ، أما هو فرقيق الحال ومجتهد ويعد من الأطباء المشاهير هنا لمهارته ، ينادونه (شرم برم) كما أطلقت عليه الاسم منذ أن قدمنا إلى لندن وكل الناس هنا يقول لك الطبيب شرم برم ، فنضحك وهم لا يعلمون ما مدى ما يحمل هذا الاسم من دلالة فى اللهجة العامية المصرية ، اللهجات هنا متعددة فأنت تسمع الإنجليزية بلهجات

مختلفة ، أحيانا لا تفهم وأحيانا تفهم ولكن الكل يعمل ولا أحد يتوقف خوفا من البطالة التى بلغت بين الشباب إلى خمس وعشرين بالمائة من تعداد خريجى الجامعة والمدارس . وكبيرة الممرضات لديها ولد يتعلم فى معاهد عليا فى الكمبيوتر للحصول على درجة الدكتوراه ومع هذا يأخذها الأسى عندما تسألها عن عمله ، تقول لا يعمل ولا أمل فى عمله فى المستقبل . . وتذكرت عندما قدمنا إلى مطار هثرو كان الغضب باديا على رجل الإسعاف الذى كان يدفع مقعدى المتحرك ، وقال بانفعال إن ولده عمره ثمانية عشر من الأعوام ولا يزال لصيقا به يأكل ويشرب على نفقته ، نعيش فى عالم ملىء بالمآسى .
حضرت سيدة وقالت : أكثر من ثلاثين سيدة هندية سوف يقيمون فى الغد ما يمكن أن يسمى بحلقة ذكر ، لختم القرآن الكريم ، يقرأون فى خشوع وتذلل إلى الله سبحانه وتعالى وسوف يستمر هذا الذكر من الحادية عشرة ويأخذ وقتا طويلا وربما يمتد حتى ما بعد صلاة العصر لكى يتوسلون إلى الله لشفائك ولشفاء بقية نزلاء هذا المستشفى من المسلمين ، ولما ظهرت الدهشة على وجهى لأن هناك من السيدات الهنديات من يؤمنّ بالله ، ورسوله ، ويقمن الصلاة والذكر ،

ذكرتنى بتلك الأمسيات الجميلة التى كنت أقضيها فى (ضريح سيدى يوسف) الذى يقع أمام بيتنا مباشرة وكنت أحضر حلقات الذكر هذه ، وأسعد بها ولا يزال ذكراها فى عقلى وفى خيالى ألجأ إليها أحيانا لألتمس الراحة بل إننى عندما أخبرونى بهذا الخبر اختلط الأمس بالماضى واختلطت لدىَّ ذكريات عبقة من ذكريات تلك الأمسيات الجميلة التى كنت أقضيها دوما مندسا بين أرجل الرجال وهم يرددون بصوت متهدج الله الله ، وينشد المنشدون بصوت جميل عذب مديحا فى رسول الله ﷺ ، تبدأ الحلقة بذكر الله فى تؤدة ، على صوت المنشد الذى يقود حلقة الذكر ، الصفقة يصفقها بيديه فيحدث الإيقاع الذى يجب أن يتناسب مع ذكر اسم الله جل جلاله ثم يبدأ المنشد بإنشاد مديح فى رسول الله أو دعاء إلى الله سبحانه وتعالى ، كنت وأنا صغير لا أفهم ما يقوله ولكن قلبى كان يفزع وعينى كانت تدمع ، أذكر الله سبحانه وتعالى ، ثم يبدأ المنشد فى الإسراع مع ارتفاع الإيقاع تدريجيا حتى يصل إلى الذروة فإذا بالرجال يتطوحون فى سرعة مبهرة وكأنهم يدورون حول أنفسهم واسم الله جل جلاله يتردد بسرعة فى دوران وكأنه دوران الأرض ثم دوران الكواكب وهكذا وكأن العالم كله يقوم على ميزان واحد

ميزان صنعه الله ، مع إسراع المنشد مع إسراع الدعاء مع إسراع الحركة دوران الأجساد والرجال ، أشعر أنا بأنى مجرد سحابة وسط الحلقة العملاقة من رجال يدورون بسرعة ، وتدور الدنيا تمضى ، ولا يبقى إلا الله . . الحى القيوم . . تدمع عينى . . تمسك بى ابنتى والسيدة تصف ما كان يحدث من نصف قرن ، وكأن الزمن يعود إلى النقطة نفسها فى البداية ، وإن اختلف الناس من هنود نيودلهى إلى رعاة الأغنام فى الواحات ، الكل متحد فى ذكر الله ، أليس هذا يحتاج إلى تدبر وتفكير ؟ تعود التقاليد فى غاية الرقة والعذوبة إلى ما كانت عليه منذ قديم الزمان تتكرر حلقات الذكر كما كانت تتكرر فى الماضى بالطقوس نفسها بالعادات نفسها ، وإن كان العالم من حولنا قد تطور تطورا علميا مذهلا ، الذين كانوا يقيمون حلقات الذكر فى الماضى كانوا مجرد فلاحين أجراء لا يفقهون من أمر دنياهم إلا أن يعملوا بأيديهم فى الحقول ثم يعودون مجهدين إلى دورهم فإذا ما دعوا إلى حلقة الذكر الذى يأخذ منهم جهدا كبيرا أجابوا حتى يتساقطوا بعد أكثر من ثلاث ساعات من الجهد العضلى والذهنى ، الآن الرجال والنساء أنفسهم وإن كانوا يحملون شهادات الدكتوراه يفعلون هذا ، يدفعنى هذا إلى التأمل

ونحن نتحدث عن مصادر المعرفة التى يمكن أن تكون فطرية أى موجودة فى عقل الإنسان منذ أن خلق الله الإنسان وعلمه . والإنسان مطلق أى أنه آدم ومحمود وعلى وحسين وجورج وثريا وأمينة وبثينة وهكذا ، الاسم الذى حدده فى القرآن آدم وآدم نسخة تتكرر فأنت الآن فى نهاية القرن العشرين ومع هذا أنت آدم ، آدم بشحمه ولحمه وبخصاله وطبيعته وفطرته ، علمك الله كما علم جدك الكبير . آدم تتكرر النسخ وتتكرر المنسوخات كما أراد الله وكما خلقها الله ، فالمصدر إذن واحد وما تعلمه آدم تعلمته فالتسليم بوحدانية الله أمر من الله سبحانه وتعالى فطرى فى الإنسان ربما يردد جسدك وأنت لا تدرى لا إله إلا الله ، فما من شىء إلا يسبح بحمده ، وخلاياك تسبح بحمد الله والكفار أيام قريش كانوا يقسمون بالله ، دخلت مسجدا به ضريح مقام لأحد أولياء الله الصالحين ، هكذا يقولون . يدخل البروفيسير يعقوب وحوله عشرات من الممرضات والممرضين وأيضا الأطباء يتحلقون حولى يدور عقلى أحاول أن أبتعد عنهم جميعا . . يدور الناس حول المقام سبعا ويقرأون سورة الفاتحة سبعا ثم آيات من ذكر الله ثم يتوسلون إلى هذا المقام وإلى صاحبه لكى يشفى مريضهم أو

ينجح ولدهم أو يحل لهم مشكلاتهم وما أكثر المشكلات ، ويقال إن صندوق النذور فى أحد الأضرحة بلغت حصيلته أكثر من خمسة ملايين من الجنيهات ، الناس يدفعون لأولياء الله الصالحين لكى يتوسلوا بدورهم إلى الله ، كان هذا منذ سنوات وربما لا يزال ، ولكن الأغلبية الآن تعود إلى مصادر المعرفة الحقيقية فيتحلقون فى حلقات ذكر تقام فى القاهرة وفى ضواحى ڤيينا وبرلين وميونخ وموسكو وباكستان اللهم لا إله إلا أنت . . دينك ، نصرته وحفظته ونحن مجرد عبيد لك ، الدكتور يعقوب ينصرف وهو يردد بالغربية يجب تغيير الطريقة ، نعود إلى مصادر المعرفة ، ولكن يلهينى الحديث دوما حول تلك النقطة التى تكاد تأخذ بتلابيبى حول مصدر المعرفة ، الله سبحانه وتعالى هو العارف والذى يلهم الإنسان فكيف يؤلف المؤلف أشياء لم يرها؟ وكيف يكتب الشاعر أشياء لم يدركها بالمحسوسات العقلية أو المحسوسات الإدراكية ؟ كيف يتصور صورًا لم تحدث ؟ وكيف يتخيل أخيلة لم تحدث ؟ لا بد من أن هناك مصدرا من مصادر المعرفة هذا هو الله ، علم الإنسان ، علم الإنسان ما لا يعلم ولنا فى ذلك حديث أخر . فقد جاء الأطباء يبدو أن الأمر خطير وجوههم توحى بخطورة ما سوف يقدمون

عليه ، الألم الحاد يعصف بى يا الله . مد إلى مددك، أدركنى برحمتك . . يا الله . . دخلت مندرة سيدى يوسف يمتلئ المكان بالبخور ذى الرائحة الجميلة يتصاعد من الموقد الفخارى المملوء بقطع كبيرة من جمر نتج عن إحراق عدة أفرع من شجر الليمون وضعوا عليه ذلك البخور الجميل الذى يصنعه عم (عبد الصادق) وهو حارس مندرة سيدى يوسف وصانع العطور ، يصنع ماء الورد وعطر الياسمين وعطر الورد . تتصاعد الروائح الطيبة من تلك الأجهزة الصفيحية المتراصة فى ركن من المندرة والتى يصنع فيها عم عبد الصادق عطورا متعددة ذات الروائح الفواحة عندما دخلت أعطانى أحدهم زجاجة صغيرة بها مقدار قليل من عطر الليمون ، شعرت به انتشيت ، دائما ما أنتشى عندما أدخل حديقة من حدائق الليمون فى موسم ظهور زهوره الصغيرة الدقيقة البيضاء رائحتها توحى إلى بالسكينة ، أذهب معها إلى عوامل متعددة ، جلست فى نهاية الصف على الحصير ثم جاء الشيخ رائد حلقات الذكر وهو رجل رفيع جدا أسمر الوجه ذو لحية بيضاء يرتدى جلبابا واسعا وقام الجميع وراحوا يقبلون يده واحدا تلو الآخر حتى جاء دورى وقبلت يده ، فنظر إلىَّ فى دهشة ، جلسوا بعد أن جلس ،

جاء عم عبد الصادق بفناجين القهوة ، فنجان دقيق صغير لا يتسع إلا لرشفة أو رشفتين ، قدم لكل رجل فنجانا ، وأعطانى أنا أيضا ، أعامل معاملة الرجال أسعدنى هذا ، لسعنى شراب القهوة الساخن جدا، تحملت ، شربت الفنجان على دفعة واحدة وضعته بجوارى وجاء عم عبد الصادق وجمع فناجين القهوة الفارغة ، نظر نحونا الشيخ وبدأ الإنشاد (بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأستغفره وأتوب إليه باسمك اللهم باسم أسمائك الحسنى التى نعلمها أو التى أخفيتها عن عبادك نسألك الخير كله والزاد كله والحب كله ، (يا منان) ونردد خلفه الله الله الله الصمد الله الله الله الواحد الله الله الله الأول الأخر الجبار المنتقم العاطى الوهاب الرزاق نسرع إذا أسرع ونبطئ إذا أبطأ يا رسول الله « ﷺ » يا بهى الطلعة يا حلو اللسان ، يا نصير الضعفاء ، يا سيد البشر يا محمد ، نردد خلفه عليه الصلاة والسلام (سعيد جدا أطير من الفرحة أتصور نفسى حاجا إلى بيت الله أركب جملا كما رأيت جدى يركب جملا أحمل الزاد والزواد ، أكياسًا من تمر وأكياسًا من قمح وأكياسًا من شعير وأكياسًا من سكر وأقداحًا من زيت وأقداحًا من عسل ، وعاد

جدى ورسمنا الجمل الذى ركبه وجلس جدى فى المندرة ووزع السبح المزركشة والجلاليب والعبايات البيضاء والناس تقبل يده وهو يحكى كيف ذهب ثم كيف عاد ، كان يعطى كل من حوله حفنة من قمح فيجرشها بأسنانه ونحن ندهش كيف يأكلون القمح دون طحن يبتسم ويقول جوعى ماذا يفعلون ؟ وأبكى لماذا هم جوعى وهم بجوار الكعبة ؟ يا ليتنا نعيش هناك ، وذهبت إلى هناك منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما وبدلا من الجمل ركبت طائرة وبدلا من الأرز والزيت والسكر والشعير والقمح حملت معى كما أمرتنى زوجتى خبزا طازجا وكحكا وفطيرا وتمرا وسكرا ، وذهبت محملا بالزاد والزواد كما فعل جدى وإن اختلف الزاد واختلف الزواد ، فلم أحمل قرب الماء ولا زيت الزيتون ولا الشاى ولا السكر بل حملت خبزا وكحكا وفطائر وعجائن ولدائن صنعتها زوجتى واستغرقت فى صنعها زمنا ولكنها سعيدة كل السعادة لذهاب زوجها الشاب إلى الحج كما فعل أجداده ، كانت تتمنى أن ترافقنى ولكنى ذهبت بمفردى، ذهبت وكلى شوق لكنى لا أدرى ماذا أفعل ؟ لم أقرأ كتابا عن الحج ، لم أحفظ المصحف الشريف ، لم أكن مشغولا بهذه الأمور، شغلتنى تجارب كثيرة وعديدة فى

الحياة كانت صلتى بالصلاة مثل سائر المسلمين أؤديها فى مواعيدها ونحفظ : قل هو الله أحد ، وإذا جاء نصر الله والفتح وإنَّا أعطيناك الكوثر ، وألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، هذا يكفى لصلاة الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء وأيضا النوافل . أعلن أحدهم أن التلفزيون سيذيع صلاة الجمعة من مكة مباشرة على القناة الفضائية العربية ، أسرعوا وأداروا القناة المقصودة ، ورأيت الكعبة ، كم مرة رأيتها ، كم مرة جلست قبالتها وطوفت حولها ، وسعدت وأنا أرقب حمام الكعبة وهو يدور حولها فى دوائر . جاء الدكتور (بانديا) وقال ماذا حدث ، كنت مشغولا بالنظر إلى صورة الكعبة ، الأوامر ألا نحمل نقودا إلى الخارج ؟ تكفى مائة جنيه ؟ هل تكفى مائة جنيه لكى ننفق على أنفسنا خلال وجودنا ؟ وأين ثمن الذبيحة التى سوف نذبحها؟ ذهبت لأحد أصدقائى أستشيره قال : لماذا نقول لهم إن معنا كذا؟ أقول: أبدأ حجتى بكذبه ؟! قال لا تقل شيئا إذا سألوك قلت لكن النية ، قال لا تكن أحمق ، خذ معك ما يكفى من نقود ستمكث شهرا أو يزيد . حملت زادى وزوادى وبعض نقود ، وقلت : إذا أخذوها منى يكون ذلك زكاة وإذا بقيت أتزكى بها فالله عنده حسن الثواب ،

وانطلقت بنا الطائرة ودخلت مطار جدة وصدمتنى درجة الحرارة ودرجة تقدم التكنولوچيا فى المطار ثم بعد ذلك لم أر إلا صحراء جرداء سوداء مرتفعة ذات رائحة غريبة تمنيت أن أقابل عم عبد الصادق صانع العطور ليعطينى (زلعة) مملوءة بالعطر أضعها حول أنفى فالجبال تفح فحيحا ذا رائحة غريبة ، وتذكرت أن من صفات رسول الله (ﷺ) استخدام العطور قبل أن يذهب إلى مسجده واستخدام السواك لفمه وكان ويرتدى دائما نظيف الثياب وأجمله وقلت : ما أصدقك يا رسول الله أن تكون مثالا للإنسانية منذ أن خلقت وحتى نهاية العالم فأنت تقول للإنسان يجب أن ترتدى أجمل ملابسك وتأخذ زينتك عند كل صلاة ، وأن تتعطر وأن تبدو أنيقا منسقا جميل الوجه .. ما أحلاك .. يارسول الله وما أجملك . هبطنا إلى مكة دخلنا الحرم تلسعنى درجة الحرارة لم أعد أتحملها لم أتحمل طنين المراوح ، رددت الدعاء ، فعلت كل ما يجب عمله وأنا أدور وأهبط وأنزل إلى ماء زمزم أرتشف الماء فأشعر بالراحة نتشاجر ونختلف فنحن هكذا فى كل مكان نختلف حتى حول سريرى وأنا مريض أشعر بتعب شديد للشجار الذى دار حولى ؛ لأن الطبيب أجل عملياته الجراحية اليوم

وأصبحت أنا مصدر المعلومات الموثوق به فأنا أقيم منذ زمن طويل ، وكل يوم جمعة وبعد الصلاة يأتى المرضى وأغلبهم من إخواننا المصريين وتسرع الممرضات نحوى، من لا يعرف الإنجليزية ترجمت له ومن كان خائفا طمأنته ويقولون : لماذا أنت هكذا ؟ أقول لأننى جنس آخر ، عملياتى الجراحية أجريت لى فى مستشفى غير هذا وتكثر الأسئلة ، وصوتى لا يسعفنى ، لماذا وضعوك هكذا ؟! ولماذا هذه الأسلاك الكثيرة ؟! وهل سيفعلون هذا بنا ؟ وهل أنت متألم ؟ لماذا تبتسم ؟! أقول بعد أسبوع ستخرجون من هذا المستشفى معافين أصحاء إن شاء الله ، أفتح تسجيلاتى لكى يسمعوا القرآن الكريم ها هى ذى أول سورة «البقرة» اسمعوا أيها الإخوة لا تكونوا إلا مع الله ، «الله أكبر» انتهى الحج يا حجاج بيت الله ، سنذهب إلى مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أردد طلع البدر علينا من ثنيات الوداع يا جماله يا حلاوته يدق قلبى فرحا تفرح نفسى ياه . . أنا ذاهب إلى رسول الله فى المدينة مدخل المدينة به جبال عالية سوداء جهمة ، قالوا من هنا كانت رؤية الرسول «ﷺ» وهنا غنى الرجال والنساء والفتيات طلع البدر علينا من ثنيات الوداع ، إذن هذه ثنيات

الوداع ، لا تكونى ثنيات الوداع نحن ندخل مدينة رسول الله ، ندخل إلى قلب رسول الله نحن أبناء أمة رسول الله أتباع رسول الله ، نحن فى حمى رسول الله ، دخلنا مدينة واسعة متسعة الأرجاء قالوا نجلس حتى أذان المغرب ، الحرارة شديدة تصل إلى ما فوق الخمسين ، صحت أنجلس دون أن نستأذن من رسول الله ، قلت لرفيقى : هيا إلى رسول الله « ﷺ » لنسلم عليه ونستأذنه ثم نعود ، هكذا تكون الضيافة فنحن فى المدينة التى دعا الله سبحانه وتعالى أن يحبها كما يحبها هو ولن أطعم طعاما ولن أضع جسدى على الأرض ألا بعد أن أسلم على رسول الله ، وكما كان يفعل (كساب) فى شارع سيدى يوسف : كان دوما فى جرى مستمر يضع جلبابه بين أسنانه ويجرى خلف الحمار ليمسك به ، ثم إذا أمسكه انطلق قافزا على ظهره سعيدا مرحا كأنه يركب طائرة حربية ذاهبة لقتال . جريت حتى وقفت أمام مقام رسول الله « ﷺ » أردد هأنذا قد جئت يا رسول الله . السلام عليك يا رسول الله ، ماذا أقول بعد ذلك ؟ اختفت الكلمات كل ما حفظنى إياه الشيخ ضاع . . بعد أن أدخل من باب السلام أفعل كذا ، كل هذا ذهب ولم يبق إلا أننى فى حضرة رسول الله لأول مرة ، وأننى فرح أشد الفرح لا

أحد يستطيع أن يسابقنى وكأننى أنا الوحيد الذى يقف بن يديه وليس هناك عشرات بل مئات يقفون بجوارى والمكان يضيق بهم إنهم يرددون الأدعيات ويدعون بكل الألسن ، بكل اللغات : نحن أتباعك يا رسول الله وأنت المشفع لنا يوم القيامة ، صلى الله عليك يا رسول الله . جذبنى واحد ودفعنى بعيدا لأن صوتى كان جهيرا ، تأدب يا رجل فأنت فى حضرة رسول الله تأدب وجلست على مبعدة ، لكننى أشعر أننى لست موجودا وأننى أحلم ، أنقسم إلى اثنين : أحدهما يظل قابعا وراقدا مكانه يبحلق فى الآخرين ويسمع صوتهم ، والآخر هناك فى أماكن متعددة . أنا الآن نصفى الثانى ولكن أين النصف الأول؟ حاولت البحث عنه ، أنا لا أرى النصف الأول ، لا أرى إلا المنمنمات الخضراء الجميلة فى مسجد رسول الله ، المصابيح المزركشة من القرن الرابع الهجرى ومن الخامس والسابع ، هذا بناه السلطان (قلاوون) سلطان مصر والعرب والمسلمين ، أجلس فى الروضة الشريفة ويقال إنه إذا جاء أحد وألقى السلام على رسول الله يحييه الله ليرد السلام ، إذن فأنا رأيت رسول الله وألقيت عليه السلام ، يا فرحتى سوف أقص ذلك على أولادى ، يا الله لقد رأيت يا جدى مقام رسول الله ،

ذهبت وجئت ولم أجدك يا جدى ولم أحك لك الحكاية ، لقد حكيت لى عشرات الحكايات ، كيف كنت تشترى الخروف بعشرة مليمات والجاموسة بعشرة قروش ، وكيف كنت تقبض فى الشهر الواحد أربعة جنيهات تنفق منها على أسرتك ، وكيف كان المليم ينقسم إلى عشرة «برونزات» تشترى ببرونزة بنا وسكرا وشايا وتصنع للضيوف وتكرمهم ، . . آه يا جدى لقد جئت هنا وكل شيء بالريال ، والريال فى ذلك الوقت كان بضعة قروش ، تصور يا جدى أن الجنيه الآن يساوى ريالا ، هكذا يا جدى صار الغلاء ، آه يا جدى . . لماذا أخذتنى إلى الحديث معك وأنا بجوار رسول الله ؟ لا يا جدى لقد تعبت من الحديث عن (النحاس باشا) و(عن سعد زغلول) وعن (مصطفى كامل) وعن (أحمد عرابى) وعن (عنترة) ، لا يا جدى يكفى هذا ، يجب أن أتعلم من غيرك وذهبت إلى روما وتعلمت الإيطالية ، وتعلمت علم القيادة وأخذت درجات علمية ، ثم عدت يا جدى ورويت لأبنائى من الشباب وقصصت ودرست واشتغلت ، ولكنهم يا جدى اتهمونى بسرقة سبعة قروش ونصف بعد كل ما فعلت ، اتهمونى لأننى قلت يجب أن تؤمن بالله وكتبه ورسله وأنبيائه ، ذلك لأننى قلت إننى

عبد الله ، آه يا جدى لا تسرقنى مرة أخرى فى الحديث عن أشياء مضت ، أنا الآن فى حضرة رسول الله ، درجة الحرارة عالية والآلام فى صدرى تزداد يجب أن أتحملها يا جدى أود أن أصلى فى مسجد رسول الله فى درجة حرارة مساوية لدرجة حرارة المصلى الذى أقمته أنت على الترعة . أتذكر هذه الترعة يا جدى ؟ أتذكر تلك المصلى الصغير الذى لا يتسع إلا لثلاثة أو أربعة رجال كنت تصلى بهم العصر جماعة وأصلى خلفك ؟ حصير قديم متهالك ، ومجموعة من الأحجار تصل إلى منتصف الترعة لكى يتوضأ الرجال عليها وتجلس أنت فى صمت ومعك مسبحتك تذكر الله عليها فيأتى الرجال ، الجناينى ومصلحى وعم محمود ، وتكبر أنت الله أكبر نويت صلاة العصر ، أكبر خلفك يا جدى وأنا أرتعش من السعادة هأنذا أصلى خلف الرجال ، أنا أصلى إذا فأنا مؤمن ، ولأنى مؤمن فأنا عبد من عباد الله وأستحق ذلك ، أنا إنسان وعبد مؤمن - أنا من عبادك ومن المؤمنين بك يا الله خلقته كبشر . . أخطئ وأصيب وأنجح وأفشل ، نجحت يا جدى فى الدراسة ولكنى فشلت فى الحياة ، أهملونى هددونى بالسجن بالمعتقل طردونى كلما ذهبت إلى عمل أجيده يا جدى ويضطرون لفصلى فصلت ثلاث عشرة

مرة ياه يا جدى لقد أخذتنى مرة أخرى قلت ليكفِ علمك وتعليمك ، يكفى أنك أصبت فى بور سعيد ففصلوك مرة واحدة يا جدى فعدت إلى بلدتنا لا تخرج من البيت إلا إلى الحقل ، ومن الحقل للمسجد ، أما أنا فقد ذهبت إلى برلين وموسكو وإلى روما وإلى بلاد فرنسية وإنجليزية وتعلمت هنا وهناك وألقيت محاضرات هنا وهناك فى نيودلهى ودبى والرياض ومكة ، وفى تونس وليبيا والسودان وما أدراك ما السودان يا جدى ذهبت فى زمن القحط فى زمن الفقر الدكر يا جدى لماذا تستولى علىَّ هكذا ؟! دعنى أحكِ الحكاية ، دعنى أحك حتى أستريح . سأخبرك فى البداية بأننى فى عمرة لا تسألنى متى ؟ لا تسألنى عن عدد العمرات ، أنا أذهب كل ما اشتقت وأنا أشتاق كل يوم ، ولكن ما باليد حيلة كلما ادخرت مبلغا من المال ذهبت وأسعد بذهابى وأغضب لعودتى ، أنا الآن أنا وابنتى الصغرى وصلنا إلى المدينة بعد رحلة شاقة طويلة بالسيارة فى ذلك الطريق الضيق الذى تهدده الحوادث لا تسألنى عن التوقيت والعدد والأرقام دعنى أحكِ الحكاية كما يحلو لى .
الدم ينبثق من صدرى ، بعد يوم كامل من السفر الطويل ابنتى تجلس بالحجرة فى فندق جميل وها هو ذا التلفزيون

يعرض أشياء جميلة ، الثلاجة عامرة إن شاء الله وملابسنا فى دولاب محفوظة ، وسرائر ممدودة ، والأرض مفروشة بسجاد ناعم وكأنه فرو الإبل ، والتكييف يجعل من الحجرة ربيعا كاملا وكأنه ريف قريتنا كل شىء هنا جميل بالفندق .
تركت ابنتى وقلت لها ذاهب للسلام على رسول الله واتجهت خارجا أخذت كل الأموال التى كانت معنا لكى أغيرها إلى عملة سعودية ولأشترى أيضا حاجات الإقامة وطعاما لى ولابنتى . اتجهت نحو المسجد . قال له: يا عمر أتحبنى ؟ فقال عمر: نعم يا رسول الله . قال الرسول أكثر من نفسك ؟ صمت عمر ، فقال رسول الله « ﷺ » أنت لم تؤمن بعد يا عمر ، وبعد فترة من زمن أعاد رسول الله « ﷺ » السؤال مرة أخرى أتحبنى يا عمر ؟ قال : نعم يا رسول الله أنت بأبى وأمى يا رسول الله . قال أتحبنى أكثر من نفسك قال بعم يا رسول الله أكثر من نفسى . قال رسول الله « ﷺ » : الآن آمنت يا عمر ، فما أنا بعمر . جريت ودخلت المسجد مباشرة حيث يوجد رسول الله « ﷺ » ألقيت السلام أخذتنى رعدة ، هذه ليست أول مرة ولا ثالث مرة ولا عاشر مرة ، بل ربما هى الألف أو تزيد التى أقف فيها أمام رسول الله ، الطفل يقف بين الرجال وهم ينشدون

صلوات الله على محمد « ﷺ » وأنا أردد مثلهم ، وعينى تبكى وجسدى يرتعد ، وتقفز فى ذهنى محفظة نقودى رفعت يدى لحظة واحدة ثم أعدتها إلى جيبى ، الناس يتزاحمون ، يتلاطمون ، يتقاذفون ، الكل يندفع تجاه قبر رسول الله ، رأيتك يا رسول الله مرتين ، هل أراك مرة ثالثة ؟ هل فى العمر بقية لأن أراك . وهل أراك فى الآخرة؟ يا الله يا باسط يا عفو يا كريم يا الله يا مرسل الرسل ، رفعت يدى لحظة وخفضتها ، لم أجد النقود ، صرخت من أعماقى يا الله يا الله كن معى حتى لا أغضب ولا أحزن ولا أيئس ، كل النقود ضاعت فى لحظة ، لا تهم النقود ، هل أنا على خطأ ، خفت على نفسى من الإثم وخفت على نفسى من فعل يغضب الله ورسوله ، جاءنى رجل من هؤلاء الذين يقفون بجوار قبر رسول الله ، ينظمون سيرة الحشد القادم إلى المقصورة ، قال : أضاع منك شىء يا ولدى ، هززت رأسى ،قال عليك بالضابط ، قلت فى نفسى ، ماذا يفعل الضابط أنا ألجأ لمن هو أقوى وأكبر وأعظم من الضابط ، أنا ألجأ إلى الله . أخشى أن أخطئ أمام الرسول الكريم .
ذهبت حتى مؤخرة المسجد ، جلست وحدى ، عقلى مشتت ، جسدى يرتعد لا أدرى هل أنا حزين على المال أم

حزين على نفسى؟ أم حزين على أن ما حدث يعد أمرا يعاقبنى به الله لإثم قد ارتكبته ؟ حاولت أن أتذكر اسم الفندق ولكنى لم أستطع ، تلبسنى شىء غامض ، حيرتنى الأفكار ، لا أتذكر الشوارع ، لا أتذكر اسم الفندق الذى تركت فيه ابنتى، لا حيلة لى ، ماذا أفعل ؟ سرقت نقودى كلها وبقيت أنا وابنتى وحيدين ، ماذا نفعل ؟ كيف نأكل ونشرب ؟ كيف نفى بوعودنا ؟ ماذا سيحدث ؟ ولماذا حدث ؟ هأنذا قد أصبحت فى الإثم ، يا جدى ، كم نصحتنى دوما يجب ألا ييئس الإنسان من رحمة الله ، ويجب ألا يحزن على شىء ضاع ، كم أطعمت من رزق بيد الله ! ولكن يا جدى أنا حزين لأننى سرقت أمام رسول الله « ﷺ » أنا إذن إنسان آثم ، إنسان قد ارتكب معصية ، ظللت طوال الليل أصلى فى مكان ، وأذهب إلى مكان آخر ، أنام هنا وأرقد هنا ، وأجلس هنا يلتبسنى الخوف ، الحزن ، الضياع ولا تعرف قدماى الطريق إلى الفندق ولا يتذكر عقلى اسم الفندق الذى سكنته ، اليوم الخميس وجدت نفسى أدور فى مسجد رسول الله ، طوال الليل ، ليلة الجمعة ، حتى صلاة الجمعة ، صليت فى الشمس ، عاقبت نفسى بأن أجلس فى الشمس والحرارة هائلة والجو صيف ، عاقبت نفسى لأننى آثم ،

أبكى على الرغم من أننى لم أبك على شىء قط ضاع منى ، فقدت الكثير والكثير عندما تعاقدت على أعمالى اكتشفت بعد ذلك أن من أخذ أعمالى ظل يساومنى ويراوغنى ويتهرب منى حتى إننى لم أسأل عن حقى بعد ذلك ، تكرر هذا كثيرا ، جدى : المعرفة تأتى من الله سبحانه وتعالى ، والتجربة تعلمك أشياء لم تكن تحلم بأن تعرفها ، انتهت صلاة الجمعة . لو سمعوا قول الإمام وعلموا لما صار أمرهم هكذا ، ولكن ها هم أولاء يجلسون فى تأثر وصمت وبعضهم يبكى فى حرارة وبعضهم يجلس فى خشوع تام ثم لا شىء بعد ذلك ، ينتهى الإمام والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، الأبواب تكاد تسد بطوابير مزدحمة من الرجال كل منهم يحمل حذاءه وينصرفون بعد قليل . الشوارع بجوار المسجد مليئة بالبشر يشترون يساومون ، ويضحكون ، ويتندرون ويسألون عن أسعار العملة ، المال ضاع . أكتفى بالجلوس ، رأيت شيخى الذى كان يقف فى أول الصف عندما كنت صغيرا بذقنه البيضاء المحببة وجلبابه الواسع ، رأيته يقول للناس كلاما جميلا ، خيط من الكلمات الجميلة التى تهدى النفس ، عندما انصرف الناس من حوله اقتربت منه ، كنت أبحث عمّن أحادثه ، أقول له عن أشياء يضحك

منها ، وأقول له يا جدى بدلا من أن أحادث نفسى وأتحدث مع جدتى : أقول لها انظرى يا جدتى ها هى ذى علبة الكبريت أفتحها من هنا تدخل الذبابة ثم نفتحها من هنا تخرج ، علبة الكبريت يا جدتى هى الدنيا تنظر جدتى إلىّ فى أسى تقول يا ولدى من سيموت فى أسرتنا؟ أهز رأسى وأضحك ثم أجرى مسرعا منفلتا خائفا من نظراتها التى تفضح رغبتى فى البوح بسر ما لا أدرى هل هو سر أم أننى مفضوح ؟ هكذا كل ما أفعله يبدو على وجهى ، كلما مررت بأزمة أو قابلت مشكلة سألنى صديق ما بك ؟ ما بى يبدو واضحا غريبا إلى هذا الحد . . ذهبت إلى الرجل الأسمر ذى الجلباب الكبيرة الواسعة ، يا عبد الله لقد حدث معى كذا وقصصت بعض القصة فإذا به يخرج ريالا من جيبه ويعطيه لى ، أشحاذ أنا ؟ ما إن رأيت الريال فى يده حتى هالنى الموقف وقفت مندفعا ووضعت جلبابى بين أسنانى كما فعلت أول مرة عندما جئت للمسجد وجريت ،جريت فزعا هأنذا قد صرت شحاذا متسولا ، هأنذا يا ربى قد صرت شحاذا هل انزلقت إلى هذا المنزلق ؟ لا إله إلا الله ، وذهبت إلى رسول الله « ﷺ » ووقفت أمامه وسلمت عليه وكأننى أشتكى حالى ، صامت أنا ، قلت : لن أغادر هذا المكان

حتى أرى علامة . لقد نجح الشيطان فى أن يجعلنى أنزلق إلى الإثم فلأجلس هنا مقيدا ولن أخرج ، وانطلق بكائى شلالا يتدفق على خدى ، بكيت كما لم يبك طفل حرم أمه ، بكيت عندما ضربنى الشيخ فى الكتاب ، لسعنى لسعة كبيرة وهو يحفظنى قل هو الله أحد ، جريت منه ، هربت وأقسمت ألا أعود إلى هذا الكتاب ، أيضربنا ونحن نقول قل هو الله أحد ؟! كيف نتعلم أن الله واحد وهو يضربنا ؟! نحن عبيد هذا الواحد سواء أكنا كبارا أم أطفالا . يا رجل قبل أن تضربنى بشدة يجب أن تعرف كيف تقول كما أمرك الله ، جريت من هذا الرجل ولم أدخل الكتاب ثانية وجريت من الشيخ عبد الله عندما أظهر الريال ، يا شيخ عبد الله ؟ أقول لك حكايتى لكى تعطينى ريالا يا رجل ؟! أهذا منظر رجل شحاذ ؟! كفت دموعى ، رأيت عقلى صحوا ونفسى راضية وكأن ذلك الذى حدث لى أمس قد حدث منذ عشرين عاما أو يزيد ، مجرد ذكرى هزيلة حدثت قديما ، وإذا بالفندق أمامى والطريق إليه سهل ميسور ، وذهبت إلى غرفتى بالفندق ووجدت ابنتى لا تزال نائمة ، أخذت أنظر إليها ، قد اقتربت صلاة العصر ، ويجب ألا يفوتها أكثر من صلاة . . ، ناديت عليها ، كانت صغيرة السن واستيقظت

فقلت لها فى هدوء يا ابنتى قد حدث أمر يجب أن تعرفيه ، ليس معنا نقود ، قالت فى دهشة ، وكيف ذلك يا أبى ؟ أنا معى عشرة ريالات . قلت : إن ما معنا من نقود جئنا بها قد سرق . قالت : هذا لا يهم الثلاجة مليئة بالطعام وأنا معى عشرة ريالات ومعنا تذاكر العودة فهل نحن فى حاجة إلى نقود بعد ذلك ؟-ابتسمت ورضيت أنها راضية وغير قلقلة ماذا نحتاج ؟ الثلاجة بها أكل يكفى عشرة أيام إذا كان الأكل ثمرة واحدة وقطعة من تفاح هذا يكفى كل إفطار وكل سحور ثمرة واحدة هذا معناه أن نعيش عشرة أيام على كيلو من التمر ، وكيلو من التفاح ؛ لأن الثلاجة صغيرة لا تتحمل غير ذلك كما أننى كنت قد اشتريت لها «باكو» من البسكويت ، هذا يكفى فعلا لفتاة صغيرة طوال عشرة أيام صدقت ، يا ابنتى المال غير مهم . . كنا ضمن مجموعة كبيرة فلما جاء موعد الإفطار وكنا دوما نأكل معهم ولكن الآن ليس معنا إلا عشرة ريالات والطعام مع المجموعة يتكلف أكثر من خمسين ريالا ، ذهبنا إلى الفندق وقسمنا التفاح والبلح والتمر إلى مجموعات صغيرة لكى نأكل فقط ما يسد الرمق ، ولا نطلب حاجة من أحد . أكلنا وشبعنا وذهبنا إلى المسجد نصلى ، وتكرر هذا لمدة ثلاثة أيام فى شهر رمضان

المبارك وفى اليوم الرابع قالت ابنتى هيا يا أبى نعد الحقائب لتكون جاهزة فنحن لن نشترى شيئا ومن الممكن أن نعدها من الآن ، وتكون جاهزة ، فتحت حقيبتى ، ملابس الإحرام موجودة ، أخرجتها ، وضعت ملابس الإحرام على سريرى ، تناولت حزام الإحرام الذى اشتريته منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وحججت به وجئت به مرات ، ومرات ومرات ، إنه لا يريد أن يطوى كلما أجبرته على الطى اعتدل وكأنه ثعبان حاو هندى ، كلما وضعته رفع نفسه ، ضحكت ابنتى ، كان ذلك مسليا ، ضغطت على الحزام ارتفع ثانية حتى أصبح مواجها لوجهى ، قلت هناك شىء ما ، أخذت أدس يدى فى جيوبه أنا لا أستخدم الحزام فى حفظ النقود وجواز السفر والتذاكر وما إلى ذلك ، لقد صنعوا له جيوبا داخلية حتى لا يسرق الحجاج ومع هذا فإننى أسمع كثيرا عن السرقات ، إنهم يقصون الحزام ، يقصونه بمطواة أو خنجر يمنى ويأخذون النقود ، لا أحد يشعر لأن الطواف حول الكعبة يلهيك عما سواه ، وهم يفعلون ذلك وسمعت الكثير من الحكايات فالعذر مقبول يا شيخ ما إذا كانوا فعلا صادقين أم كاذبين ، حسنا يا ابنتى أدس يدى فى جيوب الحزام ، تصطدم يدى بأوراق وإذا بها رزمة من الدولارات تساوى

ضعف المبلغ الذى كان معى ، يا الله من أين جاءت هذه النقود ؟ من دسها فى جيب الحزام ؟ ضحكت ابنتى وقالت : إن الله سبحانه وتعالى قد رزقنا من حيث لا نحتسب ، هيا يا أبى نصلى لله شكرا وحمدا . أشارت ابنتى إلى الجراح الإنجليزى وقالت له لا تبدأ حتى أعطيك إشارة ، لم يفهم . قال الدكتور بانديا انتظر ، هذا يحدث كلما اضطررنا لإجراء جراحة ونظر إلى الطبيب الهندى بانديا وإلى ابنتى وقال : حسنا ولكنه سوف يتألم كثيرا ؛ لأنى أحتاج تركيب (أمبوب) فى الرقبة ، قال بانديا فقط انتظر حتى تعطينا ابنته الإشارة ، فقد رأيت هذا منهما كثيرا ، قال الطبيب فى سخرية بضعة كلمات حول التخلف المصرى الهندى الشرقى . . وأعطته ابنتى الإشارة وابتعدت أنا عنه لكى أغتسل فى زمزم .

الرزق ساقه الله إلينا فلنعد إلى ما كنا قد تعودناه فى كل عمارتنا وسابق زياراتنا للرسول « ﷺ » فلما سألتنا جماعتنا هل ستذهبون إلى الفندق للإفطار كالعادة ؟ قلنا لا سوف نتناول طعام الإفطار معكم الليلة وقضينا بقية الأيام سعداء بتلك النقود ، التى هبطت علينا من الله سبحانه وتعالى والرزق كله بيد الله ، كما حدث لى وجدت الرزق فيضا ،

عندما سافرت إلى المعتقل ومنعوا عنى راتبى ومكافأتى كسبت أكثر من كل ذلك لا أدرى من أين حصلت على النقود من شتى الأماكن ولم أكن فى يوم من الأيام أغنى من تلك الأيام التى قضيتها فى تلك المحنة ، وهكذا عندما جئت إلى هنا لم يكن معى من النقود ما يكفى ومع هذا لم يحدث لى أننى احتجت مالا من أحد وقضى الله سبحانه وتعالى أن أظل هكذا محافظا على كرامتى لا أطلب نقودا من أحد ، ولا أسأل أحدا ، هأنذا يا جدى قصصت لك حكايتى ، حكاية لطيفة حدثت لى وتكررت معى آلاف المرات عندما أفقد شيئا لا أبكى عليه ولكنه الإنسان ، سواء مؤمنا أو كافرا أو مشركا هو فى الوقت نفسه إنسان ، تنتابه الهواجس والعواطف والمخاوف والأحاسيس المضطربة ولكنه لا ينسى بفطرته إيمانه بالله . والسؤال يا جدى الذى حيرنى كثيرا عندما أجد الناس فى الشوارع والمقاهى وفى كل مكان يتحدثون بلسان ثم يذهبون إلى المساجد ويتحدثون بلسان أخر : جئت إليك وليس لى يا أخى إلا أنت والله - يجعلك مساويا لله الواحد الأحد - ماذا تفعل يا أخى ؟ يقول لك أهو زمن وخلاص ، أهى عيشة وخلاص ، تتردد تلك الكلمات وغيرها ، لماذا لا تعمل

جادا ؟ يقول لك هذا يكفى ؟ بنقودهم أى أننى أفعل ذلك لأنهم يعطوننى راتبا وأجرا ضئيلا ، أنا قدرت لنفسى كذا وهم يعطوننى كذا ثم أذهب إلى مكان آخر بأجر آخر ، عندما تراه خارج مكتبه وتسأله أين أنت ذاهب؟ يقول لك لصلاة الظهر أو لصلاة العصر يبقى فى المسجد ساعة أو أكثر ، وعندما تقول له لماذا لا تجلس فى مكتبك وتقضى حوائج الناس ؟ يقول لك على قدر أجرى ، أى أنه معترض على الأجر على الرزق والرزق من عند الله ، هو ليس مسئولا عن رزقه بل مسئول عن عبادة الله ، أما الرزق فيأتى من عند الله الإنسان المصرى على مر الأيام يعمل لدنياه كأنه يعمل لآخرته فهو يزرع ويحصد ويتعلم ويتزوج ويمشى ويأكل من أجل الآخرة لا الدنيا ؛ لهذا بقيت كل أعمالهم كما تزخر البرديات بالحديث عن الوفاء والحديث عن يوم القيامة والصراط المستقيم ويوم الحساب. إن المصرى القديم كان يعمل لآخرته ولا يزال يعلم أن دنياه ما هى إلا امتحان ، يجب أن يسعى جيدا لأن الإله يراه ، عند الموت . . يحاسب حسابا عسيرا ، إما أن يدخل الجنة أو يدخل النار ويخلد . ذلك الإنسان المصرى الذى برع فى الفلك والطب والعلوم والهندسة والحروب وكل مناحى

الحياة ، الحياة عنده مجرد امتحان عبادة ، العمل عبادة ، الدراسة عبادة الأكل عبادة الزواج عبادة ، كل ما يخص الحياة هو فى الوقت نفسه طريق ووسيلة إلى حياة أفضل فى الآخرة واستعمرت مصر أزمنة طويلة ، دخل الإيمان داخل القلب وبقى على الظاهر تلك القشرة التى تغلف القلب ، ولكن الآن هناك العامل الذى يتكاسل ؛ لأنه ينظر إلى نفسه لا إلى الله ، أصبح هناك الفلاح الذى يذهب إلى بلاد بعيدة من أجل لقمته وهو يعلم أنه سوف يخسر أرضه وأولاده ، التراث الإنسانى لأجدادنا لم يصل إلينا (كتاب الموتى) لا أحد يعرفه ، أقوال حور محب لا أحد يعرفها ، كل المعارف مكتوبة فقط فى حوليات البرديات أو على حوائط المعابد ، وبلغة لا نعرفها الآن ويجب أن تترجم أولا ، وبالتالى أصبحنا معزولين عن معرفة الأجداد وتلقينا العلم عن طريق الرومان وهى أسوأ الحضارات ، وعن طريق الإنجليز الذين حولوا التعليم إلى مجرد شهادة للتوظيف ، وعن طريق كل استعمار جاء ليقضى على ذات النفس المصرية المؤمنة . لهذا تفشى فينا هذا العيب القاتل الذى يعيب القدر ويسب الزمن ، يقول لك (دا زمن أخبر) ، (دار الدنيا ما تستحقش) ، (أهى عيشة والسلام)، (ساعة لقلبك

وساعة لربك) ولا أدرى كيف تكون ساعة للقلب وساعة للرب مع أن ساعة القلب لا يملكها إلا الرب! وهكذا يا جدى تحولت الأشياء إلى نقيضها وتحول الناس إلى جمع المال لذات المال وليس للطعام أو الشراب وحتى للنفقة أو لحماية الجسد والعورة بل أصبحوا يقتنون المال وكلما أصابتهم مصيبة يقولون : ليه «يا رب» . ولو تأمل أحدنا ما حدث له بعين الحكمة لوجد أنه يستحق ما حدث له وزيادة شوية ؛ لأن العلة موجودة ولكنه تغافلها ، تجد سيدة تنهش أعراض الناس ، ثم إذا حدث لها مكروه تقول نحن أناس طيبون لماذا حدث لنا هذا؟ اسألى نفسك يا سيدتى لماذا حدث هذا ؟ ورأيت بعينى رأسى هذا الرجل الذى حفر لى حفرة المحنة الأولى ، لا شماتة يا ربى ، رأيته وهو يتحول إلى شجرة زبلت ، أصبحت فى أشد الحاجة إلى نقطة ماء ولكن من أين يأتيها الماء بعد أن قطعت الأنهار عن البشر؟ رأيت بعينى رأسى الظالم الذي ظلمنى وهو يتألم ويبكى بل رأيت منتجا كان قد أخذ منى إحدى المسرحيات التى حققت نجاحا ماليا هائلا وأقبلت عليه الدنيا لكنه ضن على بمكافأتى وكذب تهربا منى فإذا به يصاب فى بيته يفقد ولديه وزوجته ، تكبد خسائر كثيرة وأيقنت أن هناك قاضيًا

عادلاً ، اخشَ الله فى نفسك ، يخشاك هو ، اعتصم بحبل الله تنجح فى الدنيا والآخرة ، والله رأيت قصصا عديدة على هذا النحو . تأمل فقط حولك ، انظر إلى نفسك ، ومن تجاربى تعلمت كل عام أجلس بمفردى أحصى بقدر استطاعة الذاكرة أن تعى كل ما فعلت فأكتب كل شىء وأحاسب نفسى وأستغفر ربى وأتوب إليه ليس هذا من باب تزكية النفس ، إنها تجارب إنسان يرقد على فراش المرض ويرقد بين يدى الله لا يريد فى أيامه الأخيرة أن يكذب ، يطلب الرحمة ويطلب الشفاء ويطلب لغيره ؛ الدواء موجود وميسور لدى الإنسان ، إذا أديت عملا فلتتمه بنجاح ، لا تنظر إلى أجرك ، هناك أناس غيرك يتقاضون أقل منك ومع هذا يعيشون فى طمأنينة ، تأمل يا أخى القرآن الكريم ولا تأخذ منه آية ثم تجلس لتفندها على كيفك ، ولكن خذ القرآن كله، والقرآن أحكامه شرعية ، فرائض فرضها الله لا حاجة لك إلى المناقشة ، يجب أن تنفذها كما هى ، القرآن به من القصص والعبر ما يجب أن تتعظ به ، وأن يكون لك هاديا ونورا ، تجد الإنسان الذى ولد بغير أب ، والإنسان الذى ولد من امرأة عجوز عاقر تجد كل أصناف ذلك فى القرآن الكريم ، وتجد كل أنواع التعذيب لمن

كفروا وجاروا ، إنها عظة وعبرة ثم هى موجهة إلى أهل الكتاب أى الذين سبقونا إلى الإيمان بالله ولكنهم نسوا الله ونسيتهم أنفسهم وأهملوا كتابه فأهملهم الكتاب وليس القرآن كتابا يشرح وفقا للنظريات العلمية ؛ لأن العلم من عند الله يهديه من يشاء يهدى العلم وفقا لدرجات تحضر الأمم ويعطى الأمة قدر حاجتها فلا تقيس المتغير بالثابت ، هل يكفى أن تقول إن نظرية خلق الذرة أو كسر الذرة موجودة فى القرآن ؟ ماذا لو حدث واستطاع العلم أن يأتى بنظرية أخرى حول تحطيم الذرة ؟ وإلغاء فكرة تحطيم الذرة هل تقول إن القرآن أصبح قديما ؟ لا يحق لك أن تفسر القرآن تفسيرا علميا أو تاريخيا أو أن تقول هذا ، والفرعون المذكور فى القرآن لا يحق لك أن تحدده برمسيس أو تحتمس أو غير ذلك من الأسماء . فرعون تعنى باللغة الهيروغليفية البيت الحاكم مثل البيت الأبيض فى أمريكا فلا يكفى أن تقول إن فرعون رمسيس السادس أو السابع أو الثانى ، هذا تأويل من عندك لا تقبله ولا يقبله القرآن ، وبه مساس بالقرآن ؛ لأن علم التاريخ مجرد علم يتطور وينكمش وينمو وتدخل فيه عدة نظريات ربما تأتى نظرية تاريخية تمحو ما قبلها فلا تفسر بالمتغير الثابت ، القرآن الثابت ، وكل الأشياء متغيرة ، الدنيا

ذاتها متغيرة ، أن تترجم الكتب عن نشأة الكون ، ويقول لك إن الله خلقها يوم كذا بالتحديد ، هذا لا يصح ، مهما حاول العلماء ، لقد قرأت أخيرا كتابا ألفه رجل روسى لم أعد أذكر اسمه وحدد كيف بدأ العالم وكيف سينتهى وكأنه قرأ علم الله ، وتدخل فى الذات الإلهية ، وكيف خلق الله العالم؟ لا ندرى ولا يدرى بذلك أحد ، والعلم عند الله ، فقط نعمة العلم يعطيها الله لبعض عباده ولكنه علم إلهى محدود بقدرة العقل البشرى ، تقدمت الممرضة ، وأزالت آلة الحقن الآلية ثم وضعت أمبوبة أخرى داخل الآلة ، وأعادتها ، شعرت بألم حاد ، قالت الممرضة فى برود : آسفة . جاء الطبيب ، نظر نحوى وقال لا بد من خلع هذا الدبوس الحديدى فى الصدر؛ لأن العظام تآكلت . . وكان لا بد من أن أتحمل . . ولا أقول آه . .

* * *



الفصل الرابع



هذا فصل جديد يسمى دشا ، والدغش لا أدرى معناه ، يمكننى إذا أعاننى الله وشفانى أن أكشف عن هذا اللفظ فى قواميس اللغة العربية ولكنه قفز إلى ذهنى ، لقد شاهدت الآن حفلا راقصا وقلت فى نفسى : كان لى أيضا بعض الدغش ، أعجبتنى الكلمة وأعجبنى تناغمها ، ولأننى أسجل كتابى هذا تسجيلا صوتيا فقد سعدت بالكلمة كل السعادة ، وأقصد بالـ (دغش) أننى لم أكن هكذا أقرأ وأتعلم وأدرس وأجلس إلى جدى وأجلس لأولادى كما صورت نفسى وكأنى قديس يتباهى بإنجازاته الرائعة فى جميع المجالات ، بل ارتكبت بالفعل بعض الدغش ، والدغش فى طفولتى كأن لا يتعدى الذهاب خلف فرقة موسيقية يصل عدد أفرادها إلى ثلاثة ، أحدهم يغنى ويدق الطبل ، والثانى معه مزمار ، والثالث معه طبل أكبر قليلا ، وكنت أذهب لأستمع إلى المواويل والحكايات وأسعد عندما أراهم وهم يقدمون فصلا مسرحيا أو تمثيليا ، كانوا يقدمون الكوميديا الارتجالية فى كل ليلة يرتجلون موضوعا ما ثم يقومون بتمثيله ويشركون الحضور فى تأدية بقية الأدوار وفى حل المشكلة

التى يطرحونها : الملك ، ووزيره ، والسياف ، وهم الثلاثة ولكن يبقى هناك الأمير أو الأميرة أو الخياط وزوجته أو من يقف بباب الأمير أو بباب الملك ، ثم تبدأ الحكاية هكذا وتتطور مع تطور ما يقوله كل منهم حسب هواه ، وكان هذا يعجبنى كثيرا ، أظل قابعا حتى يأتى هذا الممثل (قلش) وهذا هو اسمه ، قلش «قاف ، لام ، شين» قلش وهو بالنهار يعمل ماسح أحذية وبالليل مطرب فى بلدتنا ، يذهب لإحياء الأفراح والليالى الملاح وأيام العرس وأيام الطهور وكل المناسبات السعيدة ، يترك صندوق البوية ويذهب لتلميع عقولنا بغنائه وصوته العذب وقدرته الفائقة على صناعة المواويل لكى يقول لكل من يعطيه نصف قرش أبياتا من شعره المرتجل عن كرمه الحاتمى فهذا شجاع وهذا كريم وهذا ابن ناس وذاك فارس مغوار فأحببته كل الحب ، وعلى الأصل دور وكنت طبعا ألاقى الأمرين وعندما أعود فى منتصف الليل ، وكالطفل يتسلل إلى حضن جدته التى لا يسعها إلا احتماله وإخفاء سره عن الجميع ، فنحن فى بلدتنا لا تتكرر الأفراح كل ليلة وهى تعلم سر عشقى وحبى لهذا القلش فأحيانا ترسل معى عمى أحمد وأحيانا أخرى أتسلل أنا وحدى لكى تبهرنى أفعال قلش سواء غنى الموال

الذى يرتجله ، أو يرتجل مسرحية جميلة حول المال أفضل أم الصحة ؟ هل النقود من الممكن أن تكسب الإنسان الحب والاحترام ؟ هناك فرضية فكرية يلقيها على الناس ويبدأ التمثيل ، ودوما يبدأ بالملك والوزير ولذلك التمست فى هذا القلش إجابه لبعض الأسئلة التى كانت تحيرنى ، سميت هذا الباب دغشا بدلا من قلش ، وحولت الاسم إلى هذا لأننى سرت بعد ذلك فى هذا الميدان القلشى ، أو الدغشى مسافات طويلة وبعيدة . وفى مراهقتى الأولى أحببت تلك الفتاة التى قصصت قصتها وذهبت إلى دار الساحر اللئيم أو الذى يتظاهر بالصوفية وعلمت سره وقضيت أياما طويلة بجواره ، وأسمى تلك الفترة بدغش لأنى لم أر حقيقته إلا بعد مرور وقت كان قد ضاع، وصادقت رجلا كان ماسح أحذية فسول له الشيطان أن يدفعنى دفعا إلى عشق ابنته وكان هذا أمرًا عجيبًا أن يدفع إنسان كبير فتى طائشًا فى أول سن المراهقة لاحتضان ابنته! لا أدرى لماذا ؟ ولكن هذه الفتاة سرعان ما اكتشفت براءتى وعدم علمى بالحياة ، وكانت هى على دراية كافية فوالدها يبيعها لمن يدفع الثمن ، نهرتنى فى رفق ثم صارحتنى لتكشف لى أن أباها لا يريد إلا مالى . تمنيت أن أموت لأننى كنت واقعا تحت سيطرته ، وأسمى

تلك الفترة دغشا لأنها كانت دغشا والعياذ بالله ، أكرمنى الله بموت الرجل ، هذه الفترة الدغشية قادتنى أيضا إلى فترة أكثر دغاشة عندما صرت فى سن العشرين هربت إلى مجموعة من الشباب كانوا يفعلون ما يحلوا لهم ولكنى فشلت فشلا سريعا فى مجاراتهم وسبب لهم حرجا فتركونى لأننى (وش نحس) عليهم فدوما تفشل مناوراتهم بسبب وجودى معهم وصارحونى بذلك ، فإن كل الآلات التى أتوا بها لعرض الأفلام المخلة بالآداب لا تعمل طالما أنا موجود ، وإذا كانوا فى سبيلهم إلى اصطياد صيد يفشلون ، فتخلوا عن صداقتى ، ولم تبق إلا مجموعة أصدقاء صغيرة تمسكت بهم ، ولأنه لا بد من أن يكون هناك نوع من الدغش فى حياة الإنسان يجرب لونا من التمرد ، إنه مجرد إنسان تهوى نفسه أكل الزيتون والمخلل والطرشى وإلا لما صنعوا لنا هذا السردين المملح والرنجة والملوحة والشطة ، كل تلك الأكلات الضارة ولكن نأكلها على سبيل التحريش أو الدغش ، صادقت مجموعة ظللت متمسكا بها لأنهم ما كانوا ليفعلوا ما فعلت الجماعات الأخرى ، طابعهم مرح برىء يأخذ أحيانا طابعا خشنا ، وقد اتفقوا جميعا على أن كل واحد منهم يلهو فى وسط جماعته بطريقته فلا

يعارض أحدا ، من كان يريد شرابا فليشرب ، ومن كان يدخن الحشيش فليدخن ولا يعترض أحد أحدًا يجب أن يأخذ كل واحد منا مزاجه الخاص ، ومن هذه المجموعة تاجر للجمال من أصل سعودى ورجل سودانى يعمل أيضا فى تجارة الجمال ، ثم الميكانيكى (محمد الباشا) وزميل لى فى العمل ومخرج سينمائى ، ثم عم (عزمى) البقال أصدقاء متنافرون ، تاجر الجمال الذى لا يفقه شيئا إلا فى تجارته وعلى ثراء واسع ، ثم منا من يعمل بيديه كمحمد الباشا ولا يملك شيئا ، ومنا من يعمل فى الفن ، ومنا من كان يشغل منصبا إداريا عاليا وهو زميلى وأنا معهم لا شىء ، أنا فقط أتسلى بالتواجد وسطهم ، ليس لى مزاج خاص ، وكانت سهرتنا دائما ليلة الجمعة مساء كل خميس نتقابل فى مكتب زميلى فكان بمكتبه ساحة فسيحة مطلة على النيل حيث نضع شواية اللحم ، كان الميكانيكى قد قام باختراعها ليتم شى اللحم فى أسرع وقت ممكن وبدون دخان كنا نجلس فى مكان يكاد يكون منعزلا ، البيوت على بعد مئات المترات ونطل على النيل ، يبدأ اللقاء فى الخامسة تماما ؛ لأن السعودى يحب دقة المواعيد ، والسودانى يزرجن إذا تأخرنا ، وكنا عادة نحضر قبل الموعد ، تبدأ مراسم

الاحتفال بأن يخرج عم عزمى توابله ومحمصاته وتفانينه فى عمل المخللات التى يصنعها بنفسه، ثم يخرج (الوهيبى) سلة اللحم وقد أعدت بمهارة شديدة ، ويبدأ الميكانيكى فى تشغيل الشواية ليشوى اللحم، ونضع البساط على الأرض ونحن ننظر إلى النيل الجميل، ونأكل ما شاء لنا من الطعام ، يقدم لنا الماء وبعض المشروبات المثلجة الساعى الخاص بزميلنا . أحيانا نشبع من الأكل ضحكا . وأحيانا أخرى نأكل حتى لا نستطيع الضحك ، يأخذ منا هذا زمنا يتراوح من ساعتين أو ثلاث ساعات بعدها نخرج ، نركب السيارة ونذهب إلى مذبح (زينهم) ، هناك بجوار سور المذبح وقد أعدت الجلسة عبارة عن حصير مفروش عليه إخدودات قطنية ناصعة البياض يستقبلنا فيها أحد الرجال ومعه موقد فخارى عليه جمر من نار ثم يأتى بالجوزة وقد غسلت ورص حولها أكثر من خمسين حجرا من الفخار الأحمر ، فيقدم له (العبيدى) قطعة من حشيش تكاد تكون مثل كف اليد ونحن لا نتكلم؛ لأن هذا هو المزاج الخاص لعبيدى وإلا فلن يتكلم طوال الليل ، ونحن نحب كلامه؛ لهذا نجلس من حوله فى صمت شديد ، يأخذ هو فى شد الأنفاس ، كل حجر نفس واحد فتكركر الجوزة ، ثم يضع الرجل الذى جاء

خصيصا لهذا الأمر حجرا جديدًا ، وهكذا حتى تبلغ عدد الأحجار مائة فى خلال نصف ساعة ونحن صامتون أو ربما بحكم الأكلة الشهية التى أكلناها وبكثرة الضحك التى صاحبت نكات (مصطفى) ، بعدها يهب عبيدى واقفا بنا ، نتقافز نحو السيارة الكبيرة فيقودنا الوهيبى ويبدأ العبيدى فصلا فى الإفتاء فى أمور الدين والدنيا فيقول آراء غريبة لم نسمعها من قبل ، ولكنه يقولها فى جدية شديدة وفى براعة أشد حتى إننا أحيانا ننسى أنه العبيدى الجاهل أو أنه خرج توا من (مشربة الحشيش) يبهرنا العبيدى بأقواله وللغرابة أجد فى بعضها كل الصحة ! كيف تخرج الحكمة من فم هذا الرجل الذى لا يعرف القراءة والكتابة ؟! ولكن شاء الله ما شاء ونكون قد وصلنا إلى أحد الملاهى ذات المستوى الردىء أو الدرجة الثالثة فى شارع الهرم ولا نعترض؛ لأننى كما قلت إن لكل منا مزاجه الخاص ، يفعل ما شاء ونحن معه نستمتع برؤيته ، فندخل إلى الكازينو- لا أريد أن أسميه - ونجلس على مائدة بعينها فتأتى فتاة من الراقصات وتجلس بجوار العبيدى فى صمت فينفجر وجهه الأسود عن ضحكة جميلة عذبة ونرى الحب بين عينيه ويهمس فى أذنيها بكلمات لا يمكن أن تصدر من ذلك الرجل الذى كان منذ

قليل يدخن الحشيش وتجلس الفتاة بجواره فى أناة ودعة وطيبة ، ونجلس ونحن نراقب العبيدى فى جلسة الحب الولهانة ثم يمد يده فى جيبه ويعطيها رزمة نقود ، نخرج بعدها لنذهب إلى أحد المطاعم الفاخرة لنأكل مرة ثانية ويدور الحوار حرا طلقا ويأتى الفجر . . لنفترق ، وأذهب أنا إلى منزلى لكى أجلس أمام مكتبى ، رغبتى جادة فى أن أكتب عن أشياء لم يكتبها أحد من قبلى ، يدور عقلى وأدور حوله ، أقتنص فكرة ، ثم تهرب منى ، أحاول النوم ، ولكن بلا فائدة الأفكار تهاجمنى أصرخ فى رعب . . تندفع ابنتى نحوى وتدق الجرس ، يتدفق حولى الأطباء والممرضات ، أشعر أننى أذهب إلى مكان بعيد أشتاق إلى رؤية ولدى الصغير أنادى عليه عله يسمعنى محمد . . محمد . .

الألم لا يمكن تعريفه ، أنت داخل الألم وأنت الألم نفسه ، شخصه ، تحاصرك الأوجاع ، لا تقدر على النوم ، ولا على الجلوس ، ولا على الصراخ ، ولكنك لا تملك أن تصرخ ، الصراخ هنا رفاهية لا تقدر عليه ، والتألم لون من البذخ ، إنك مطحون مهروس ، لا يملك لك طب الدنيا شيئا ، بل أنت فى نظر الأطباء منبوذ موبوء . . رحمة الله واسعة ، امدد يدك يا ربى ، أعلم أنك بجوارى ، لا أملك

إلا الدعاء إليك ياه . . يجب أن نعود إلى الضحك : ويقوم الوهيبى تاجر الجمال فى هذا الفصل بأن يتظاهر بأنه باشا أو على الأقل أحد الأفنديات الكبار فيأمر الجرسون بأن يأخذ هذا ويحضر ذاك ويطلب منا أن نأكل وأن نضحك على العبيدى السودانى عندما يمسك بالشوكة والسكين ولا يستطيع الأكل بهما ، وكأننا قد صرنا أطفالا ويتولى زميلى التنكيت والتبكيت على الباشا الجديد ، وكان الوهيبى يحمل المسدس دوما ، كما يحمل من النقود ما يجعل جيوبه منتفخة ؛ لهذا يجب أن تشعر أنه يستضيفك ، ويجب أن تأكل فى أبهة وفى باشاوية وفى أرستقراطية ، ونمكث فى هذا الكازينو أكثر من ساعتين نأكل فيهما ما شاء لنا أن نأكل ، ونضحك على نكات مصطفى ، آلاف النكات وآلاف من النوادر ويتدخل السودانى منافسا يصارعه نكتة بنكتة ، وحكاية بحكاية ونضحك ، رفيقنا المخرج يضع بعض الكلمات التى تجعل من تلك الجلسة وكأنها صراع ديوك ويطلب الميكانيكى ، أن نجلس على شاطئ النيل فى بقعة نائية وعلى الأرض حتى نرى النيل والقمر ويحكى لنا . .
حكايات الميكانيكى تبدأ بعذابات شاب قد استولى عليه حب فتاة جميلة ولكن هذه الفتاة الجميلة اليتيمة الفقيرة بعد

أن يصلح من شأنها وتصير رشيقة أنيقة تملك بعض الذهب ترفض الزواج به ، وتتزوج بغيره ، ولا أدرى لماذا يقص علينا الميكانيكى هذه القصة كل سهرة ؟ وقد صدقته فى أول مرة ثم تزامل الصدق والكذب فى المرات التالية ثم بدأت أشعر أن هذه حياته بالفعل حتى ذهبت إلى بيته لأرى كيف يعيش فإذا بى أمام زوجة تبدو عاقلة ورصينة جدًا وبدينة جدًا ، ولديها عدة أطفال أكبرهم فتى على وشك الدخول فى سن الرجولة . وكنت أتساءل كيف يحكى محمد بكل هذه الحساسية تلك القصة عن الأنثى يتيمة الأبوين التى تركته لتتزوج بغيره ويهيم هو بحسرته فى الشارع ويتأملها وهى عروس جميلة تزف إلى شاب غيره على الرغم من أنه وسيم الطلعة ، جميل الصورة مقتدر لديه ورشة فنية يتباهى بها ؟! كل سهرة وكل ليلة جمعة يحكى لنا الميكانيكى هذه القصة وكأنها ترنيمة من ترانيم مقدسة لا بد من أن تحكى ولا بد من أن تروى بعد سهرة امتدت من الخامسة مساء حتى الثالثة صباحا ونحن نجلس على أرض خشنة أمام النيل فى منطقة معزولة فى مصر القديمة فإذا انتهى من الحكاية أمطروه بوابل من التبكيت والتنكيت يجعل محمد ذاته يضحك حتى يستلقى على قفاه ، أما أنا فأبدى عطفا عليه

فينظر نحوى فى أسى ويقول : أنا أكتب قصصا أفضل منك ، من صميم الواقع ليبدأ مزاج المخرج فى أن يجعل الجو مشتعلا فيقول بعض الكلمات التى تجعل (مصطفى) يقف غاضبا ثم يدفع السودانى لكى يهاجم مصطفى فإذا نجح فى أن يتناطحا استدار إلى (عزمى) الذى يظل صامتا طوال تلك الرحلة يضحك فقط ولا يشترك فى الحوار الساخن وأنا مثله ليس لنا إلا أن نشترك فى هذا الدغش ، نضحك فقط فلا نستطيع تبكيتا ولا نملك حكايات ولا نشرب إلا الشاى ، فيدفعنا المخرج إلى المشاحنة ، وعادة ما يفشل مع عزمى الذى يبدو أنه لا أحد يستطيع على الإطلاق أن يجعله غاضبا فهو الإنسان الذى لا يغضب ، وقد زرت بيته فعلمت أنه يعيش هو وزوجته وحيدين لا يأكلان إلا من طبق واحد ولا يشربان إلا من كوب واحد ويهويان تربية الحمام فكنت أذهب كل شهر لعزومة حمام مشوى ومحمر ولم أر طوال (الرحلة الدغاشية) مع تلك المجموعة هذه عزمى غاضبا ، ولا أدرى لماذا دوما نقع فى تلك الخدعة التى يتقنها رفيقنا المخرج ، ومع هذا لا نكرهه ، وفى كل مرة يغيب عنا فيها نذهب إلى بيته لكى نستدعيه لحضور الأمسية التى لا تكتمل إلا به ، استمر هذا

الدغش فترة من زمن انتهت بأمر مؤسف ، فقد كانت فرقة مسرحية تعرض مسرحية كوميدية على مسرح الجلاء وكانت ليلة الافتتاح ، وأصرت الجماعة بعد عشوة الشواء أن يغيروا من برنامج السهرة ونذهب إلى المسرح لنتفرج فذهب الوهيبى ليحجز التذاكر حتى لا يقوم المخرج أو أنا بحجزها عن طريق المنتج ببلاش ، ودفع ثمن التذاكر فى الصف الأول حيث جلسنا نرقب رفع الستار ، تأخر رفع الستار نصف ساعة ثم ساعة ونصف وانتاب الملل العبيدى وزمجر بطريقته السودانية كما تململ الوهيبى وأخذ يصيح لماذا لا ترفع الستارة احترمونا يا قوم . ذهب رفيقنا المخرج إلى الكواليس يلتمس الأسباب لتأخر رفع الستار، فأخبروه بأن وزير الداخلية فى ذلك الوقت قادم لمشاهدة العرض ، فيجب انتظاره فطاش صواب العبيدى واستشاط غيظا يؤخرون عرضا لمجرد أن شخصا ما سوف يحضر ، انكمشنا نحن ، لا يمكن مجابهة هذا (الشعراوى جمعة) نعرف من هو ، وأنا وزميلى مصطفى كنا فى ذلك التنظيم الذى يعرف قدر (شعراوى جمعة) ، وكيف يستطيع أن يمحونا من سجلات المصريين ، فجلسنا فى حالة خوف وتركنا العبيدى يصيح والوهيبى يزامله الصياح فإذا بشعراوى جمعة يدخل

ومعه رفقة كثيرون أحضر عمال المسرح مقاعد عالية ووضعوها أمامنا فحجبت عنا المسرح فإذا بعبيدى ووهيبى يخرجان مسدسيهما ويهددان بإطلاق الرصاص على كل من فى الصالة ، فإذا بالمخرج يأخذ بيدى ويد زميلى ويقول : هيا نهرب هذا سعودى وذاك سودانى لن يستطيع شعراوى جمعة أن يفعل بهما شيئا وهم فى حالة سكر ، ولكن ماذا نفعل ونحن مجرد رعايا من رعايا الدولة ، وإن التسلل الآن من المسرح لا يعد جبنا بأى حال من الأحوال بل الجنون أن نجلس حتى ينتبه الحرس إلى ما يفعله هذان المجنونان ، وكان الإظلام قد حل على صالة المسرح وبدأت الأنوار مسلطة فقط على خشبة المسرح حيث ظهرت شويكار وانفجرت الضحكات تغطى على صوت العبيدى والوهيبى فإذا بهما يضعان مسدسيهما ويجلسان فى هدوء ، وكأنهما كانا فى ترقب للحظة انطلاق ضحكات الجماهير لكى يناما فى سعادة فجلسنا نحن الثلاثة نرقب فى انتباه أية حركة تصدر منهما أو أية حركة تصدر من الصف الذى أمامنا بدون أن نلتفت إلى المسرح حتى إذا ما قارب انتهاء الفصل الأول وكنت قد حضرت بروفات المسرحية من قبل تنبهت إلى أننا يجب الخروج الآن ، وتسللنا نحو الخارج وتنفسنا الصعداء

عندما أصبحنا فى الشارع أخذ كل منا طريقه بدون وداع ولم نعد ، تفرقنا وتفرقت بنا الأيام على هذا النحو، ولم نعد نلتقى . اعترف بأننى ما استمتعت فى حياتى بقدر استمتاعى بسهرة هؤلاء ، ولكن ما باليد حيلة ، أنا لا أملك أن أقف أمام وجه التيار ، ولا أستطيع أن أدعى بطولة مزيفة فأنا أعلم من هو الشعراوى وما يمثله من قوة وبطش وجبروت فى ذلك الوقت، والرجل يقبض فى اليوم الواحد على العشرات وأنا ومصطفى نعلم هذا لأننا كنا فى تنظيمه الذى يدعى الثورية ، كنا نعلم وكنا لا نعلم ، لم نكن نعلم أننا جهلاء ، ألم أقل لكم إنه دغش . ولكن . . أشعر بالغثيان ، تقيأت هرع نحوى الطبيب باندیا ، وأقبلت مجموعة من الممرضات قالوا إن الحرارة ارتفعت هذا خطر ، شعرت أن قواى تخور ، وأننى هالك لا محالة اقتربت ابنتى من وجهى وقالت تماسك يا أبى ، أمسكت بقطعة من قماش ، ألوذ بالكعبة ، أتمسح بردائها . . أردد الله . . الله . . لا يزال فى الحديث عن دغشًا وأذكر دغش هذا هو اسم نوع من الزبادى كنا نأكله فى السعودية أو ربما يكون اسم شركة أو صاحب الشركة ولهذا لا أدرى لماذا تذكرت هذا الاسم الأليف ؟! استخدمنا دغشًا وهذا يكفى الآن وليس على المريض من

حرج . ولأننى مريض فقد زارنى الطبيب فى منتصف الليل وجلس معى قليلا وكالعادة حدثنى عن أشياء بعيدة كل البعد عن المرض ثم إذا مضى تذكرت أننى يجب أن أحاول عمل بعض الأشياء التى لا بد من انتظار الممرضة ، أو انتظار ابنتى لكى يلبوا طلباتى ، أريد شيئا ما فلا أستطيع ، المهم ألجأ إلى تسجيل روايتى الجديدة على أمل الخروج من مأزق . . الوحدة ومن الألم . وأجمل مدينة رأيتها هى مرسى مطروح وأجمل ذكرياتى فيها . . ذهبت إليها مئات المرات وفى كل مرة كنت أمكث فيها أياما طويلة وأحيانا أشهرا كاملة ، ولكن أتذكر مرتين على وجه التحديد كانا لهما نصيبا من دغش : المرة الأولى ، ولا أدرى تاريخها (فكما قلت لا أكتب تاريخا ، إننى مجرد رجل يعيش الوحدة يهلوس من أثر الكمية الكبيرة التى أتعاطاها من أدوية ، فلا يلومنى أحد بل يلوم نفسه لأنه قرأ هذا الكتاب) ، أول مرة ذهبت فيها إلى مرسى مطروح وكانت دغشا فى دغش ، عندما قابلنى بعض الأصدقاء وكنا فى سن شقاوة الفجر كما يقولون ونملك صحة وقوة وعزيمة ، أيضا وقتا نضيعه . قالوا : لماذا لا نذهب إلى مرسى مطروح ؟ قلت : لا يزال الوقت مبكرا لكى نذهب فى معسكر هناك ، قالوا بل نذهب

بمفردنا ، وكنا ما يقرب من سبعة أو ثمانية لا أذكر العدد ، شباب وشابات، أما الشباب فكانوا أصدقاء قريبين إلى قلبى وكانوا يعاملوننى باحترام شديد على أساس أننى لهم الأخ الأكبر ، وأما البنات فهم من أسرة كانت تعتبرنى فى منزلة الأخ لهن ، وتقابلنا فى النادى ، واتفقنا على أن نذهب إلى مرسى مطروح بإذن الله فى اليوم التالى بواسطة القطار الذى يأخذ يوما كاملا ونصل إلى هناك، وقد خارت قوانا وساءت ملابسنا وأخذ منا التعب كل مأخذ ؛ لأنه قطار غريب وعجيب ، هو القطار الوحيد الذاهب إلى مطروح فى ذلك الزمان فقد كانت مرسى مطروح بعيدة كل البعد عن العمران، وبعيدة كل البعد عن كافة الخدمات ولا اهتمام بها على الإطلاق ، يحكمها حاكم عسكرى يفعل بها ما يشاء ثم مجموعة من القبائل لا يهمها مرسى مطروح فى شيء ، يقيمون بعيدا عنها ، أما مرسى مطروح ذاتها فهى مدينة صغيرة يقيم بها موظفو مديرية مرسى مطروح ، والمستشفى الأميرى ومكتب البريد وبعض المخازن التجارية القليلة ، يصلها قطار واحد فى الخامسة وبها شارع واحد ممتد إلى خمسمائة متر من المحطة إلى مبنى مديرية الأمن ، والمديرية تطل على منظر بديع : من الخلف البحر الجميل

- كان فى الماضى جميلا جمال الطبيعة ذاتها - ثم مجموعة من المبانى ذات الطابق الواحد يسكنها - كما قلت - مجموعة من الموظفين ، وخلف ذلك الشارع مجموعة من الحوارى والساحات الفسيحة التى يسكن فيها مجموعة من البدو يعملون بالتجارة للمصطافين الذين يعشقون مرسى مطروح ، ويأتون إليها رغم كل الصعاب وندرة الماء ، ومرسى مطروح فى ذلك الوقت كان يجيئها الماء عن طريق ذلك القطار ، عربتان من عربات السكك الحديدية ثم يوزع الماء على الأسر وعلى المعسكرات القليلة المقامة فى الصيف بالقطارة ، أنت تأخذ كمية من الماء تكفى فقط لشربك أو لعمل الطعام أما بقية احتياجاتك من الماء فهو ماء آخر يسمى بالماء الرومانى ثم عندك البحر كله وبه متسع لكى تستحم أو تشرب منه إذا لم تعجبك هذه المعيشة ، الصحف والمجلات لا تصل أحيانا إلا فى هذا القطار ، أى: هذا القطار القادم من الإسكندرية ويحمل الركاب والزاد والصحف والمجلات والبريد والماء والطعام ، هذه هى مرسى مطروح، ثم ثلاثة معسكرات وقد وضعت بنظام جميل وخيام منسقة لطيفة أكثرها جمالا معسكر يبدو قبيحا بخيامه الصغيرة جدا به عدد كبير من الطلاب ويأخذ مساحة

شاسعة من الأرض، ثم معسكر آخر جلس على استيحاء
بجوار المعسكر الكبير ، ومرسى مطروح بها من الأماكن
ما يمكن أن تقضى يوما كاملا فى كل منطقة كأنك ذهبت إلى
مصيف مختلف ، منطقة الميناء عميقة المياه زرقاء اللون
يسبح فيها من يجيد السباحة ويهوى المغامرة ، وأحيانا ترسو
بها سفينة صغيرة يقال إنها جاءت للصيد ونعبر منطقة الميناء
بمراكب شراعية صغيرة ، كان هذا الميناء يحوى عشرة
مراكب صغيرة تعمل بالشراع الأبيض ، تلك المراكب تأتى
فقط فى الصيف من الإسكندرية وتقوم بنقل راغبى عبور
منطقة الميناء وهو ملاصق للمدينة ولا يبعد عنها كثيرا ،
فأنت فى مرسى مطروح تعتمد على قدميك أو تركب عربة
من عربات الكارو الصغيرة جدا ويقودها حمار هزيل وصبى
يضرب الحمار حتى إنك تجد نفسك مضطرا إلى الهروب
منها والسير على الأقدام. تلك العربة المنتشرة فى مرسى
مطروح والتى يركبها البنات والسيدات ويجدن فى ذلك متعة
فهى لا تسير ولكنها أيضا ليست واقفة على كل حال ، يركبن
تلك العربات الصغيرة ، و(الكارتة) تستخدم لنقل الركاب
ويحاول كل سائق أن يزينها بزركشة بدوية تبدو من بعد كأنها
جميلة ، نركب المراكب الشراعية ، لنعبر مضيقا صغيرا إلى

منطقة جميلة جدا تسمى منطقة (روميل) وهو ذلك الخندق الذى حفره جنود روميل خلال الحرب ، وهى منطقة شاسعة بها رمال ناعمة وصخور ناتئة ، ثم بحر جميل رائع يتدرج من زرقة خفيفة حتى الزرقة الثقيلة أى أنك من الممكن أن تسبح فيه مسافة طويلة دون أن تضطر لأن تغوص أو تشعر بالخوف ، فكان هذا البلاج أو تلك المنطقة آمنة جدا ، وكنا فى ذلك الوقت لا نجد إلا عشرة رواد على الأكثر منتشرين على البلاج الذى يتسع لأكثر من عشرين ألفًا من المصطافين، وقد ذهبت آخر مرة فوجدته مكتظا وكأنه تحول إلى بلاج شعبى يئز فيه وابور الجاز وحلل المحشى ، وتفوح رائحة الطعام المطبوخ ، وسيدات يأكلن ، ورجال يدخن الجوزة ، ويشربن الشاى ، وأطفال يلهون ويتقاذفون بالطوب والزلط ، رأيت المنطقة على هذا النحو آخر مرة زرت فيها مرسى مطروح ، أما فى الرحلة الدغشية فقد كان البلاج به سبعة أفراد على الأكثر، فى كل مرة ذهبنا إليه وليس معهم شمسية ولا خيمة ولا وابور الجاز ولا حلة محشى ، كانوا جميعا يرتدون المايوه ويسبحون للمسافات الطويلة ، ثم العودة إلى الراحة، ثم بعد ذلك يعودون إلى السباحة ، وهكذا فكنا نذهب إلى روميل سباحة من منطقة

الميناء ونظل نلعب ونصعد إلى الجبل ثم نجرى حتى نصل إلى البحر ونسبح حتى نعود إلى حيث كنا ، اتفقنا نحن السبعة أو الثمانية على أن نسافر إلى مرسى مطروح وجمعنا بعض الأدوات القليلة التى يمكننا بها إقامة معسكر فى أية منطقة ، وسافرنا فى ذلك القطار توفيرا للنفقات . وصلنا إلى مرسى مطروح فى الخامسة مساء كالعادة ومشينا فى الشارع وكان أصحاب بعض المحلات المقامة على جانبى الشارع يعرفوننى بالاسم ويسألون ، هل جئت لإقامة معسكر ؟ وقد كنت أقوم بإنشاء معسكرات الشباب فى كل عام ، فكان هذا معناه الرزق لكل المدينة لأن معسكراتى من تلك المعسكرات الكبيرة العدد التى تحتاج إلى كل شىء ، الطعام وما يحوى من خضار وفاكهة ولحم ودجاج وسمك ومشتروات مختلفة تجلب من هذه المحلات ، ولهذا فهم يرحبون ، ولكن هذه المرة كنا سبعة وكل منا يحمل على ظهره جزءا من متاعنا ، ويجب أن نقيم فى منطقة الميناء ؛ لأنها منطقة فسيحة بالإضافة إلى أنها تعد مركزا جميلا ننطلق منها إلى بقية المناطق ، فذهبنا إلى هناك واكتشفنا أن المحافظة أقامت لنفسها معسكرا فى تلك المنطقة التى كنا قد عزمنا على الإقامة فيها ؛ فالأرض فى مرسى مطروح فى

ذلك الوقت لم تكن ملكا لأحد بل كانت مشاعة ، فوجدنا ذلك المعسكر ووجدنا له بوابة ودورة مياه وكأنه قد انبعث انبعاثا فى تلك المنطقة يجاوره منطقة خالية أقمنا فيها خيمتين صغيرتين إحداهما للشباب والثانية للفتيات ، ثم أقمنا منطقة فاصلة بين الخيمتين ووضعنا فيها بعض الأدوات التى يمكن أن نصنع بها الطعام ، فعلنا هذا ثم بدأنا نكتشف المنطقة ودخلنا معسكر العائلات وما كدت أدخل حتى عرفنى قائده فرحب بى وطلب منى أن أنتقل بزملائى وأصدقائى للانضمام إلى معسكره ومعاونته على الإشراف على المعسكر فقلت إننى فى إجازة ولا أريد أن أمارس سلطة تأخذنى من راحتى ، فقال أنت وما شئت ولكن يجب أن تأتى إلى هنا وقتما تشاء ، وأن تستخدم مرافق المعسكر ، وأخذت مجموعتى ورفاقى ودخلنا معسكر العائلات وغنينا (تن تن كرڤان ، الليلة رايحين ننام ، وبكرة ، هاناخد زكام) ، وردد خلفى المعسكر جميعه ، وإذا بتلك الأغنية العجيبة التى ألفتها من وحى لحظة رؤيتى لخيام معسكر العائلات أصبحت هى شعار المعسكر وبعد عدة أيام ظهر أن لى شعبية هائلة وإن كانت شعبية من لون جديد ، فلم أكن قائدا ولا مشرفا بل مجرد شاب يلهو ومعه مجموعة مثله يلهون طول

الليل وطول النهار ، يأكلون حيث يجدون الطعام ، كنا منذ الفجر نذهب إلى الميناء وهو - كما قلت مياهه عميقة جدا ، ونقفز من الميناء إلى داخل البحر حيث الماء الأزرق والأسود ونتصايح مثل الأطفال قد خلى لهم المكان حتى إذا جاء الصباح وارتدينا ملابسنا ، وذهبنا إلى معسكر العائلات وتكون كل عائلة صنعت لنفسها إفطارا شهيا وقد كان المعسكر يضمن لك الإقامة فقط نظير مبلغ زهيد من المال ولكن الطعام توفره كل عائلة ، وكنا نذهب وقت الإفطار ، ونأكل دون حرج ، وندفع الثمن إضحاك هؤلاء الذين صنعوا الطعام ، ولا نقيم فى مكان واحد فإذا ما شربنا الشاى فى خيمة نذهب إلى خيمة أخرى ، هذا بسكويت فلنأخذ منه قطعة من كل صنف ، وهذا فول مدمس حتى إذا ما شبعنا من الطعام الذى نتناوله مع كل أسرة ترحب بنا مع عاصفة من الضحك ومن الأناشيد الهزلية نمضى وهم يحاولون الإمساك بنا حتى نذهب معهم إلى الشاطئ ونعتذر . وفى أحد الأيام لجأ إلينا صاحب فندق يسأل هل لديكم من يستطيع إصلاح مواتير المياه والسخانات المعطلة ؟ وكان معنا أحد الأصدقاء مهندسا يعمل فى هذا المجال فقال الشاب فى حياء نعم يا سيدى واذهب أنت الآن حتى نتحدث

مع الباش مهندس ، ثم قال بعد أن انصرف صاحب الفندق ، هيا نذهب معا ، فقلت كيف ؟ قال إذا ذهبت أنا وحدى فإن أجرى سيكون قليلا ولأن منظرى مجرد ميكانيكى أما إذا ذهبت أنت ومعك المجموعة وأخذنا نناديك يا باش مهندس ، ونحاول أن نكون معاونين لك وسأقوم أنا بالإصلاح فى الحال وفقا لإرشاداتك فقلت أنا لا أفهم فى المواتير ولا السخانات قال يكفى أن تشير ، أن تصدر الأوامر وإذا أمكن أن تصفعنى صفعا رقيقا ، وقلت له وماذا نأخذ ؟ قال نأخذ أجرا معقولا ونأكل أكلة شهية بدلا من ذلك الطعام الردىء الذى تعودنا عليه وذهبنا إلى الفندق فأشار الميكانيكى نحوى وقال سيقوم الباش مهندس بالكشف والمعاينة وسنحتاج إلى قطع الغيار نأتى بها من الإسكندرية فظهر الحزن والقلق على وجه صاحب الفندق فكيف له أن يذهب إلى الإسكندرية ، وسيأخذ منه هذا يوما فى الذهاب ويوما فى العودة ، ثم يوما فى شراء قطعة الغيار وبهذا يكون فقد كل زبائنه ، وشمر الميكانيكى عن سواعده وبدأ فى إصلاح الآلات المعطلة ونحن نعاونه أنا ألقى الإرشادات بينما يقوم زميلنا الميكانيكى بالعمل واستطاع أن يصلح الملف ويصيح صاحب الفندق ويهلل لأن الماء ملأ

الخزانات وامتلأت الغرف بالصياح فقد عمت الفرحة نزلاء هذا الفندق الأنيق الذى يضم أغنياء من أنحاء العالم وأحاطوا بنا يهنئون ، ثم بدأنا فى إصلاح الثلاجات وكان زميلنا الميكانيكى قد تعب (وأنا زودتها حبتين) أتدخل أحيانا على الرغم من عدم فهمى لما يقوم به ، لهذا وجدته يصيح فى صاحب الفندق يا خواجة نحن لم نأكل منذ الصباح وأنت لا تستحى فقال حالا . . وجلسنا حول مائدة عامرة بأشهى الأطعمة ونحن ننظر إلى البحر ، وكنا دوما نذهب إلى هناك ونجلس على الرمال دون مقاعد ودون طعام فإذا بنا اليوم نجلس كما اشتهينا أن نفعل من قبل وكما رأينا الأجانب يجلسون على مقاعد خضراء نظيفة وأمامنا مائدة عامرة بما لذ وطاب من أكل قد حرمنا منه منذ أن جئنا إلى هنا ، وقد كانت تلك (الغدوة) رائعة بالفعل أعطتنا مزيدا من القوة وشربنا الشاى والليمون وكان صاحب الفندق يأتى مهرولا ليحضر لنا أكوابا من الليمون ثم القهوة وسلال الفاكهة نظيفة وزميلنا الميكانيكى منهمكا فى إصلاح الثلاجات وأكتفى أنا بإلقاء التعليمات حتى انتهينا أو انتهى زميلنا الميكانيكى من عمله وجاء صاحب الفندق ، ليعطينا أجرنا ، فنظرت إلى أصحابى وقلت نحن لسنا فى حاجة إلى نقود قال صاحب

الفندق أعلم أنها نقود قليلة ولكنى أرجو أن تقبلها وأخدتها فقال ولن تذهبوا إلا بعد أن تغتسلوا وتجلسوا معنا فى كازينو الفندق لتشاهدوا برنامجا حافلا كنت قد نظمته هذه الليلة والعشاء على نفقة الفندق . فذهبنا إلى إحدى الغرف التى خصصت لنا وبالفعل قمنا بالاستحمام لأول مرة منذ أن جئنا إلى مرسى مطروح بمياه حلوة أقصد إنها ليست مياه البحر، وكنا دوما نستخدم البحر فى أشياء كثيرة لا داعى لذكرها ، اغتسلنا هذه المرة بماء عذب وشربنا من الثلاجة عندما عدنا إلى الكازينو وكان فى مكان الفندق ، ورأينا العجب العجاب ، فقد رأينا مكانا فسيحا جميلا مزركشا ورأينا فرقة موسيقا جاءت من اليونان وكانت أول مرة نسمع فيها موسيقا صاخبة كانت بدعة فى ذلك الوقت ولم تكن تعرف فى مصر إلا فى أماكن معينة ومحددة لا يدخلها إلا الأجانب فقد كنا فى زمن الأجانب هذا المكان لا يدخله إلا الأجانب ، وغير مسموح بدخول المصريين (فى الإسكندرية أيضا فندق فى ميدان محطة الرمل لا يدخله إلا الأجانب ، وبالعجمى فندق خصص للروس) وذهبنا إلى الكازينو وكنا فيما يبدو أول مجموعة من المصريين يدخلون هذا المكان ، ورأينا النساء فى ملابس السهرة كما نشاهدهن فى الأفلام فالظهر عار

والصدر إلى منتصفه أيضا عار ، والرجال يرتدون ملابس مثل ملابس ، باشاوات زمان ، والموائد نظيفة ، والورود منتشرة فى كل مكان والجرسونات يقدمون المشروبات المثلجة والمشروبات التى لا تعرف لها اسمًا وتقبع الفرقة فى أقصى الفندق تعزف لحنا هادئا جميلا حتى إننى عندما جلست بعض الوقت رغبت فى النوم من هدوء الموسيقى وحلاوتها وكان هذا موعد بدء تناول العشاء . والعشاء فى هذا الكازينو ليس مثل ذلك العشاء الذى تعودنا تناوله سواء فى معسكرنا الهزيل أو فى بيوتنا ، فنحن نضع الطعام ثم نبدأ باسم الله فى ابتلاعه ، هذا هو طبق الرز وعليه طبق السبانخ . . أو الملوخية أو أى لون من ألوان الخضراوات المطبوخة وتطبخ الخضراوات فى مصرنا العزيزة كلها بطريقة مشابهة ، بصل محمر ثم عصير الطماطم ثم تضع أى شىء أخر ، البسلة مثل الكوسة مثل الفول المدمس مثل أى شىء ثم يأخذ فى الغليان ثم يصبح طبيخا ونضع الطبيخ على الأرز ثم قطعة اللحم فوقهما ونأكل بالملعقة طيخ طاخ حتى تمتلئ بطوننا ولا يستغرق هذا منا إلا خمس دقائق أو نحوها وفقا لقدرتك على الابتلاع وليس على المضغ ونجلس إلى موائدنا فترة قصيرة وكأننا نكره الجلوس إلى موائد الطعام ، ولا يتحادث

بعضنا إلى بعض كما نرى ذلك الآن فى التلفزيون والذى يحدث دوما أننا نلتهم الطعام وإذا أصرت أمهاتنا على أن نأكل سلطة خضراء نضعها فوق هذا كله فيصبح الطبق (أمريكانى) ولكن الأمر يختلف ، رأينا الجرسون يقدم لنا الطعام بالقطارة وهو مقدار محدد بأنواع مختلفة هذا مثلث وذاك مربع وهاك مستدير ، أخذ كل منا قطعة من خبز اختفى الخبز من مائدتنا ، وجاء الجرسون فإذا به يضع قطعا صغيرة من الزبد والجبن ، قطعا صغيرة تافهة ، ولما مضى قفزت أيدينا فجأة إلى الزبد والجبن فلما عاد الجرسون لم يجد خبزا ولا زبدا ونظرنا فإذا برجل مجاور يأخذ قطعة صغيرة من خبز يضع عليها قطعة صغيرة من الزبد ويأكلها بتلذذ واستمتاع ثم يرتشف رشفة صغيرة من كوب النبيذ أمامه والموسيقى تعزف ، فقلت لأصدقائى يجب أن نغير من عاداتنا أو على الأقل هذه الليلة حتى نشعر بالمتعة ، ولأنى صاحب الكلمة لدى المجموعة ، قالوا نعم ، سنفعل كما تفعل أنت . أمرت الرجل بأن يأتى إلينا بخبز جديد وزبد فأحضر لنا خبزا مقددا ساخنا وأخر باردا ، وكثيرا من الزبد وكثيرا من الشوربة وقد أحس هذا الجرسون بأننا قوم غير القوم وأننا على الأقل مثله ، مصريون ، فأشفق علينا

وأحضر لنا المزيد من الخبز والزبد فأخذت أنا أفعل كما يفعلون ، أخذت قطعة صغيرة وجرفت قطعة زبد بسكين ووضعتها برفق على قطعة الخبز هكذا ، ثم وضعتها برفق فى فمى وأخذت أمضغها فى تلذذ فلما جاء إلينا الجرسون بالنبيذ قلنا لم نتعود شربه ، طلبنا منه أن يأتينا بشراب المانجو أو أى شراب أخر حلال فأتى إلينا الرجل بعصير الليمون وأخذنا نرتشف رشفة من عصير الليمون ثم قطعة من خبز عليها قطعة صغيرة من الزبد ونأكل ثم نشرب ، يفعل أصدقائى كما أفعل مثل جارى ، أخذ منا هذا ساعة ، ولم نأكل من الخبز والزبد إلا ربع الكمية لأننا كنا نقلد الأجانب الذين يتحدثون بجوارنا بلغات لا نفهمها غير الإنجليزية ، بالطبع فقد كنا نتحدث نحن أيضا بالإنجليزية ، الإنجليزية المدرسية التى تبدو كأنها نقر فراخ أو نعكشة من نعكشات بدوى يتحدث بالفصحى ، ثم جاء موعد الطبق الأول أو هكذا استنجت ، فقد أزال الرجل ما على المائدة من أدوات وطعام وجاء إلينا بطبق كبير ثم بأدوات مائدة أخرى ، ثم جاء بمجموعة أطباق صغيرة وضعها متناثرة فوق مائدتنا ، وفعل ذلك لبقية الموائد وبدأت الموسيقى أكثر سرعة نظرنا حولنا فإذا بقية الموائد تأخذ قطعا صغيرة من طماطم وقطعا

صغيرة من الطحينة مثلا هكذا واستنتجنا أن هذه هى السلاطة كما كنا نأكلها فى مطعم الخواجة (مترى) عاشق مرسى مطروح الذى أقام فيها ما يقرب من خمسين عاما ، يصنع المكرونة فى مطعم منفرد بجوار البحر وفوقه منزله ومعه زوجته ، ونذهب إليه لأن طعامه جميل ولذيذ وأيضا رخيص الثمن ويقدم لنا طبقا من المكرونة ومعه أطباق صغيرة من الطحينة أو بعض المخللات علنا نفعل مثل ما يفعل الآخرون ، قطعة صغيرة من الطماطم أو قطعة صغيرة من طبق الطحينة فإذا بالجرسون يقدم لنا قطعة كبيرة من اللحم مثل رغيف الخبز . أخذ جارى سكينا وشوكا وأخذ يأكل على مهل قطعة قطعة يمضغها على مهل وقد تغير لون النبيذ من لون وردى إلى لون غامق ، فأتى الجرسون ، استبدل بعصير الليمون عصيرًا آخر ، وبدأت الموسيقى تبدو أكثر عنفا ، ونحن نريد أن نلتهم قطعة اللحم بسرعة لأنها كانت بالفعل ذات مذاق لم نذقه من قبل ، كنا فى سن الشباب المبكر ، لا نريد أن نجلس هكذا مثل التماثيل يمضغون الطعام فى عدة ساعات . حاولت أن أقوم بالتجربة إلى أقصاها أو إلى مداها وفى جيوبنا النقود الكثيرة وهذا الطعام لن ندفع ثمنه ، فلنأخذ التجربة إلى أخرها ولتكن دغشا فى

دغش ، فإذا برجل وامرأة يذهبان إلى حيث كانت الموسيقى ويرقصان ، أخيرا رأيت الرقص أمام عينى مباشرة، لم يكن فى السينما ، ولم يكن هذا مجرد خيال إنما هو واقع أمامى الرجل يحتضن المرأة بقوة ويضع يده حول خصرها وهى تكاد تنام على كتفه والموسيقى تعزف ، زوج ثانٍ ثم زوج ثالث، وامتلأت المساحة المخصصة للرقص بهذا الحشد الكبير ونحن نرقب الحلبة كما نرقب الأطعمة هكذا وكأنهم يأكلون دوما أما نحن فجلسنا فى دهشة ، ريفيون بسطاء سذج على الرغم من أن معظمنا تربى فى المدينة وعاش بها وذهب إلى السينما منذ صغره فقال صديقى الميكانيكى : هل يمكننا أن نفعل مثلهم ؟ فقلت له انتظر حتى نرى ما نستطيع أن نفعله ونقلد غيرنا ، أما هذا الحدث الذى يحدث أمامنا فأنا لا أستطيع مثلا أن آخذ (الحصان) الفتاة التى كنا نسميها الحصان لكى تنام على كتفى ، فأنا لا أتحملها وربما سقطت من ثقلها وتضاحكنا . وسرعان ما توقفت الموسيقى وعاد الراقصون والراقصات إلى موائدهم وعادوا إلى الأكل بالطريقة الهادئة البطيئة نفسها، وكنا قد انتهينا نحن من التهام قطعة اللحم ولم نصبر قليلا على تلك الطريقة البطيئة التى تأخذ اللحمة قطعة قطعة ،

وأمسكنا بالسكين وأخذنا نأكل ما استطعنا أكله كما كنا نفعل دوما فإذا بالأطباق أمامنا خالية بيضاء من غير سوء ، ورفعها الجرسون وبدأ يأتى بطبق آخر فإذا به أرز وبجواره مجموعة من الخضراوات التى تبدو جميلة المنظر منسقة الصنع ، وكان أغلبنا قد شبع فقد التهم الكثير من العيش والزبد والكثير من السلاطة وقطعة اللحم الكبيرة ، ولكنا بدأنا فى أكل الأرز ونحن نحب أكله دوما وخاصة عندما يبدو وكأنه قد طبخ بإشراف أخصائى كبير ، وقد أخذنا فى التهام الأرز بالملعقة ويا للهول نظرت إلى جارى فإذا به يأكل بالشوكة اندهشت كيف تأكل الأرز بالشوكة ؟ لا بد من أن نكتفى نحن بأكله بالملعقة حتى لا يتساقط على ملابسنا ، الموسيقى ارتفعت فجأة ، وكأن عفريتا من الجن قد بدأ يعزف ، طاخ طيخ ، فرأينا شابا وشابة يخرجان من بين صفوف المشاهدين ويرقصان رقصا عفريتيا وهى تفعل ما يحلو لها وهو يفعل ما يحلو له دون أن يلتصقا أو يتعانقا أو يضع يده حولها وفرحنا بهذا فرحا شديدا، أسعدنا هذا - إلى حد كبير - وقلنا نجرب ، بدأنا نتشاور أنت يا على ؟ قال على : وكيف أفعل ذلك ؟ هذا أمر غريب ، أنت يا أحمد : قال أحمد لا . . . والله لا أفعله ، أنت يا إسماعيل أنت أكبرنا سنا ،

وأنت من الأسرة المالكة إنك كنت فى زمن عاشت أمك أميرة مثلا ، وتعرف هذا عنًا ، قال كيف أدور فى وسط هذا الحشد وأرقص كمجنون ، إنه زار ، وقالت الفتاة الحصان بصراحة أود أن أفعل هذا من صميم قلبى ولكن الخجل يتملكنى ، فقلت لها هيا بنا ، هيا لنجرب ، بدأت أزحف إلى حلقة الرقص وأعترف الآن بأننى كنت أرتعش أحسست أن فروة رأسى قد التهبت وأن شعرى بدأ يتساقط ، وأسنانى تصتك ، وترتعد يداى وكأننى لست متجها للرقص بل متجها إلى الذبح، وقفنا أنا وهى وبدأنا نتحرك حركة بطيئة (هوجاء) لا معنى لها وأحاول أنا أن أسيطر على نفسى وأن أستمع إلى دقات الطبل مثلا فأفعل ما يفعل أهل القرى فى رقص الأفراح ، والفتاة تحاول وبعد لحظات قليلة بدأنا بالفعل نندمج ونشعر بالموسيقى تدخل أعماقنا ونتجاوب معهم ، ونرقص ونشعر بلذة حقيقية وسعادة وتنتشى أجسادنا بالفرحة وشعرت أننى أفعل شيئا مهمًا جدا ، وأننى سعيد رقصت بطريقتى ، وبالطريقة التى هدانى إليها النغم الصادر من الفرقة الموسيقية حتى انتهت القطعة الموسيقية وكفت وصفقنا جميعا ، وذهب كل منا إلى مائدته وأخذت أنا الفتاة الحصان إلى مائدتنا والمجموعة من حولى تكاد تزغرد من

الفرح أن اثنين منهما قد فعلا ما لا يمكن فعله فى جرأة شديدة ، سألنا عن رأيهم فيما فعلنا ؟ قالوا كنتم أفضل الراقصين ، وهكذا قالوا فقلت حسنا فلنتشجع جميعا ولنفعل فى المرة القادمة معا ما يفعل هؤلاء ، نجرب هذا ثم نقول إذا كان هذا خطأ أم لا ، بدأت الرقصة الثانية ووقفنا جميعا وذهبنا نحن السبعة إلى حلقة الرقص وبدأنا نمارس لونا من ألوان الرقصات التى هـى ليست من الرقص الغربى ولا الرقص الشرقى ولا يحزنون ، إنما كنا سعداء حتى إذا ما انتهت الرقصة الثالثة عدنا فوجدنا أطباقنا قد اختفت وقد جاء صنف ثالث بأطباق أشهى وألذ وبطريقة جميلة فالتهمنا ما على المائدة دفعة واحدة دون النظر إلى مراعاة تقليد الآخرين فقد شعرنا بالجوع بعد تلك الرقصات الهوجاء التى لا يمكن أن تعرفها تعريفا سليما وتقول إن لها قواعد ، إذ بالمغنى يغنى أغنية يونانية فتخرج فتاة من بين الصفوف وترقص بطريقة عجيبة منسقة فإذا برجل من بين الصفوف يخرج ويحطم طبقين عند قدميها وبالطبع صاحت الفتيات من مجموعتنا يا أخى خسارة فعلا خسارة سيحطم طبقين سيكلفان الفندق كثيرا من المال فإذا بالثالث يحطم أربعة وبخامس يحطم سبعة وبغيره يحطم عشرين ، وإذا بفتيات

كثيرات يظهرن على المسرح ولكل منهن صديق لها أو كل رجل يخرج ويحطم أمام الفتاة التى ترقص مجموعة من الأطباق كانت معدة خصيصا فى ركن من أركان الصالة لهذا الغرض . آسف جاءت الممرضة وقالت : لقد نفد الدم فى الكيس هل تشربه ؟ ضحكت ، جاءت بكيس دم آخر وظلت حتى بدأت قطراته تتدفق ، كنت أتذكر حفلة الفندق الكبير فى مرسى مطروح ليلة الكازينو . . . رأينا حلقة كبيرة قد اكتملت من الرجال والنساء والفتيات وأخذن يرقصن رقصة يونانية جميلة سريعة والأرجل تتقدم ثم تتقاذف ثم تتلوى هكذا بنظام بديع أعجبنا كثيرا وشعرنا بسعادة غامرة ، ولكنا لم نستطع مشاركتهم فى تلك الرقصة التى تستلزم تدريبا عاليا بالتأكيد وقد رأيت هذه ذات مرة فى أحد الأفلام فأعجبتنى وتمنيت أن أرقصها بفردى فى غرفتى ، حاولت ، ولكنى لم أستطع ، فجلسنا نشاهد ونسعد حتى إذا ما انتهوا من رقصهم اليونانى بدأت الموسيقى مرة أخرى لتعزف شيئا بطيئا وبدأ السيدات والرجال فى الالتصاق وكنا قد انتهينا من الطعام والشراب وبدأ النوم يداعب جفوننا فقد تعبنا اليوم كله ، فلما عدنا إلى خيامنا الفقيرة البسيطة وكنا ننام على الأرض مباشرة ، نعد بعض الرمال ثم ننام على الأرض مباشرة

لا يحجز عنا هواء الليل إلا خيمة رقيقة بسيطة الصنع بسيطة الإقامة فلما ذهبنا إلى هناك رحنا فى نوم عميق حتى إذا جاء الفجر صحونا كما تعودنا ، حاولت أن أحاسب نفسى على الخطايا التى ارتكبتها ، لم أستطع حصرها ، هالنى أنها كثيرة ولكن الله غفور رحيم ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم . جاءت الممرضة لاحظت أن تدفق الدم يبدو سريعا حاولت ضبطه ، أسرع إليها ممرض آخر ، وكان لا بد من أن يغيروا (الكانة) المغروزة فى عرق الرقبة ، تصاعد الألم إلى دماغى ، صرخت ، أسرع الطبيب ليرى ، أعادوا فتح الجرح فى الرقبة لوضع (الكانة) الجديدة . . ولكن الألم لم يذهب وأحلامى هى فقط التى تبخرت . .

نظرنا إلى البحر القريب منا ، شديد الظلمة عميق المياه ، ونحن نتساءل هل كان بالأمس حلما أم حقيقة ؟ لم نتحادث ولم نتبادل ذكريات ذلك الأمس الجميل ، عدنا وانطلقنا وكأن شيئا لم يكن وتشاجرنا كالعادة حول من سيطهو طعام الغذاء (بطاطس بالبصل توضع فى إناء فخارى نصنعه من بعض الأحجار ونشعل بعض الحطب الجاف الذى نجمعه من حول الخيمة) ، أحببت مرسى مطروح ، زرتها فى الخمسينيات وفى الستينيات وفى السبعينيات وفى

الثمانينيات وأيضا فى التسعينيات ، اختلفت اختلافا كبيرا .
كنا نشترى صفيحة المياه العذبة بعشرة قروش ونظل عليها حافظين لمدة أسبوع كامل ، وكانت العديد من القرى السياحية والعديد من الشقق السكنية والعديد من البشر يتزاحمون ويتقاتلون على نقطة مياه صافية على شواطئ مرسى مطروح الممتد لأكثر من عشرين كيلو مترا ، عزبة حشيش زرتها عندما تزوجت أول مرة ، وكنا نذهب إليها بالعربات الخاصة لكى ننطلق فى نزهة برية حتى نصل إلى البحر ، وزرتها ومعى زوجتى الثانية ولفيف من الأصدقاء ، ونحن عائدون انفجرت إطارات السيارة الأربعة ووقفت أنا وهى حائرين ماذا نفعل ؟ وضحكنا وظللنا نضحك حتى جاءت سيارة وحملتنا إلى مرسى مطروح وهناك حاولنا شراء إطارات جديدة لنعود بالسيارة ونجحنا ولكن بعد أن أبلغنا مديرية الأمن فى مرسى مطروح لكى تأتى لنا ببائع الكاوتشوك التابع للشركة لأنه لأسف شديد كان قد أغلق دكانه ولا يوجد محلات أخرى ، فأصدروا أوامرهم ليأت الرجل من منزله وعلى الرغم من إرهاقنا الشديد إلا أننا كنا نضحك فى سعادة ، وكأن ما حدث لنا مجرد فيلم كوميدى ، وضحكنا عندما أبلغنا الرجل أن الكاوتشوك ليس

محليا بل مستوردًا من كوريا وأنه أردأ أنواع الكاوتشوك وليس لديه غيره ولا يكفى أن ينقلنا إلى القاهرة والله ستار وتحمل الكاوتشوك بعد ذلك عامين كاملين ولم تنفجر الإطارات وكان بالفعل كاوتشوك جيد ، دغش ، المرة الثالثة ، فيما يبدو أن لى ذكريات خاصة بزوجاتى الثلاث فى مرسى مطروح ، وأرجو ألا يتصور أحد عندما يسأل عنى فيعرف أننى فى مرسى مطروح ، فيتصور أننى ذهبت لأتزوج لأن هذه المدينة قاسمتنى عمرى كله ، عندما تزوجت زوجتى الثالثة ذهبت معها إلى مرسى مطروح ولم تكن تصدق هذا الجمال ، وهكذا كلما أتحدث عن مصايف مصر أقول ليس هناك مصيف فى العالم كله يضارع مرسى مطروح ، فقد ذهبت إلى كابرى ، عندما كنت طالبا فى البعثة وذهبت إلى الريڤيرا وإلى مصايف بلدان عديدة ولم أر فعلا أجمل ولا أحلى من مرسى مطروح ، حتى فى منتصف التسعينيات أعتقد أنها لم تعد كذلك إنما أصبحت مظهرا من مظاهر قلة ذوق الأثرياء ولله الأمر من قبل ومن بعد . وفى المرة التى أذكرها وهى الثالثة لا أقصد الثالثة إلى مرسى مطروح فقد ذهبت إليها مئات المرات وقضيت فيها عددا كبيرا من الأيام لا يمكن حصرها بسهولة ، أقصد عندما تزوجت للمرة الثالثة

أخذت زوجتى الجميلة الصغيرة وذهبت بها ، على فكرة أنا أحب زوجتى حبا شديدا جدا وأشتاق إليها الآن اشتياقا شديدا جدا ومهموم بأمورها وأمور أولادها وادعو لها دائما بالتوفيق وأكاد أجن لأنها الآن وحيدة تناضل من أجل الأطفال الثلاثة . وأنا هنا راقد لا أملك لها إلا الدعاء ودائما عندما تحادثنى فى التليفون أحاول أن أجعلها تذهب إلى زوجتى الأولى لأنها بالتأكيد وكما ثبت بالتجربة أنها أم ، أم للبنتين وأم لها وأم لأولادى الثلاثة ، وهى سيدة حنون ذات قلب كبير وقفت بجوارى ناديتها أمى طوال تلك السنوات وظلت هى أمى بالفعل ، أمى الحنون التى تقف بجوارى دوما ، التى لولاها لما كنت هكذا سواء حققت نجاحا بسيطا أو حاولت النجاح ، دائما أستمد منها الأمل ، عندما تحدثت عن زواجى وضرورته وربما يكون هذا زريعة فى نفسى ولكن الحق إذا كانت قد فشلت كامرأة نجحت نجاحا كبيرا كأم ، سواء أكانت أما لابنتى أم لى وأنا كنت فى حاجة إلى تلك الأم ، ولم أكن فى حاجة إلى زوجة مدللة تأخذ من وقتى ما شاءت وربما سقطت فى بئر الحرمان ولكنى وجدت سلم الأمان فى عنايتها والوقوف بجوارى ، وأيضا عدم المساس بكرامتى وعدم المساس بوقتى وإفساح المجال لى

ولطموحاتى ولموهبتى ، وأنا الآن أحبها كثيرا كما أحب زوجتى الصغيرة حبا كثيرا وأتمنى أن تذهب إلى بيت أمى الحاجة (زوجتى) وتجلس بجوارها وتحكى لها عن مشاكلها لكى تحاولا هما الاثنتان التغلب على مشاكل غياب الزوج ، اللهم تقبل دعائى تجاه أولادى جميعا ، احمهم من المرض ومن الزيف ومن النفاق ومن الكفر ومن الشرك ومن كل ما هو آثم ، وأن تجعل لهم نصيبا من نجاح فى الدنيا وحسنات الآخرة ، اللهم آمين ، وفى رحلتى مع زوجتى فى المرة الثالثة ، كنت أمام الفندق الكبير الذى ذكرته فيما سبق ، وسألتنى زوجتى ما هذا المبنى ؟ فقلت فيما مضى كان مبنى شامخا جميلا يسمى (البوسيت) وكان له رونق وبهاء ولا ينزل فيه إلا وجهاء القوم وأثرياؤه ، وخاصة الأجانب وكان شاطئه جميلا وفسيحا وبديعا ، يكفى أن نجلس فى هذا الركن لنشرب الشاى هيا بنا ندخل وقصصت عليها قصة إصلاح المواتير والثلاجات والسخانات فضحكت فى سعادة وجلسنا فى المكان نفسه ، الذى جلسنا فيه ونحن شلة من شباب ، يقول (المستر) الطباخ إنه مستاء منى جدا لأننى لا آكل ، وقد احتار معى ، نظر نحوى فى غيظ ثم قال : ماذا تريد أن تأكل ؟ وجاء

الجرسون وطلبنا شايا وجاء الشاى معدوم الرائحة معدوم اللون ، وأيضا معدوم الطعم والموائد متسخة والمقاعد محطمة والفندق يبدو شيخا ضاعت هيبته وصغر حجمه أو ربما أنا قد تغيرت إلى درجة أننى رأيته بهذه الحالة المتدنية فخرجنا ومضينا ونحن نتضاحك وكنت سعيدا أشرح لها كل شىء ، فسألتنى : ولماذا لا نذهب إلى عزبة حشيش ؟ قلت لها : لم تعد عزبة حشيش ، أصبحت قرية سياحية لذوى النفوذ فى بلدنا . . فسألتنى وما هو الحشيش ؟ ضحكت وقلت لها : كيف لا تعرفين الحشيش ؟ قالت : هل هو الذى تأكله البهائم مثلا ؟ أنا سمعت من جدى ذلك . قلت لها : هناك صنفان من الحشيش ، حشيش تأكله البهائم وحشيش يأكله البشر ، فسألتنى مرة أخرى وهل لنا شراء هذا الحشيش ؟ فضحكت حتى إنها بكت لأننى استهنت بسؤالها ، أخذت أشرح لها إنه من المواد المخدرة ، وبالمصادفة كان يمشى خلفى رجلان فلم أهتم كثيرا بأن يسمعا أو لا يسمعا وأنا أشرح لزوجتى كيف يزرعون الحشيش ثم كيف يستخلصون منه بعد ذلك مركبات معقدة ، كنت بالطبع قد قمت بدراسة هذا ورأيت كل تلك العينات وأنا أدرس علم النفس فى الدراسات العليا وخاصة

أمراض النفس البشرية وكيف تلعب المخدرات دورا فى أسباب المرض وتقدم منى الشابان وضحكا بشدة وقالا يا رجل لقد تصورنا أنك تاجر مخدرات. فأبديت دهشتى ، فقالا لا بأس نحن نعرف من أنت . قلت من أنتما تاجران من تجار المخدرات ؟ قالا ضابطان من مباحث . . المخدرات ، فصمتت زوجتى ونظرت إليهما فى رعب وكأنها ترى جنيا سوف يأخذ زوجها وأمسكت بى بشدة فقالا لا تخشى يا سيدتى نحن نعرف الأستاذ ونعرف من هو ، ولكنه بالفعل قام بشرح المخدرات وصناعتها والإتجار فيها وزراعتها وتصنيعها أفضل من فطاحل تجار المخدرات ، وكان هذا اليوم دغشا فى دغش .

وأتذكر حكايات متفرقة من الدغش لا تخصنى إنما شاهدتها ، بعضها ضحكت فيها والآخر بكيت ، ذهبت ذات يوم إلى أسرة من التجار الأثرياء وكان لى بهم صلة ما ، وكنت أذهب لزيارتهم كل حين فقال لى رب الأسرة اركب معنا فنحن سوف نتعشى خارج البيت ، فأبديت اعتذارى ولكنهم أقسموا وركبت وأنا متذمر وفى نيتى أن أنتهز أقرب فرصة لأهبط منفلتا، وكانت أسرته مكونة من ثلاثة أفراد ، ركبت بجواره وذهبنا إلى منطقة المنيل وهناك أمام الجمعية

التعاونية وقف بجوارها ثم هبط وأخذنى معه - وكنا فى ذلك الوقت فى أواخر الستينيات وكانت أزمة اللحوم الطاحنة وأزمة الدواجن ولا أحد يستطيع الحصول على لحوم الجمعية بالذات لأنها رخيصة جدا لا تقارن بأسعار الجزارين ، كانت طوابير الدجاج هذه سببا لكى أكتب قصصا عديدة حول دجاج الجمعية وأذكر أننى كتبت قصة عن رجل مات فى طابور الجمعية الخلفى . وطلب صديقى من الجزار ذبيحة . . وذبيحة بأكملها ، قال الجزار التابع للجمعية ، اذهب أنت وسوف أحمل الذبيحة بنفسى إلى السيارة ، رأيت الجزار وهو يحمل عجلا كاملا مسلوخا ولما لم يستطع حمله نادى على مساعده ليحمله معه ، حتى المرسيدس وفتح الرجل شنطة السيارة فوضع فيها الذبيحة وأعطاه صديقى عشرة جنيهات فرح بها الجزار وصاحبه ، أبديت رغبتى فى شراء بعض الحلوى لكى أذهب إلى الباب الأمامى للجمعية ، جاء الطباخ أو المستر كما ينادونه وقدم لى (ورك) دجاجة يشبه رجل فيل صغير ، عافته نفسى ولكنى لم أشأ أن أخيب أمله فأخذته وشكرته . . وتذكرت الذبيحة التى حملها صديقى الثرى فى سيارته بينما وقف مئات من البشر فى طوابير أمام الجمعية لكى يحصلوا على

كيلو واحد من اللحم ، هذا فى أواخر الستينيات وليس فى الحلم ، وارفع رأسك يا أخى ، طوابير مرصوصة من أجل الحصول على كيلو واحد وموظفو الجمعية يسبونهم سبا فظيعا ، ثم أمسك مدير الجمعية بخرطوم من خراطيم المياه فى محاولة لتفريقهم وهم يعانون من الماء ومن التراب ومن الزحام لكى يحصلوا على كيلو واحد ، مجرد كيلو واحد من اللحم ، فى مقابل السعر المحدد الذى حددته وزارة التموين هذا يا أصحاب عبد الناصر كان واقعا ترونه كل لحظة عندما كنتم فى قمة السلطة وعندما كنتم أمناء الاتحاد الاشتراكى ، لم يكن هذا واقعا ؟ لماذا مات هذا الرجل الثرى فقيرا وترك أولاده فقراء: كانوا أحباء إلى قلبى ولكنى كرهت أباهم هذا ، حنونًا على الكلاب قاسيًا على البشر كما كان عبد الناصر ، حنونا على العرب قاسيا على المصريين لهذا مات محصورا مقهورا وقد استعمر اليهود - أراذل الناس - ديارنا ولكن والحمد لله استطعنا أن نطرد الكلاب التى أكلت لحم الجمعية لأن صديقى الثرى أطعم كلابه لحم الجمعية ، ودغش آخر حتى أعطيكم النبأ اليقين من شاهد عيان رأى كل هذا وعاش فيه حتى يتذكر الأبناء ما كان يفعل الآباء : قدمنى المرحوم المخرج (الجزايرلى) وكان وقتها مخرجا كبيرا إلى

رجل مهاب الطلعة وقال سوف ينتج مسرحية من مسرحياتك وذلك لفنانة معروفة ، وقد خصص إيراد المسرحية لأمها المسكينة التى تعيش فى القلعة .ولأننى لا يهمنى عمل المنتج وكل ما يهمنى أن تقدم المسرحية بشكل فنى جيد وكنت فى بداية حياتى الفنية أريد رؤية أعمالى التى أكتبها على الورق وقد امتلأت حياتى بالممثلين وتدور أحداثها بعد أن دارت فى عقلى ويشاهدها الناس بعد أن شاهدتها أنا فى خيالى ، وبالفعل قدمت له مسرحية استعراضية غنائية كنت قد ألفتها وقام فؤاد الجزايرلى - رحمه الله - بإخراج هذا العمل الغنائى الكبير وقام ببطولته عدلى كاسب وأنور محمد ومحمد توفيق واشترك معهم المطربة التى كانت فى ذلك الوقت مشهورة ، وتربطها الإشاعات بهذا المسئول الكبير ، كما اشترك فى المسرحية مجموعة من الأصوات الشهيرة مثل: محرم فؤاد وغيره ولا أذكر إلا هؤلاء ، ولأن الذاكرة تخوننى أحيانا ولأنه قد مضى زمن على عرض هذه المسرحية ، وتسجيلها أكثر من ثلاثين عاما ، وعرضت المسرحية على مسرح الأزبكية وكان قد عرف الڤيديو أو عرف التلفزيون وسجلت وتم تصويرها وبيعها وتم تسويقها جيدا وذهبت يوم الأربعاء وهو اليوم المحدد لنا لكى يقبض

كل منا أجره ، ذهبنا جماعة سواء النجوم من أمثال المليجى وعدلى كاسب وأنور محمد عليهم رحمة الله . . والموسيقيون والمنشدون وأيضا مجموعة الإخراج والإنتاج والتقينا جميعا المخرج العجوز الذى كنا نناديه بابا فؤاد ، وكنا نعرف اسم الرجل الذى يحمل النقود وهو رجل قصير القامة كريه المنظر ينفق على المسرحية فى بخل شديد وحرص أشد ، ولكن لا يهم ، يكفى أن يقبض كل منا أجره ويمضى فأخبرنا بابا فؤاد بأن الرجل المسئول الكبير ذا النفوذ الأكبر أقام حفلة عشاء لنجاح المسرحية فى كازينو بالهرم ، فركبنا سيارات من يملكون السيارات فى تعاون وود وقد كنا شبه أسرة متكاملة ، ذهبنا إلى ذلك الكازينو ووجدنا الرجل فى انتظارنا وقد أعد لنا مائدة كبيرة الحجم عليها من أصناف العشاء ما يفوق الوصف بل إننى تخيلت أنه من الممكن إطعام سكان حى السيدة زينب بهذا العشاء الدسم لمدة ثلاثة أيام فجلسنا ونحن نتضاحك ونتنظر لأننا سوف نأكل اليوم وفيرا من اللحمة وديوكا رومية وكثيرا من الطعام لا نعرف اسمه ولم نر لونه من قبل. جلست بين الفنان عدلى كاسب والفنان أنور محمد وقد كانا من أعز أصدقائى، فلما جلسنا جاء الجنود . نعم الجنود ، لا تظنوا بى الظنون ، كان

الجند يحملون صناديق الويسكى ويضعون أمام كل فرد منا زجاجة بأكملها ، هكذا وبدأ الحفل وبدأ الناس يطعمون وبدأ من يشرب الخمر يحتسى يعب الزجاجة عبا ، فقام أنور محمد بسحب الزجاجة ، من أمامى لأننى لا أشرب ووضعها عند قدميه وفعل ذلك بزجاجته لأنه هو أيضا لا يشرب وفعل أيضا عدلى كاسب ذلك لأنه - رحمه الله - كما بدا لى لا يشرب أيضا ولكن الزجاجات المختفية جاء بدلا منها زجاجات أخرى ثم جاءت زجاجات وزجاجات حتى إن المائدة الكبيرة التى كانت بسعة الكازينو كله تحولت إلى صناديق من الويسكى مخازن من زجاجات الويسكى والرجل يضحك منتشيا ، ولكن الرجل فى لحظة هاج وماج ونادى صاحب الكازينو فجاءه صاحبه ومديره وكل من يعمل فيه يرتعدون خائفين ماذا يا سعادة الباشا ؟

الباشا قال : هيا بنا ، فهب الناس وقاموا وجلين خائفين فقد بدى الرجل ذو النفوذ أسدا لا يقدر على مهاجمته أو حتى الدفاع عن نفسه إلا من رغب الموت ، وارتعدت فى رعب وهانت وبدأت الدموع تنهمر من عينى ومضينا حيث أشار والطعام لا يزال على الموائد يكاد يغطيها كلها وأنا أتحسر على هذا الطعام الذى لا يجده الفقراء ، ذهبنا إلى

كازينو آخر لم يكن مستعدا استعدادا كافيا ولكنهم فى لمح البصر أحضروا الطعام، طعاما كثيرا أيضا وجاء الجند وأحضروا المزيد من صناديق الويسكى وبدأ الذين شربوا يشربون مرة أخرى، والذين لم يشربوا شربوا من الخوف أصبحت الساعة الثانية بعد منتصف الليل وشعرت بدوار فهمست إلى أنور محمد وكان أقرب الأصدقاء إلى قلبى ، إننى تعبت وأريد الانصراف فقال أرجوك فقلت هل تتصور بعد هذا من يجرؤ على أن يطالبه بأجر ؟ عوضى على الله ، قال : وكيف ننصرف ربما لمحنا وضربنا بالسوط أو بحذائه أو اعتقلنا ، فقلت له لا تخشى شيئا فقد شرب الرجل ولم يعد يرى ما تحت قدميه هيا نتسلل وكنا والحمد لله نجلس فى حديقة ذلك الكازينو فقام أنور متسللا وذهبت خلفه حتى سيارته وركبنا وعندما بلغنا نفق الهرم أى أصبحنا تقريبا بالقرب من الجامعة صحت مهللا لقد أنقذت نفسى من هذه الورطة فقال أنور وأجرك فقلت عوضى على الله ، إنما يحزننى الآن هذا الطعام الكثير الذى سال على الأرض بينما هناك فقراء يتعذبون ويقفون فى طوابير الجمعية من أجل قطعة لحم أو من أجل ورك فرخة وهذا الرجل الذى نصب نفسه مدافعا عن الفقراء وأمينا عاما لكل الفقراء فى الشرق

الأوسط وليس فى مصر وحدها لسان حال موسكو لسان حال الحزب الشيوعى ينفق بهذا السخاء ويسخر جنده وعربات جيشه لكى يوفر لمجموعة من الممثلين صناديق كاملة من الويسكى ، وسألت مرافقى : كيف يحصل هذا الرجل على الويسكى ؟ فضحك وابتسم وكنا قد بلغنا منزلنا ، وقال : تصبح على خير ، ولم أصبح على خير أبدا ،فلم أذهب إلى بيتى فقد كنت تعسا وحزينا ولا أستطيع الرقاد فذهبت إلى محل كان لا يزال ساهرا واشتريت لنفسى شايا قيل لى إنه مستورد وقد كانت البضائع المستوردة ممنوعة أيضا وعجبت لذلك وقلت له كيف يكون هذا الشاى مستوردا والمستورد ممنوع فقال : يا أستاذ خليها على الله ، أنا أبيعه لرؤساء البلد اشتريت كيسا كبيرا منه وقلت لنفسى هذا أجرى عن المسرحية وعندما تسألنى زوجتى أقول لها هذا أجرى وكنا على وش الفجر . جلست لأصنع الشاى من ذلك النوع المستورد وأنا أمنى نفسى بكوب ذى رائحة عطرة جميلة من الشاى المستورد وصنعت لنفسى ولزوجتى التى استيقظت على تحركاتى فى البيت فقلت لها هيا اشربى الشاى الفخم وتناسى لمدة شهر أو أكثر طعم شاى التموين فابتسمت زوجتى وبدأنا نشرب الشاى فإذا به لا شاى

ولا يحزنون واضطررت لأن أطلب من زوجتى أن تصنع كوبا من شاى التموين ، دغش ، هل أقص عليكم قصصا أخرى من هذا الدغش أم هذا يكفى ؟ هناك الكثير من الدغش فى حياتى هناك الكثير جدا من الدغش ، دغش تسبب فى رفدى وفصلى ودغش تسبب فى حرمانى من راتبى لمدة أعوام ودغش كنت فيه من اللاهين الضاحكين ، سأحكى لكم دغشا آخر ، عندما كنت موظفا فى الإسكان قمت بالحجز على أحد السكان وعندما حضر صاح ، وقال ألا تعرف من أنا ؟ ومن أنت يا أخى ؟ أنت عبد الله لا أكثر ولا أقل ولا أحد يعرف قيمتك إلا من يعرف خلقه وهو الله سبحانه وتعالى قالوا هذا الرجل عضو بالمجالس البرلمانية والنيابية والقومية والفخرية والاشتراكية وإنه بالإضافة إلى ذلك نسيب وقريب السيد المحافظ ، والسيد المحافظ فى الوقت نفسه هو السيد المحافظ الذى قال لعبد الناصر إنه يشبه موسى وعيسى ومحمد ، وكان مشهورا بغلظته وقسوته وخاصة على كبار الموظفين ، لهذا ارتكبت وفقا لنظرية أصدقائى فى العمل جرما كبيرا لأننى تعرضت لأحد أقرباء ونسباء المحافظ وهو أيضا من ذوى النفوذ والذين كانوا يحفظون الميثاق حفظا عن ظهر قلب ، هذا الرجل يا سادة لم يدفع

إيجار منزله الحكومى الذى يشغله فى أرقى مناطق القاهرة لمدة عامين كاملين ، وأنا المسئول عن تسكين الناس وعن تحصيل أجور مساكنهم ، يعاتبنى الأستاذ متولى لأننى لم أحصل على أجرة السكن لمدة ستة أشهر من سيدة تبيع الفجل فى منطقة عين الصيرة ، لماذا لم أطردها وأرم أثاث منزلها على قارعة الطريق ؟! وأثاث منزلها لا يتعدى كنبة بلدى وحصير ومرتبة ومجموعة من الحلل الألمونيوم لو أننى بعته فى مزاد علنى لما جاء بإيجار شهر واحد ، فأشفقت على السيدة وأمهلتها أما هذا الرجل الثرى فقد كان بيته مؤثثا بأثاث فاخر ، بل وأكثر من فاخر وإيجاره الشهرى فى ذلك الوقت لا يتعدى أحد عشر جنيها ، وقد تخلف عن دفع الإيجار وهو رجل ذو نفوذ وبالتالى ذو منصب وذو مال وذو جاه، لم يدفع الإيجار لمدة عامين ، ماذا أفعل أنا مسئول التحصيل أمام السيد المحافظ لأجرة تلك المساكن وخاصة أجرة المساكن الفاخرة فذهبت وفقا للسلطة المخولة لى قانونا للحجز على أثاث المنزل واتخذت كافة الإجراءات القانونية المتعبة وفقا للسلطة المخولة لى ووفقا للقانون ، وكان هذا أمام البوليس وبمراعاة القواعد الروتينية التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار بعدها بقليل استدعانى السيد الحافظ

وكثيرا ماتكتب فى الخطابات الرسمية ، السيد المهندس اللواء الأستاذ الدكتور الوزير المحافظ فلان الفلانى وكأن تلك الألقاب لا تكفى السيد المحافظ . جاءت الممرضة وحملت الطعام كما جاءت به ، ونظرت نحوى فى إشفاق وقالت سوف أحضر لك قطعة من الجبن . . واستدعانى المحافظ وبدأ الخوف الشديد على وجوه زملائى فى إدارة الإسكان ، ذهبت إليه وأنا بالطبع أعلم لماذا استدعانى السيد البيه الاشتراكى الكبير المحافظ ، استقبلنى مدير مكتبه بغلظة شديدة وتجهم أشد، ودفعنى إلى مكتب الباشا المحافظ وهو يقول بغلظة: ادخل وكأن المحافظ سوف يلتهمنى أو يأكلنى وعندما دخلت ، انحنيت على الأرض وأمسكت بما يشبه التراب وإن كانت الحجرة تخلو من التراب إلا أنه كان يبدو لى أو بدا لنا نحن الاثنين أنا والمحافظ أنه تراب واقتربت منه وقد وقف أمام مكتبه وتشابكت ذراعيه ونظر إلىّ فى تحفز واضح وقلت : أنت تراب جئت من تراب وستعود إلى التراب ونفضت يدى وصاح غاضبا كيف تجرؤ ؟! قلت له : لأننى بعد أن أخرج من مكتبك سوف أذهب إلى الزعيم لأقول له إنك تأكل حقوق الشعب ، وإنك ضد الاشتراكية وإنك من أعداء الثورة فانتفض الرجل واندفع خلف مكتبه

وكأن مكتبه هذا يخيفنى أو يبعد الشر عنه ، ولكننى اقتربت بجدية شديدة وبى ثورة حقيقية ، إننى دافعت عن مصالح الشعب العامل وأنت تدافع عن هذا الرجل عدو الاشتراكية لأنه قريبك ويقطن عمارة حكومية فاخرة مليئة بالأثاث الفاخر يجب أن أشكوه للزعيم ليقول له من أين أتيت بكل هذا المال ؟ لا بد من تجريده وتأميمه (وكانوا يفعلون هذا بأقل الأغنياء ثراء بل وأحيانا يفعلون مع الفقراء ، وتسلل الخوف إلى كل الظواهر الاجتماعية حتى إنه لم يعد هناك خوف من الله بل خوف من الزمن والفقر ولقمة العيش ؛ لأن هذه أشياء موجودة فى حياتهم وقد عانوا منها الأمرين أما الإيمان فقد التمسوه فى قلوبهم فقط ولهذا تحول المصرى من مجرد عامل مجد إلى عامل لا يعمل ولا يثق بالسلطة) وأخذت أردد بعض الشعارات التى كنا نرددها فى منظمة الشباب ، جلس المحافظ متوترا حائرا وتحول ذلك الأسد الضارى الذى كان يركل كبار الموظفين بقدمه وكان يكفى لإذلال أى وكيل وزارة بأن يخطروه بأن الباشا المحافظ يريد أن يقابله حتى يهرع هذا بالذهاب إلى بيته فلا يخرج منه أبدا إلا إلى قبره، لأنه يعلم أن مصيره الإذلال أمام موظفيه ، ثم بعد ذلك الاعتقال والمعاناة من العسكرى الأزرق والأسود

والأحمر وكل ألوان العساكر التى عرفت فى ذلك الماضى الأغبر ، قام وقد تسلل الخوف إلى قلبه وهو يقول : ماذا بك يا بنى أنا استدعيتك لكى أشكرك باسم الشعب العامل أنت مثال الوطنية والاشتراكية وأنا كلفت بأن أكافئك . فقلت لا أريد مكافأة على فعل وطنى يكفى أن يسعد الشعب ، فقط أريد بعض الأشياء لإدارتى وبدأت أملى عليه وهو يكتب ما أريد بالأرقام التى أحددها وكنت أبالغ أحيانا فى تلك الطلبات ، ووافق على جميع طلباتى التى رحت أنبش فى عقلى وأبحث عن طلبات جديدة ، فلما انتهيت من ذلك نظرت إلى الباشا المحافظ وقلت له : يجب أن يتم كل هذا الآن ولن أخرج من مكتبك حتى تكون كل تلك الطلبات قد أعدت بطريقة قانونية سليمة وبالفعل لم تمض لحظات حتى رأيت المدير المتعجرف فى مكتب الباشا المحافظ ينحنى أمامنا ويقول كل الطلبات جاهزة يا سعادة الباشا وكأنه كان يسترق السمع ويطيع فى الوقت نفسه وبالفعل ودعنى الباشا المحافظ عند مكتبه وأنا أنظر إلى البيه مدير مكتبه بعطف شديد وأقول يا ربى ألستم بشرا مثلنا ؟ ألم تعرفوا أن الله واحد وأنه رب الكون وأنه المعز المذل ؟ لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله ، وركبت السيارة الجديدة وفوقها تلال من ورق

وأقلام ودوسيهات وسجلات وكل ما أردته ، ذهبت إلى مكان الإدارة فوجدت الموظفين وقد وقفوا على بابها الأمامى وهم يتصورون أننى سوف أعود وقد ضربت ضربا مبرحا أو أننى لن أعود مطلقا فإذا بهم يروننى وأنا أهبط من السيارة ، فراحوا يهللون وهم يتسلمون الأوراق التى كانوا فى أمس الحاجة إليها ثم ازدادت فرحتهم بتلك القرارات التى كانت لصالح تحسين أوضاعهم المالية وربما يكون الدغش كله هو تلك المهزلة التى أعيشها الآن بمستشفى فى القاهرة ويقرر الطبيب أننى فى حاجة إلى جراحة عاجلة ويجرى أقاربى وينفعل أصدقائى ويحاول زملائى وكل من يعرفنى لأخذ موافقة رئيس الوزراء ، ومض أكثر من اثنى عشر يوما قضيتها وأنا راقد فى فراش المرض انتظر تلك الجراحة العاجلة ثم آتى إلى لندن وتأخذنى السيارة إلى جامعة أكسفورد ، وأدخل غرفة العمليات لأجرى جراحة عاجلة وأخرج منها بإذن الله فيقابلنى الطبيب الذى أجرى الجراحة بوجه باسم ويخبرنى بأنه قد أجرى جراحة عاجلة عالمية وأن جراحتى كانت معقدة جدا وأنه سعيد كل السعادة ثم لم يلبث أن أجرى لى أخرى دون أن يخبرنا لماذا فشلت الأولى التى كان يتباهى بها لتزداد حالتى سوءا وليصاب

جسدى كله بالشلل ، والأخطر بتلك الآفة التى أحاطتنى من كل جهة أو الميكروب اللعين الذى ظل ينهش جسدى حتى الآن . فى الصباح ذاته تأكدت من جنونى فأنا شخصان فى وقت واحد أحدهما يتألم والآخر يحارب فى مكان ما ، اكتشفت أننى جالس على مقعد بجوار السرير أرتعد من البرد كيف وصلت إلىّ هنا ؟ كيف جئت إلى المقعد ، وأنا المشلول ، المفتوح الصدر ، الذى ينزف دما ورأسه لا تحوى إلا ذكر الله وصورة الكعبة ؟! أصحو لكى أقرر فى حزم لابد من مغادرة تلك المستشفى ، كانت بالتأكيد مجازفة أن يخرج إنسان صدره ينزف وجسده مشلول والماء يتساقط من كل جانب ، وتخطر الأجهزة الرسمية ويجرون هنا وهناك فى محاولة لمنعى ، وتبكى ابنتى ويصر الأطباء والممرضات فى قسم القلب بجامعة أكسفورد على ألا أخرج ولكنى أصمم وينجح عنادى فى الخروج وأفاجأ فى اليوم نفسه وبعد ثلاث ساعات أن البروفيسور الكبير يقول : ماكان يجب أن تجرى الجراحة! أشق صدرى أكثر مما هو مشقوق ؟! قلت خذ بثأرى أيها الجراح المصرى من الإنجليزى. يقول دعنا أولا نتدارك الأمر ولا يزال يتدارك الأمر وأنا أضعف وأضعف ولا أجد أمامى إلا أن أكتب هذه

الرواية ، أكتبها وأنا تحت تأثير هذا الضعف وهذا الخلل فلا شىء يهم الآن مثل الأحلام ، مثل ما نكتبه أيضا لا شىء يهم ، ماذا فعلت كتاباتى لتمنع عنا الحروب قبل أن تحدث؟ وعن الزلازل قبل أن تحدث ؟ وعن السيول قبل أن تحدث ؟ وعن الانتصار قبل أن يحدث ؟ ماذا يهم ؟ لا أحد يقرأ ، لم يعد أحد يقرأ كتبى ، صار الكل مشغولاً بهموم الدنيا ليس فيها إلا الأكل والإنفاق ودور الإنسان فى الدنيا أن يأتى بالمال ، ونسى الناس أن المال مال الله وأن الرزق بيد الله فانشغلوا بما هو غير واجب عن ما هو واجب ، فكيف تكتب ؟ أليس هذا دغشا فى دغش ؟ وتسمع آلاف القصص هنا فى المستشفى ، المرضى كل منهم له حكايات لو شئت أن تكتبها رواية لكفتك واحدة من تلك الحكايات التى يرويها ، وهو راقد يكاد يهمس إليك همسا ويذهب بعد أن يشفى كل منهم وأنا أقيم ولا زلت مقيما فى مقصورتى رقم ١٦، سجنى ، غرفتى ، عذابى ، قل ما شئت ، أنا وحيد ، ذهب الجميع وبقيت وحيدا ، من الساعة السادسة مساء وحتى العاشرة صباحا أجلس وحدى ، أحاول أن أرفه عن نفسى ، أتخيل حكايات العبادة ، فأنا دوما أتذكر كيف ذهبت إلى الكعبة ، ذهبت مرارا ، فى كل مرة أحاول أن

أتذكر كل شيء ، ماذا حدث ؟ مرة ؟ ذهبت وحيدا وقضيت أكثر من عشرة أيام ، لم آكل شيئا كنت أجلس فى المطاعم فأطلب الطعام ثم أجد نفسى وحيدا فأخرج دون أن آكل تكرر هذا على مدار زياراتى ، سواء للمدينة المنورة عظمها الله أو مكة المكرمة أكرمها الله ولكن يبقى دائما من تلك العمرات والزيارات ورحلات الحج يبقى دوما فرحة اللقاء بالكعبة وفرحة رؤيتها وفرحة الابتهال إلى الله وأنا جالس فى مقام إبراهيم وأنا جالس فى انتظار مدفع الإفطار أو أذان المغرب لكى نأكل التمر ونشرب القهوة ، لا يزال فى العقل والوجدان وفى الذاكرة وفى الخيال ، لا يزال ذلك الحلم الجميل ، تلك الرائحة الجميلة العطرة التى يشمها الإنسان فى جنبات الكعبة أو يشمها أو يشعر بها بجوار قبر رسول الله « ﷺ » آه ، مضت ثلاثون عاما وأنا أذهب كل عام مرة أو مرتين ، وربما ثلاث لم أعد أذكر ، بقيت الذكرى وبقيت الرائحة وبقيت الكعبة ذاتها فى داخل نفسى أتذكرها دوما خاصة فى أوقات الشدة ، ألجأ إليها تحاول (السيستر) أن تحشو جرحى بكثير من تلك الأشياء التى تضعها ، أتألم فالجرح فوق القلب تماما ، لا حول ولا قوة إلا بالله . أحاول الدخول فى الصلاة ، الله أكبر ، أردد ، تنظر إلىّ ولا تفهم

ماذا أقول وتواصل الدفع وأنا أتألم ، ألمى فى صلاتى ، لا ، لا أريد أن أشكو فلا داعى لذكر الألم ، لنقل إنها دغش فى دغش ، هل يمكن أن نقول إن بعض الأشياء التى تحدث لنا دغش لا أفهم معنى دغش ، ربما تكون كلمة جميلة ، ربما تكون كلمة غير جميلة ولكنى استخدمتها ، ومن أراد أن يفهم معناها فليفتش هو بنفسه ، يحارب من أجل معرفة معنى كلمة دغش أما أنا فسوف أكتفى بذكرها ولننتقل إلى فصل آخر ربما يحمل لنا من المسرات ما عجز عنه هذا الفصل من الدغش .

***



الفصل الخامس

الحب عنوان فصلنا القادم ، كم فتاه أحببتها ، سؤال صعب ، سألت الفنان (. .) هذا السؤال فأجاب لا أذكر ولكنهم نحو ألف . فتعجبت وقلت له : أنت تبالغ . فقال : ونحن فى فندق أسوان نتناول العشاء فى سهرة جميلة نظمها لنا محافظ أسوان بمناسبة ذكرى عباس العقاد ، فقال بل هن ألف ويزيد . سألت يوسف جوهر : كم فتاة أحببت ؟ قال : واحدة تزوجتها ، يا الله ، كان معى أنور أحمد . رحمه الله . فسألته حقيقة الأمر لأنه عاشر يوسف جوهر فقال إنه يقول . . الصدق ، لقد أحب واحدة وتزوجها ولم يعشق غيرها ، سألت توفيق الحكيم هل فعلا أحببت فتاة بباريس ؟ قال لا . قلت ولكنك كتبت هذا فى كثير من كتبك واعترفت به أمام الجماهير فى أحد الأفلام وصورك وأنت تجلس معها . . قال لا . قلت لا أصدق فقال - رحمه الله - بصراحة شديدة لم أحب تلك الفتاة كانت مجرد شىء عابر ولكنى دونتها فى كتبى وصدقتها فى شيخوختى ، عجيب ، فكم فتاة أحببتها يا توفيق؟ فقال هن بالفعل كثيرات ، ولم

أعد أتذكر ، قلت: وكراهيتك للنساء التى اشتهرت بها؟ قال أنا لم أعد أفهمك يا بنى لقد حاولت أن أعلمك الكثير ولكنك أبدا لا تتعلم وظهر الغضب على وجهه وذم فمه ، ونظر نحوى ورفع يده وهى ترتعش قليلا فقد كان هذا الحديث قبل أن يتوفى بعام تقريبا ، وقال حاولت أن أعلمك ولكنك لا تتعلم ، يجب أن يخلق الأديب من حوله شيئا ما فإذا بالناس تتكلم عنه ، رأيت أن أقول إننى أكره النساء فى زمن كانت هناك آراء قاسم أمين تعلو كل الآراء وهناك صحوة النساء وحقوق النساء ، فكان لا بد من أن ينبرى واحد مثلى ليقول لن يتزوج لأنه يكره النساء ، وتلقفه الأقلام ، قلت : لست فى حاجة إلى دعاية ، قال : طه حسين مثلا تشبث بالأحزاب وبالعمل السياسى من أجل هذا ، لهذا طه حسين السياسى أكثر شعبية من طه حسين الأديب ، تأمل من حولك ، كل أديب كتب مقالا فى السياسة أصبح مشهورا ، لو أن (إحسان عبد القدوس) هكذا قالها ، كتب فى الرواية فقط ماذا يبقى منه ؟ هل يلتفت إليه أحد ؟ قلت نجيب محفوظ لم يتكلم فى السياسة ؟ قال وظل نجيب محفوظ حتى بلغ الستين ولا أحد يعرفه . عندما التفت إليه الاشتراكيون وقالوا إن إبداعاته تمثل اتجاها

سياسيا اشتهر وكتب عنه أمين سر الحزب الشيوعى . وضحك توفيق الحكيم ضحكة بالغة القسوة (أذكرها لأمانة السرد مع اختلافى معه فى الرأى)

قال توفيق الحكيم : (إن نجيب محفوظ صنع لنفسه قالبا ثم راح يملؤه سردا) ولم يجدد .

قلت أنت الآن تمزح . أجاب : الحق أقول لك .

عندما سألت نجيب محفوظ كم فتاة أحببت ؟ قال ياولدى لا تسأل ، الدنيا أسرار ، قلت : ولكنك أحببت فتيات كثيرات ؟ ابتسم ولم يجب ، ولكنى لم أحاول الضغط عليه كنت أعرف كم فتاة أحب ، وهن كثيرات ، والذى يدفعنى إلى حكاية الحب فى حياة الأدباء أننى أصادقهم ، وأحس بودهم نحوى . أحب نجيب محفوظ حبا شديدا وأحترمه وأجله وهو كذلك ، فقد ظل يوما كاملا يبحث معى عن سيارة تقلنى من الإسكندرية إلى القاهرة حتى ظن سائق التاكسى الذى أقلنا من (بسترو) حيث تجتمع بالإسكندرية جماعة الحكيم ، إلى كل محطات الأتوبيس وسيارات الأجرة أنه أبى ، فلما استطعنا الحصول على مكان لأعود إلى القاهرة أوصى السائق بى خيرا ورد السائق لا تخف على ولدك ، ثروت أباظة أحب زوجته - إلى حد كبير - وأخلص

لها وإن كان النساء يعشقنه ، وكانت هذه هى مشكلته لأنه كان يبذل جهدا كبيرا للتخلص منهن ، سألت محمود البدوى – رحمه الله – كم فتاة أحب ؟ ابتسم ولم يجب . فى ذلك اليوم وكنا ذاهبان إلى مطعم سمك بعد أن حضرنا سويا اجتماع لجنة القصة ، فقد كان يصادقنى رغم فارق السن الكبير بينى وبينه وكان دائما يقول أنت فى حكمة الشيوخ وحماس الشباب ، فلما جلسنا لتناول السمك ، يبدو أن ذاكرته قد تفتحت قليلا وقال: أول مرة أحببت كنت فى السويد ، فتى جاء من الصعيد وأراد أن يرى العالم من حوله ، وفى السويد أحب ابنة صاحب الفندق ، (التى بهرتنى بجمالها وبياض بشرتها ولونها القرمزى الجميل وشعرها الأصفر الطويل ، وعينيها الزرقاوين ، فقررت الزواج بها وعدم العودة لأبى وأنا فى العشرين من عمرى) ، فقلت ماذا كان يحدث لو أنك بقيت هناك؟ قال كنت أنا صاحب مجموعة أوتيلات ضخمة ، وضحك . قلت وكيف تخلصت من الحب؟ قال ذات مرة وأنا مقدم على الزواج تذكرت أبى وكأنه يقول لى أليس من العار أن تفعل هذا ؟ فلم أعد إلى الأوتيل وعدت إلى القاهرة ، وأحببت فتاة جميلة أغنتنى قليلا عن تلك الفتاة التى كانت ابنة صاحب

الأوتيل ، ذات الشعر الأصفر والعينين الزرقاوين ، قلت لم تقل لى كم أحببت؟! قال لا أحد يستطيع أن يقل ذلك ولكننى أحببت ، هل أذكر؟ أنا لست جمادا أو نباتا حتى لا أعشق أو أقابل الهوى ، نعم أحببت مرة ذات الشمال ومرة ذات اليمين وابتسم البدوى ثم ظهر الألم واضحا على جبينه وكأنه تذكر فتاة السويد ، واحترمت صمته ولم أقل شيئا ، وسألت إحسان عبد القدوس ذات مرة كم فتاة أحببت ؟ فقال لماذا تسأل؟ قلت : هل تخفى سرا ؟ إذا كان كذلك فلا تبح به ، إننى أسأل لأنك أشهر كاتب فى الحب ، انزعج وانتفض غاضبا وقال إذن اكتب عنى هذا (إذا أحصيت عدد الكلمات الجنسية فى روايات نجيب محفوظ وأحصيت عدد الكلمات فى رواياتى تجد أن نجيب محفوظ تحدث عن الجنس وعن الحب وذكرهما صراحة أكثر منى وأنا الذى أتهم بذلك) فقلت معاذ الله ولكنى فقط أسألك من باب المعرفة لأننى أقع فى الحب كثيرا ، ثم أكتشف بعد ذلك أن لا حب ولا يحزنون وإننى أتظاهر بالحب وتصبح القضية عندى أو المشكلة الأهم كيف أتخلص من ذلك الحب ؟ أو بمعنى أصح كيف أتخلص من تلك الحبيبة التى أوحيت لها أننى أعشقها ؟ (يكح بشدة عدة مرات) ثم أسقط فى حب

واحدة أخرى وأظن بالفعل أننى قد وقعت فى حب حقيقى سوف أسعد به وما ألبث أن أكتشفت أنه ليس حبا بل وهما صنعته بنفسى لنفسى والغريب فى الأمر أننى أحببت فتاة ثم جاءت صديقتها لتخبرنى بأمر ما فقررت أن أحب صديقتها بدلا منها واختفت الفتاتان وجلست حزينا ، فقلت لإحسان عبد القدوس أنا أسألك لأننى بالفعل أحاول أن أفيق نفسى من مرض وهم الحب ، أو السقوط فى بئر الحب توهما ، ابتسم وقال لا بأس ، لا بأس ، سألت محمود يوسف – رحمه الله – الذى كان أحد فرسان الصحافة الأدبية والفنية فى الأربعينيات والخمسينيات وكان من أقرب أصدقائى فى الستينيات والسبعينيات : كم فتاة أحببتها يا بابا محمود ، زغدنى فى كتفى وقال : لماذا تسأل يا ولدى ؟ لم يعد فى العمر وقت للحب. قلت : اصدقنى القول ، قال هذا الكلام لا يجب أن يقال ، خاصة لفتى مثلك ونحن فى سن الشباب كنا لا نحب فتاة واحدة بل أكثر من فتاة واسأل كامل الشناوى ، قلت له أنت إذن من مدرسة كامل الشناوى الذى يحب ويحب ، وقال ياه ، لقد كنت أحب عشر فتيات فى وقت واحد ، ولا أمل أبدا من الحب وعطاء الحب حتى إننى كنت أحيانا عندما تهجرنى فتاة أحاول أن أستعيض عنها

بفتاتين؛ فالحب شيء جميل يا ولدى أعطنى أنت عمرك وسنك وشبابك لكى أرك كيف يكون الحب ، ثم دفعنى بشدة وعندما رآنى صامتا أفكر وقد كنت فى ذلك الوقت أحب فتاة هجرتنى وأشعر بالحزن لأنها هجرتنى .

الممرضة تمسك بذراعى والأخرى تضع طوقا حديديا حول صدرى ، أتألم بشدة ، الممرضتان تنظران نحوى جهاز التسجيل ، لم أسمع سؤالهما .

قال : وأنت تفكر فيها ؟ قلت من ؟

قال يا بنى إنها مجرد أوهام ولا تبتئس ، أنت لا تحب هذه الفتاة ، قلت : كيف عرفت ؟ قال : نحن نعشق لكى نكتب عن العشق لا أن نعيشه ونفعله ، نحب كى نكتب عن الحب وصدقنى هذا هو الحال لبقية زملائك الكتاب ، وساعتها جلست وحيدا فى البيت أفكر هل أنا بالفعل أحب تلك الفتاة التى هجرتنى؟ فجاءت زوجتى ولمست كتفى برفق وقالت : فى الغد تحب غيرها ، انتفضت وجسدى يرتعد . جاءت الممرضة السوداء وبعدها جاء الطبيب أتأمل ، الوجوه جادة تعمل فى صمت . أطعمونى الألم ساعة ثم انصرفوا . عدت إلى نفسى هل كانت تعرف بأمر تلك الفتاة؟ وأنا الحذر الذى يحاول أن يعشق وأن يحب

وأن يدراى على زوجته على الأقل احتراما لمشاعرها ، أم أن الأمر بالنسبة لى بالفعل ليس عشقا ولا حبا بل هو لون من ألوان التجارب الكتابية التى يجربها الكاتب ؟ ومن السهل على الكاتب الأديب أن يقول كلاما جميلا يبدو فيه أنه بالفعل عاشق لفتاة جميلة مثل فتاتى ، حاولت أن أدارى خجلى وأن أتماسك ولكنى بكيت بشدة على صدر زوجتى وهى تهدهدنى كم هى وفية وطيبة هذه السيدة التى تحملتنى كثيرا جدا . وعندما جاءت الممرضة وقالت فى أدب شديد : لماذا لا تحلق ذقنك ؟ قلت فى يأس ولماذا ؟ قالت : لكى تبدو جميلا وأنيقا وأنت فتى وسيم ، ضحكت فى وهن وقلت فتى ؟ قالت : يجب أن تحلق ذقنك ، كنا فى الليل وقالت : فى الباكر سوف أفعل لك هذا ، قلت : افعلوا أنا لا أفعل لنفسى شيئا ، أنا مثل مقعد موضوع فى الحجرة ، مثل ذلك السرير الذى يرتفع وينخفض بأمر الممرضات ومثل تلك المائدة التى تضعن عليها الأدوية ، ماذا تفعل المائدة لو حركتها شمالا ويمينا؟ هل تستطيع المقاومة أو الرفض ؟ هل تستطيع إبداء الرأى ؟ أنا لا أملك شيئا لنفسى ، ذقنى محلوقة أم غير محلوقة هى ذقنى لا أملك لها شيئا وانصرفت وتركتنى وحيدا . الليل هنا يبدو مثل ليل

ساحر غامض ومهموم والأصوات تأتى من بعيد وكأنها همسات والشجر بجوار النافذة يصدر دوما أزيزا يطن فى رأسى ، وأحيانا أسمع تكبيرات الأذان وأتلفت حولى . . هل هناك مسجد قريب ؟ هل توجد مآذن هنا ؟ إن الإلحاد هنا يتفشى وكأنه ظاهرة عامة ، لا أحد يتكلم فى الدين ولا أحد يسأل أين الله ، فقط يسألون جميعا عن المال عن المكسب من يعمل يأخذ مالا ومن لا يعمل لا يأخذ . والعمل شحيح وضنين وهناك ملايين المتعطلين ، فأنت دوما تحارب من أجل البقاء فى عملك وإلا طردت ، تحسن الخدمة وتعمل وكأنك ثور يعمل فى ساقية ، الممرضات هنا يعملن من الثامنة صباحا وحتى الثامنة مساء ، ثم تأتى أخريات يعملن القدر نفسه من الثامنة مساء إلى الثامنة صباحا، والويل كل الويل لمن تتأخر ، أو الويل كل الويل لمن لا تقوم بعملها كما يجب ، ماذا يحدث لو أنها أخطأت؟ قبل أن يكتشف مدير المستشفى تكون هى فى طريقها إلى البيت ، العمل هنا تحت حد السيف والسيف هو المال، والمال هو الذى يوفر الحياة الكريمة ، والويل كل الويل لك لو حاولت أن تتبطأ أو أن تسهو قليلا أو تزوغ كما يحدث عندنا ، ليس الدين هنا الدافع للعمل إنما الدافع الجوع

والحاجة والقانون العملى الذى يقول إذا أخطأت فالشارع يستقبلك فورا فليس هناك مجاملة فى ذلك ، لهذا تجد الكل يندفع ويهرول لكى يثبت حقه فى العمل وأنه جدير به ، حتى لا يفصل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . تذكرت فتاة أحببتها ، كانت دائما ملطوعة وواقفة بجوار دارها وطول النهار تجلس أمام الدار بلا عمل ، فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها بيضاء اللون وجهها مشرق بحمرة قليلا وشعرها يبدو تحت المنديل الأبيض أو الأسود كأنه أسلاك من ذهب وجلبابها القديم النظيف يلف جيدها كأنها عروس البحر أو فتاة الأوليمب الجميلة التى كانوا يقولون عنها إنها آلهة الجمال ، (نفرتيتى) ، أحببتها حبا جما طوال عام كامل ، ولكنى لا أستطيع أن أبادلها كلمة بكلمة فقد كانت دائما قابعة فى هدوء ، هى وأمها ومن حولهما ، أجد نساء أخريات متشحات بالسواد يتهامسن كلما مر رجل أو امرأة ، وكنت أحاول أن أجد لنفسى الكثير من الأعذار لكى أمر على حبيبة القلب وأسمع همس الكلمات وأنا أسير أمام بيتها وغامرت لكى أكتب لها على ورق الحب كتابا ربما يجعلها تحبنى ، حاولت أن أتكلم معها أن أنفرد بها ولكنها كانت دوما مسنودة على الباب وسط النساء ، بعدها بعام تقريبا كانت

فتاة الحنطور فتاة ذات قوام بديع ووجه صابح وشعر ناعم أسود يتدلى من رأسها الصغيرة الجميلة وهى تهبط من الحنطور يساعدها سائق الحنطور ونظرت إليها فإذا بعينيها تتجهان نحوى وكأنها غرست عينيها فى قلبى ، وظلتا مغروزتين ، فى الصباح وفى الليل تتحدث العينان إلىَّ بكلمات الحب الجميلة فكنت أصحو مبكرا وأنا مسهد من كثرة التفكير فى تلك العينين ، وأذهب إلى محل الفول وأخرج بالساندويتش الملفوف نفسه الذى لم أعد آكله ، ولكنى أتشبث به وكأنه هو شرط وصول الحنطور وتتكرر تلك النظرات وهى تدس عينيها فى عينى مباشرة فأجفل مضطربا أتحول إلى شخص آخر يطير فى الهواء شعاعيا ، وعندما أصحو أكتشف أنها قد انتقلت من الحنطور ، وتتكرر تلك النظرات وأتجرأ ذات مرة فأمس خديها ونهديها وجسدها بعينى ، أتلمس جسدا رائع التكوين وقلبى يدق وعقلى يزن ولسانى أخرس ، ترمقنى فى نظرة سريعة تخرس القليل من الكلمات ، وعشت عاما على هذا النحو ، عاما دراسيا كاملا وأنا لا أفعل شيئا إلا أن أتلقى سهام عينيها وأنا واقف مثل عمود النور لا شىء يحركنى ، النار بداخلى تشعل الضوء الذى لا يراه أحد وآه من الحب ، ثم جاءت

الامتحانات وجاء الصيف بعمله الشاق بجوار أبى ، نسيتها أو تناسيتها وظلت مجرد ذكرى حبيبة إلى نفسى ثم لا شىء بعد ذلك بالتأكيد ، تلك القصص التى أرويها ليست بالضرورة مرتبة ترتيبا أرشيفيا فلم أكن أتوقع أن أكتبها فى يوم من الأيام ، لهذا سأقفز إلى وجه تلك الفتاة السمراء ذات العيون العسلية التى بهرتنى بعيونها التى تبرق فى سعادة رغم سمرة وجهها فقد كانت أول فتاة أخرج معها فعلا ونتحادث حول الحب والعشق ، تتلامس الأصابع والأيدى ترتجف والجسد . . كنت فى السابعة عشرة من عمرى أدرس فى الجامعة ، أقابلها كل ظهر وهى تخرج من المدرسة تبتسم فى وجهى وتحاول أن تدارى عن زميلاتها ونتقابل فى بيت عمى لكى تعطينى قصاصة ورق فيها موعد اللقاء وكان هذا هو الحب الحقيقى الأول فى حياتى أعطتنى ورقة بالمكان والموعد ، وكان المكان: جامع الخازندار والموعد الثالثة . . لم أكن أعرف ما هو مسجد الخازندار ولم أشأ أن أسأل زوجة عمى أو عمى ربما يعرفان سرى من السؤال ، وتسللت خارجا وحرت من أسأل ؟ كنت أشعر أن كل من يمر فى شارع شبرا وكل من يسير بجوارى يعرف سرى ويعرف أننى عاشق ولهان أرتجف حبا . اقتربت من بائع

الشيكولاتة واشتريت منه بجنيه وكان هذا معناه أن يعطينى قطعتين كبيرتين ثم سألته أين مسجد الخازندار؟ أشار إلى المبنى المجاور رأيته مسجدا عتيقا من مساجد المماليك ذات العمارة العالية ولكنه يتوسط الشارع ويمر به أناس كثيرون ، كيف نتقابل هنا ؟ والمفترض أن يكون مكانا خاليا ، نستطيع فيه أن نتهامس وأن نتبادل فيه كلمات الغرام والحب ، والتى حاولت أن أرصها فى دماغى طول ليلة أمس عندما قررت هى أن نتقابل بعد طول إلحاح منى ، وقفت بجوار المسجد وأنا أحاول أن أفتش عن مكان هادئ بجواره ولكن لا يمكن أن يكون هذا مكان تقابل عشاق فهو أولا مسجد يؤمه ناس كثيرون وبجواره باعة كثيرون أيضا ، والمارة لا حصر لهم عددًا ، جاءت الساعة الثالثة ورأيت فتاتى مقبلة وجهها عند قدميها ، لمحتنى بطرفة سريعة وأشارت بيدها وكأنها تلمس شعرها الأسود الفاحم ، لم أدر معنى تلك الإشارة ، مع هذا تبعتها ركبت الترام خلفها وتركت مقعدين وجلست .

كنت أشعر أن ركاب الترام يعرفون سرى ، أرتجف خجلا وأذناى تلتهبان ولكنى كنت أدس عينى فى شعرها الفاحم الأسود ولا أدرى إلى أين نحن ذاهبان ، أترقب دائما أن تقف وأن تهبط إلى الشارع لا أعرف الشارع جيدا

ولا أعرف المنطقة؛ قادم توا من قريتى ، طالب فى كلية الطب مرموق المكانة الاجتماعية ولكنى صغير الحجم قليل التجربة هذه أول تجربة عاطفية شملتنى بعنف وبشدة ، وقفت ، أحاول أن أدارى خجلى تلفت حولى وكأنى أبحث عن المحطة ، تحركت هى نحو الباب ، تحركت أنا نحو الباب الخلفى ، هبطت ، مشت عدة خطوات ، اكتشفت أننا فى منطقة خالية تماما من البنايات والسكان أيضا ، هذه المنطقة الآن أصبحت من المناطق المكتظة بالناس والعمارات المختلفة الأشكال والألوان وأيضا الأذواق ، مشت عدة خطوات ، ثم وقفت وتلفتت حولها ثم أشارت إلىّ بالاقتراب ومدت يدها نحو يدى ولكن يدى كانت باردة أمسكت هى بيدى ، كانت يدها دافئة ، فشعرت بالدفء وهى تمسك بيدى فقبضت أنا عليها حتى أضم يدها فى يدى وكأنها عصفور دافئ صغير ويدى مثل العش البارد ، بدأت أشعر بيدها فى يدى ومضينا عدة خطوات حتى استقرت على أحد الأحجار المتناثرة فى هذا الخلاء ، جلسنا ، لا نتكلم ، مددت يدى بقطعتى الشيكولاتة ووجدت أننى فقدت إحداها واحتفظت بالغلاف فقط ، ضحكت وابتسمت ، قلت : ماذا أفعل أنا لا أعرف مسجد الخازندار ، وكنت أريد أن أسأل ؟

قالت : كيف وأنت تسكن بجواره ، قلت لها : وما اسم هذه المنطقة ؟ فليكن موعدنا دائما هنا لأننى عشت دهرا فى الترام وربما أشعر مرة ثانية بالدفء أكثر لو أننا جئنا إلى هنا مباشرة قالت تهبط قبل نهاية الخط بمحطة واحدة ، تذكر هذا جيدا ، تذكرت ، قالت هيا بنا وانتهى اللقاء ، وكما جئنا عدنا ، وعندما عدت إلى البيت جلست فى غرفتى فقد كنت أسكن الطابق الثانى وأسرة عمى تسكن الطابق الأول، وأغلقت النافذة وأغلقت الباب جيدا ووقفت أرقص رقصة المنتصر أو رقصة الديك الرومى عندما يشعر أنه استطاع أن يتخذ لنفسه وليفا ، وكنت فى قمة سعادتى ، وتعددت اللقاءات وبدأت أشعر بالشجاعة أكثر وبالدفء يسرى فى بدنى كله ثم بدأنا نلتقى مرتين فى اليوم ، مرة ظهرا ومرة أخرى أمر على بيتها فتهبط مسرعة بحجة أو بأخرى نتقابل فى الشارع مجرد مقابلة تتلامس أيدينا وتهرع هى عائدة وأعود أنا سيرا على الأقدام ، متذكرا كل لحظة كنت معها أو كانت معى ومضى العام هكذا لا شىء يحدث بيننا غير هذا ، أنا سعيد به وهى سعيدة أيضا ، أحيانا أقابلها أمام المدرسة وأحيانا أكتفى بالموعد وفى كثير من الأحيان أقابلها فى الموعد نتحادث فى أشياء تافهة ، أظل أسرد على نفسى

أسئلة وأجوبة طوال الليل فإذا ما قابلتها لا أجد فى عقلى ولا فى ذهنى شيئا مما أعددته لها وأتلمس الكلمات ، أتلمسها تلمسًا فلا أجدها ، نضحك ، نبتسم ، نتبادل تلك اللمسات الرقيقة ثم نعود كما جئنا ، وفى الليل أذهب إلى بيتها فتهبط هى مسرعة فتلمس يدى وهى ترتدى ملابس البيت الجميلة وأعتقد أننى أحببتها حبا شديدا وهى ترتدى الجلباب المنزلى المزركش الألوان وشعرها ينسال بلونه الأسود الفاحم على ظهرها ولونها الأسمر وعيناها التى تبرق فى عتمة الليل طريقا يأخذنى نحوها وأظل مستيقظا طوال الليل وأنا أنظر إلى عينين سمراوين تبرقان فى الظلمة وكأنهما حبتان من الزيتون تقفان فى زيت زيتونى أخضر اللون له بريق يعكس الضوء أمامه وانتهى العام وجاء الصيف وشعرت بحرمانى من فتاتى وانشغلت بالتجارة مع أبى ، فى العام الذى يليه لم نستطع أن نتقابل ، كانت قد خطبت ، لم أعلم إلا بعد فترة ، شعرت بالمرارة ولكنها أرسلت مع إحدى صديقاتها أنها باقية على الحب وأنها تريد أن تقابلنى ، رأيت صديقتها ، كانت بيضاء جميلة العينين أيضا ولكن فى اخضرار البرسيم وشعر فى اصفرار الشمس ، فأحببتها وكانت تلك السمراء قد ذهبت بلا عودة ، وبدلا من أن أرد

على رسالة حبيبتى أعطيت صديقتها خطاب حب ملتهب أوصف فيه أشجانى لها هى وحدها ، وفى اليوم التالى بالطبع أخبرتنى زوجة عمى أننى حمار كبير فقد فقدت الاثنتين وانتهت قصة الحب لأقع فى حب زميلة لى فى السنة الدراسية وفى مجموعتى الدراسية نفسها ، وقد كانت مجموعتى الدراسية لا يوجد بها إلا خمسة فتيات وكانت هى إحدى هاتيك الخمسة ، أحبتنى فى حرص شديد وكأننى من الماس النادر وأعطتنى رعاية تكاد تختفى طوال ثلاثة أعوام .

لم تقل لى أحبك ولم أقل لها أنا كلمة حب واحدة ، ولكن مجموعتى الدراسية كانت تعرف جيدا أنها تحبنى فلم يقترب منها أحد ، بل كانوا يتركون مقعدى بجوارها شاغلا حتى لو غبت أسبوعا ، كانت هى تكتب لى ما غاب عنى من محاضرات وأسماء المراجع وأحيانا تكتب لى الملاحظات التى كانت تدونها مع حضورها الدائم فى المحاضرات بينما كنت أنا أحيانا مشغولا بالعمل الطلابى لأننى مشرف على جماعة الأدب وجماعات مختلفة وأنشطة الطلاب إلى غير ذلك من أنشطة الجامعة لأننى عشت فترة الجامعة بكل ما فيها من دفء وحماس وذكريات ونشاط ، لا أجد هنا مكانا لسردها ، لأنها تحتاج إلى عمل مستقل ، المهم أنها

منحتنى طوال تلك الأعوام هذا الحب الذى كنت أقضى
معظم نهارى فى الجامعة أو فى العمل ولكن كانت
معاكسات بنات الجيران تضايقنى فدائما أجد فتاة من فتيات
الجيران تغازلنى وكأننى أنا الفتاة وهى الولد بل تعرض نفسها
علىّ فى وقاحة مبتذلة فأضطر إلى تغيير سكنى تقريبا كل
شهر ونصف أو كل شهرين عندما أمل مغازلة البنت لى
فأهرب إلى مكان آخر وهكذا ، أجد فتاة أخرى حتى إن
إحداهن كتبت بخط واضح على جدران المسكن الذى كنت
أسكنه صراحة أنها تحبنى فاضطررت إلى الانتقال من منطقة
الدقى إلى منطقة الهرم لأننى خفت أن يصل هذا إلى سماع
كل السكان الذين كنت أحظى بينهم باحترام شديد ، وجاء
العام الأخير وكنا فى هذا العام قد كلفنا بتقديم بحوث
يتوقف عليها الحصول على الليسانس وبدأنا فى إعداد
البحوث طوال العام كله ما عدا مادة واحدة سوف نمتحن
فيها امتحانا عاديا ، وسعدت بهذا كل السعادة لأنه أعطانى
فرصة للاطلاع والبحث والكشف وكتابة الرسالة وبقى
الامتحان النظرى ، كانت المادة الأخيرة بالنسبة لى شيئا هينا
لا يحتاج حتى على الأقل مراجعة أو قراءة الكتاب ولكن فى
يوم الامتحان كنت مسهدا لسببين ، بسبب أن فتاة الجيران

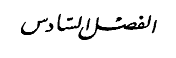
تنبهت لجمالى فجأة فيما يبدو فأخذت تعاكسنى وتغازلنى بشتى أنواع الغزل حتى إنها كانت تقذفنى بالتين والحمص أو السودانى ، مرفق بها الرسائل الغرامية ، وكان لدى عمل فى الجريدة التى كنت أعمل فيها واضطررت للذهاب إلى الجريدة والبقاء فيها حتى الصباح ولهذا عندما عدت إلى البيت كان قد حان موعد الامتحان فذهبت ورأسى مشوش الأفكار أشعر بنوع من الاختناق ، جلست وجاءتنى ورقة الأسئلة ولا أجد فى رأسى شيئا وكانت المادة التى درستها كلها قد تبخرت وظللت هكذا أكثر من نصف ساعة أحاول أن أتذكر إجابة عن سؤال أو مجرد جملة أرد بها على سؤال وأنا أنظر إلى زوجة المستقبل ، فهى تجلس بجوارى تقريبا فى اللجنة نفسها ، وهى تكتب وأزيز أساورها يصدر صوتا رتيبا لأنها تكتب بسرعة ، تلفت حولى فوجدت كل زملائى يكتبون والمراقب يجلس عن بعد واللجنة هادئة تماما ، نظرت إليها وهمست إننى لا أعرف شيئا ربما ساعدتنى بكلمة أو جملة تجعلنى اندفع للإجابة ولكنها لم تلتفت نحوى ، كانت جميلة بيضاء شعرها أسود وقوامها معتدل مع بعض السمنة المحببة رأيت ذراعها يتحرك بسرعة وكأنها فى سباق مع الزمن تضع على ورقة الإجابة كل ما لديها وأنا

لا أملك كلمة واحدة ، أنادى مرة ثانية فى همس ثم فى صوت مرتفع قليلا أنا لا أعرف شيئا لكن لا مجيب فجاء المراقب وقد سمع صوتى ونبهنى إلى ذلك ولكن بدلا من أن أصمت رفعت مائدة الامتحان وحطمتها فى غيظ شديد ، وهاج الطلبة وماجو ، ونظر المراقب نحوى فى فزع وكأننى مجنون فاقد العقل فجاء الطبيب وجاء رئيس القسم الذى كان يعلم بأننى من المتفوقين ولا أحتاج للغش حتى أحدث كل هذا ، وأعطانى الطبيب حقنة مهدئة وقال رئيس القسم أنت من الناجحين سواء كتبت أو لم تكتب ، لأن تقديرى فى البحث يجعلنى أتخرج فى الجامعة بتقدير معقول جدا ، فشعرت بالهدوء ولكن شعرت بكراهيتى الشديدة لها ، وكان ذلك الحب الذى كنت أظنه حبا قد مات ، وإذا بالكتاب المرجع لهذه المادة يكاد يكون مفتوحا أمام عينى فأنقل منه ما أشاء ، فأجبت إجابة راضية حتى انتهى الوقت المخصص وشعرت بالراحة الشديدة لأنها الإجابة المتميزة التى كنت أتوقع أن أجيبها ، وخرجت من الامتحان قاصدا موقف السيارات لأركب سيارة خاصة إلى بلدتى ، تحملت ما يقرب من ساعتين فى السيارة وأنا أحبس دموعى حتى إذا ما رأيت أمى اندفعت إليها باكيا وأنا لا أدرى لماذا أبكى ؟ شعرت أن

لا شىء يهم وأنى يجب أن أعود إلى الحياة فأنا لم أحب ومن يومها وأنا لا أحب أحدا ، كل ما أستطيع أن أفعله أقول كلمة حب ، الآلاف من كلمات الحب لأى واحدة تروقنى ، هذه (فهيمة) وهذه (فاطمة) وتلك (اعتدال) وتلك (عنايات) ، كل واحدة بقصة بحدوتة ولكن لم أشعر إطلاقا بحب لكل هاتيك البنات وظللت على هذا النحو حتى أحببت تلك الفتاة الجميلة لطيفة المعشر التى أكاد أبكى عندما أتذكرها الآن ، زوجتى أم عمرو هى حياتى وأكاد أجن الآن عندما أتذكر أنه يفصلنى عنها قارة بأكملها ومرض يلزمنى القعود فى الفراش بينما هى تحاول من أجل تربية أولادى الصغار ، أشهد الله أنها كانت وفية وأنى كنت لها وفيا ولم أبخل عليها بكلمة حب كما أنها هى لم تبخل علىّ بكلمة ود وامتنان وشكر وكلمة طيبة وهى نعم الزوجة رغم مرور سنوات كثيرة ورغم وجود الأولاد إلا أنها لا تزال فى قلبى هى الأولى والأخيرة ، وأشعر الآن أنى يجب أن أتوقف لأن البكاء يكاد يملك علىّ نفسى ولا أستطيع أن أتحدث عمّا هو الحب . حاولت دوما فى كل أعمالى باحثا عن تلك الكلمة السحرية بحثت عنها فى الحياة ولم أجدها إلا بصعوبة بالغة وبحثت عنها فى الكتب وتحريت عنها فى

أقاصيص عديدة ، أسمى ما يتصف به الإنسان ، ما هو الحب ؟ لا أدرى ، تسألنى وكأنى رجل مجرب قصصت عليك بعضا من قصص ربما للأسف لا أعرف ، إنما أعرف المودة والرحمة وتبادل المشاعر والرقة والذوق السليم والتربية الحسنة رأيتهم حقا فى زوجاتى الثلاث رغم اختلافى معهن فى بعض الأحيان ، إلا أننى لم أتزوجهن عن حب مطلق ، عن اقتناع فكانت المودة والرحمة هى السائدة إن كنت قد افتقدت إحداهن فقد كان هذا فوق طاقتى وطاقتها وأنا ألتمس لها كل عذر ، وإن كنت قد قسوت على زوجتى الأولى فإننى فعلت هذا وأنا مجرد إنسان بشر يعشق ويكره ويخطئ ويصيب ، والله وحده هو الغفور الرحيم ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قبل التوبة ويعفو عن الذنوب ويغفر المعصية فما بالك بالإنسان ؟ اللهم تقبل منى توبتى وتقبل منى رغبتى الصادقة فى الإخلاص والوفاء والعبودية لك وحدك يا الله وهذا حب الإيمان بالله هو الحب ، والحب هو الإيمان بالله وكفى .

***



الفصل السادس



كان لا بد من النظر إلى الوراء والعودة إلى الخلف لاسترداد الوعى وللبحث والتنقيب عن أشياء ربما تبدو تافهة للوهلة الأولى ولكننا إذا تأملناها نجد أنها فى غاية الأهمية فذلك الطفل الذى كان يحتضن أعواد البرسيم فى سعادة وحب وكله أمل فى أن يخاطب البرسيم ويحادثه، وتلك الزهرات الجميلة لنبات لا يعرف اسمه تطل على جدول صغير يشق الأرض كان من الممكن أن تغدو تلك المناظر والأحاسيس شيئا تافها وأن نعبرها عبورا وكأنها لم تحدث ولكن عندما نستعيد ذكراها ونتأملها تأملا عميقا نجد أنها كانت إحدى الينابيع المتدفقة خلال عقله الواعى وأيضا داخل عقله اللاواعى لكى تدفع الإنسان إلى أن يتعلم ، يتعلم من الجماد والحيوان والمكان كله ، وكان من الممكن أن تكون تلك الجلسات الهادئة بجوار مدفأة جدى بجمرات النار متوهجة حينا ومنطفأة حينا آخر . مجرد جلسات لا معنى لها وكذلك حكايات جدى حول عرابى وسعد زغلول وتحطيم قضبان القطارات والثورة العارمة للشعب المصرى ، كان من الممكن أن تمر على ذاكرة الفتى دون أن

تحدث أى أثر من آثار الانفعال الإيجابى ولكن ماذا لو تأملناها ؟ ماذا نرى لو أننا أيضا حاولنا تلمس الأعذار لذلك الفتى الذى كان جهده وكل يومه وليله أن يقرأ الكتب وكأنه (دودة قراية) بالتأكيد تلك ينابيع المعرفة كما أنها أيضا ينابيع الحزن ولأن الحياة ليست حزنا مبرحا أو سعادة مطلقة على طول الخط إنما هى تتقلب بين ذاك وتلك ، بين ألم ومسرة وحزن وفرح ، بين حب وكراهية بين أمل وألم ، إنها الحياة كما يحياها كل الناس . عندما جاءت ابنة آدم وانشقت الأرض عنها جميلة المحيا هيفاء الجسد سمراء الشعر تمشى فى دلال ويراها شابان فقط . شابان أحدهما هابيل والآخر قابيل ابنا هذا الرجل القابع بجوار الصخرة العالية ، إنهما متساويان من أم واحدة ومن أب واحد ولكن ما كادا يطالعان هذا الوجه الصبوح ، هذا الوجه الجميل الذى جاء وكأنها انشقت عنها الأرض بجمالها الباهر وجسدها المرصع بالحياة حتى تشبثا بها وتعاركا ، وحاول كل منهما الاقتراب منها كان لا بد من أن يفوز أحدهما بقلبها وأن يتحسر الآخر وأن يشعر بالكراهية وأن يحنق على الذى فاز بقلبها ، إنها شقيقتهما ولكنها تختلف عنهما اختلافا كبيرًا فلها رأس جميل دقيق الوجه دقيق التعبير وشعر منسدل ناعم يصل إلى

كعبها ونهدان بارزان وخصر نحيل وقوام ممشوق، لامعة البشرة ملساء ، يشعران نحوها بانجذاب شديد ولكنها قد اختارت ، اختارت أحدهما دون الآخر ، ماذا يفعل الآخر؟ هل يكتفى بالذهاب إلى الصحراء ؟ إلى الوادى ؟ إلى نبع النيل ؟ إلى نبع الفرات ؟ إلى الغابات؟ هل يصارع الوحوش؟ هل يأكل الثعابين؟ ماذا يفعل؟ وهى الوحيدة فى هذه الأرض الشاسعة؟ لا يرى غيرها ، ماذا يفعل؟ يدور ويدور ويدور ، يتحول إلى ثور هائج، يتحول إلى شيطان إنه لا يعرف الشياطين ولكنه يشعر الآن بأن جسده نار موقدة ويجب أن يطفئ هذه النار فيمسك بأخيه يضربه فإذا بأخيه يسقط دون أن يتكلم يهز جسده ، كثيرا ما نام أخوه وكثيرا ما أيقظه ، وأحيانا ما يضع الماء على وجهه وأحيانا ما يرق له قلبه، وأحيانا يضع فى فمه الفاكهة ولكن هاهو ذا أخوه لا ينطق ، تحول جسده إلى شىء بارد جاف ، انتفخ بعد قليل ، يدور حوله ، يراها قد قبعت بجوار الصخرة كما كان يفعل أبوه ، الذى انطلق منذ زمن إلى مكان ما ووجدها ترتعد ترتعش وأحيانا يرى الماء ينسال من عينيها الجميلتين ، يدور حول أخيه ، يجرى هنا وهناك ، يصيح ، يستغيث ، ماذا فى أخيه؟ ربما يعود أبوه ربما

يسأله ماذا فعلت بأخيك؟ بماذا يجيب؟ كان يظن أنه يحاول أن يخفيه حتى يبتعد عن تلك الجميلة ويتركها له ولكنه هاهو ذا قد سكت فجأة ، ورقد وكأنه جزع شجرة قد اقتلعت . يمضى فى الصحراء ثم يعود ويجد جسد أخيه قد انتفخ أكثر وتورم والعينان منطفئتان والفم مطبق ، الذى كان يتكلم لم يعد يتكلم ، الذى كان يبتسم لم يعد يبتسم ، عيناه مبحلقتان فى فراغ ، يعود إلى الفراغ إلى الرمال إلى الأشجار يتخبط فى الغابة ، يرى غرابا وأمامه آخر مهيض الجناح لا حراك فيه ، يحفر حفرة ثم يضع الغراب المهيض فى الحفرة ثم يركمها ترابا فوق التراب ، حتى يختفى الغراب المهيض ، يبدو أنه يجب أن يفعل هذا بأخيه ولكنه سيفقده ، إلى من سوف يتحدث؟ إلى من يتكلم؟ هل يذهب إلى الجميلة؟ يتحدث مع الجميلة؟ هاهى ذى الآن بمفردها وشقيقه لا يتحرك ، يبكى فى مرارة ، يحفر حفرة يفعل مثل الغراب يوارى أخيه التراب ثم يجلس فوق التراب ينظر حوله ، جاءت إليه ارتمت بين أحضانه ، شعر بلهيب جسدها ، قربها منه ، أمسك شعرها بيده ، فى غلظة راح يضربها ، لقد فعلت به ما فعلت ، ففعل بأخيه ما فعل ، إنها السبب، إنه يمقتها ولكن شفتيها تقتربان تلتصق بشفتيه ، جسدها الناعم

يقترب من جسده الخشن ، يرتعد جسده يحتضنها بقوة ، يدوس على صدرها ربما تسقط أو تصمت كما صمت أخيه ربما تكف عن الكلام ، عن الابتسام ولكنها لا تكف بل تصدر همهمات غريبة تسرى فى دمه ، هاهو ذا ينتشى يبلغ ذروة الانتشاء يصيح أنا ، أنا ملك الكون ، وتتكرر المأساة هكذا دوما ، ثم تزداد حركتها دورانا ، ذلك الصراع يتكرر كدومات تزداد اتساعا وتزداد عمقا وتأخذ بين ذاك وذلك فى دورانها العديد من البشر ، حتى يومنا هذا ، أليس هذا ما يحدث؟ أليس هذا ما حدث وسوف يحدث؟ لسنا غرباء فى هذا الكون ، ما نتصور أنه تافها يكون فى الحقيقة هو الينبوع الأصيل ، ويأخذ الصراع أشكالا مختلفة ولكنه أبدا لا يتغير (يبدو صوت طائرة عاليا) الصراع نفسه الذى من أجله خرج آدم من الجنة ، هذا أمر ربك وقد كان ربه يعلم هذا وقد خلقه لكى يعصيه ويخرج من الجنة ، لم يخلقه من أجل الجنة ، هذه حكمة الله سبحانه وتعالى ، فإذا تأملنا الفتى فإنه يكون غريبا عن تلك الصراعات الشبيهة ، عش فيها وبها لكن الفكاك ، لا فكاك من ذلك الينبوع الذى يشرب منه . قد خرجت من سريرى ومشيت خطوات بعيدة نحو شارع جانبى ، تأملت الأشجار ، تأملت الورق

الأخضر ، الورقة الخضراء التى ما إن ظهرت حواء حتى أسرعت إلى تلك الأشجار وأمسكت بأوراقها لتخفى عورتها وهكذا فعل آدم ، تلك الأشجار هى الأشجار نفسها ، لم تختلف ولن تختلف فى تلك المنطقة بجوار المستشفى ، حديقة أنيقة صغيرة الحجم جميلة الشكل بجوارها الكثير من الشجر ، أشجار جميلة أراها فى سعادة ، أشكر الله على أننى عدت ورأيتها وأتذكر ، لابد من الرجوع إلى الينابيع أو إن صح كما فكرت فى الليلة الماضية إلى هوامش الكتاب فلابد من الرجوع إلى المصادر ، هل أكتب آدم ثم ولديه؟ أم أكتب القريب جدا منى والذى تأثرت به مباشرة حتى لا أخوض فى موضوعات فلسفية؟ لقد تغير الزمن ولكن قومى لا يشعرون بالتغيير إلا بعد أن يحدث ويواجهونه وكأنهم كانوا نائمين لا أدرى لماذا نفعل بأنفسنا هذا ، لقد تغير الزمن ، فقدنا لغتنا الأصلية ولم نعد نفهم الأجداد وفقدنا الإحساس بالأمان ورحنا نتاجر فى أنفسنا نتاجر فى الموت قبل أن نعيش الحياة ، تعودنا هذا والعياذ بالله ، كل منا مهموم بذاته ، بنفسه ، أمكث فى المستشفى فى سرير واحد وفى غرفة واحدة أتلهف إلى من يزورنى . زارنى اليوم زوجان من اليونان كنت قد قابلتهما فى حجرة الأشعة وتحدثنا

وضحكنا والألم يحاصرنا من كل جانب ، ولكن ضحكنا ومضيا هم نحو طريق الشفاء ثم جاء اليوم ليعاودا الكشف بعد أن أصبحا فى صحوة مقبولة جاءوا إلىّ بالورود ، وورود جميلة ملونة حمراء وصفراء ومن كل لون جاءوا إلىّ بالورود ، ابتسما وأعطتنى زوجته الوردة وهى تبتسم وتدعو لى باليونانية بأن أشفى ، ابتسمت سعيدا ، أخذت الورد ، احتضنته ، كدت أنحنى على يد السيدة أقبلها لولا حياء فلاح قادم من ميت بره لا يعرف كيف تقبل يد النساء ، انحنيت شاكرًا ، أخذت ابنتى الورد ، وضعته فى آنية جميلة بجوار الفراش ، قلت أخرج حتى لا أبكى فالبكاء يؤلم صدرى ، الضحك والسعال والابتسام والكلام ، كل هذا يؤلم صدرى ، أشكو لمن؟ لله ثم أعود للحديث عن مصادر وينابيع هذا الكتاب الذى كتبته وأنا أتقلب بين جمر الألم وجمر الحزن وتراودنى أحاسيس غريبة ولولا هذا لما كتبت ذلك الكتاب ، لهذا أبدأ بجدى هو المصدر الأول ، (سيد) سيد كان يعمل فى شركة قناة السويس ، كانت فرنسية - إنجليزية ، وعندما سقط وتحطمت ضلوعه أحسوا أنهم أمام مشكلة ولكن لأنه مصرى الجنسية فلا يهم لأنه كان فى ذلك الوقت المصرى لا يساوى شيئا ، بل تخلصوا منه فألقوه فى

إحدى المستشفيات الحكومية ، ألقوه هناك دون لقب أو اسم ثم مزقوا ملفه الخاص فلا أحد يعرفه إنه كان هنا مهندسًا أو عاملاً أو مرشدًا اسمه سيد له صلة بشركة قناة السويس ، عندما جاء أبى وهو ابنه الكبير يلتمس أباه ويسأل عنه ودخل مكتبه وسأل أصدقاءه الذين كانوا يتقربون إليه بالأمس بقطع الشيكولاتة والحلوى والابتسام والمرح . قابلوه اليوم بجفاء شديد وتساءلوا من هو سيد هذا؟ بكى ، توسل إليهم ماذا حدث لأبيه؟! ولكن لا أحد يجيب .خرج ومشى فى الشوارع هل ينادى يا أبتاه ، نحن مازلنا صغارا كيف تتركنا هكذا فإذا بعامل من العمال يأخذ بيده ويقول له سأريك أين أبوك ولا تخبر أحدا بأننى أنا الذى أرشدتك إلى أبيك ، فوجد جدى وقد ألقى على سرير باهت يعانى آلام الحسرة والألم ، فحمله وعاد به إلى بلدتنا ، جدى عندما شفى كنت قد بلغت الرابعة أو الثالثة ، لا أذكر ، فاحتضننى وأخذ يعلمنى وأخذ يقص علىّ قصصا ليست هى بحكايات أخوالى ولا بحواديت جدتى ولا بالحواديت المنقوصة التى تحكيها أمى ، فقد كانت لا تتمها أبدا فهى تنام عندما تقص حدوتة ، تنام فى منتصفها تماما ، نعود إلى جدى ، كان يقص علىّ تاريخ مصر الحديث ، ماذا حدث فى عهد عرابى لماذا

أسموها (هوجة عرابى) كان يقص علىّ أقاصيص بأشخاص حقيقية وهو يحتسى القهوة ويعطينى بعضا منها وأنا أنظر إلى الجمر المشتعل الذى يضعه جدى فى الموقد الفخارى أمامه وقد ارتدى جدى ملابس الفلاحين أو الأعراب لا أدرى ، إنما هى غريبة عليه ولكن تضفى عليه وقارا محببا إلى نفسى ، يقرأ الجرانين كما يقولون ثم يحكى لى ما بها ، ثم يعلق على تلك الأخبار التى يلقيها على مسامعى وبها من الأسماء ما لا أعرف ، معلقا عليها بحكايات قديمة تحكى أصل الموضوع ، هذا هو جدى ، ذلك الرجل البسيط الذى كان يجلس متربعا على مخدة بيضاء وأمامه عدة القهوة ثم يحكى عن ثورة الشعب المصرى ، مصر أفضل بلاد الله فقد ذكرت فى القرآن الكريم ، وكان يعلمنى الصلاة ويرسخ فى قلبى الإيمان .

وهاهى ذى جدتى ست أبوها ، هذا هو المصدر الثانى أو الينبوع الثانى وإن كنت أفضل أن يكون الينبوع الأول ، جميلة ، الوجه مستدير ، حمراء مشوبة ببياض خفيف ذات شعر أصفر ناعم ، رغم أنها جدتى قوامها ممشوق وجميل وحديثها مثل حديث الملائكة ظللت بين أحضانها حتى ذهبت إلى الجامعة ، هى كل حياتى ، هى التى تأخذنى

بالأحضان هى التى تذهب معى لكى تغسلنى من أدران القذارة التى يسببها لى الشارع ، هى التى تعلمنى كيف أرتدى الملابس؟ كيف أمشى ؟ كيف أتكلم؟ كيف أكون رجلا نظيفا؟ النظافة من الإيمان ، النظافة يجب أن يتعلمها الإنسان عندما يكون صغيرا فيكون نظيفا مؤمنا ، هى تؤمن بالله ولهذا تصلى ، ويجب أن أصلى وأن أحفظ القرآن هذا يكفى ، الصلاة وحفظ القرآن والابتسام فى وجوه العباد ، فأنت لا تدرى ماذا يحدث لك فى الغد والدنيا لها صاحب ولها ملك الملوك هو الله . فلا تأبه بالدنيا ، لا تسأل عن ماذا سوف يحدث فى الغد ، الغد بيد الله ، أحاول أن أكون نفسى أنا ذاتى ، أحاول أن أكون شريرا ، أطلب الطعام ثم ازدريه ثم أطلب غيره ، و لا تكف هى عن الابتسام ، ولا تكف عن صناعة الطعام من أجلى هكذا ، تعطينى بعض الأخشاب الصغيرة تصنع منها لعبا جميلة الشكل . (لم أستطع المواصلة وسأتوقف) .

* * *



الفصل السابع



عودتنى قريتى كما عودت ذلك الفتى الذى نتحدث عنه أن يرجع إلى المصدر أو الينبوع ومصدر المياه عندنا النيل ونحن ولدنا بجوار النيل وتسكن أسرتى بجواره ، النيل عريض متسع أحيانا يفيض ويجرفنا يأخذنا يشتاق إلى أحضاننا ، عندما كنا أطفالا أو صبية كنا نلهو بين أحجار الشاطئ وبين مياهه العذبة، إنه يتحرك بسرعة نرى حركته نرى الأسماك تتقوس ، أسماك صغيرة بيضاء نأخذ فى جمعها ، تحضر بعض الفتيات السلال الصغيرة نضع فيها ماجمعناه نذهب إلى بيوتنا وكأننا قد حصدنا حصاد النيل هاهو ذا يا جدتى ما حصلت عليه ألست ذكيا فطنا عاملا مجتهدا ؟ تبتسم ، أقول لها أريده مقليا ، أجلس بجوارها أرقبها وهى تضع الأسماك الصغيرة فى إناء به دقيق ثم تلصق كل خمسة بكف واحد مثل كفى الصغيرة تضع فى المقلى ، أشم رائحة السمك تقليها هاهى ذى قد تحولت من اللون الأبيض إلى اللون الأحمر إلى اللون البنى الغامق تحملها وتضعها فى إناء أمامى أحاول أن ألتهمها ولكنها ساخنة تلسعنى ، أنتظر ، لكنى لا أطيق ، أمسكها ثانية تلسع النار

يدى ، لابد من أكلها ، سمك صغير لا يفى معدة طفل ولكنه لذيذ ، تحدثنى جدتى عن أسماك بور سعيد ، عندما كان يحضر جدك سمكا يسمى البورى أضعه فى إناء ثم أشق بطنه فتخرج البطارخ لها طعم دسم يحبه جدك كثيرا ، أضع البطارخ فى إناء وحده ، أضع عليه بعض الملح ثم أتركها لنأكلها فيما بعد ، ما البطارخ يا جدتى؟ تقول : بيض السمك . أقول : وهل يضع السمك بيضا مثل دجاج بيتنا؟ تقول : نعم ، مثل البط والأوز وغير ذلك ، هل الأرنب يبيض؟ أريد أن أرى بيض الأرنب . تقول : لا ، الأرنب يلد ، هذا أمر شائك من الذى يلد ومن الذى يبيض؟ تقول جدتى كل شىء يولد ولكن بطريقة مختلفة ، بعض الحيوانات تضع البيض قبل أن يخرج الجنين ، وبعض الحيوانات تضع فى بطنها حتى يخرج . الأسماك تحتفظ ببيضها داخل بطنها ، لن آكل السمك ميتا يا جدتى ، يا ولدى السمك حلال ، هكذا قال الله سبحانه وتعالى ، الميتة هى ميتة الأرض ، وقد حرمها الله علينا ، إذن هناك أشياء محرمة تقول : نعم ، الكذب حرام ، السرقة حرام ، أخذ الأشياء التى تخص غيرك حرام ، النظر إلى النساء حرام ، هذه أشياء محرمة يا ولدى ، ولكن كل شىء بعد

ذلك حلال ، أن تأكل فهو حلال ، وأن تعمل فهو حلال أن تقول الصدق فهو حلال ، حسنا يا جدتى ، أعطنى بعض السمك إذن ، تقول انتظر سوف أجعل جدك يرسل فى طلب سمك من بور سعيد ، سمك بورى و دنيس وأنواع أخرى لم أعد أحفظها ، أنواع الأسماك التى كانت جدتى تتحدث عنها بل هناك حيوانات بحرية لم أعد أذكر منها إلا ما أكلته فيما بعد مثل : الجمبرى ، والكابوريا أكلتها ذات مرة وأنا فى فرانكفورت بعض الصخور التى تنمو فى قاع البحر ، اشتراها أخى من السوبر ماركت وقال : إنها صخور البحر ونباتات البحر ومخللات البحر يحفظها فى برطمان كبير ، أكلت منها كثيرا كل يوم فى الصباح ، أفتح البرطمان وأحضر طبقا كبيرًا وأظل آكل منها ، لها أشكال غريبة حمراء وصفراء وزرقاء وأشكال بعضها يشبه القرنبيط وأشكال بعضها يشبه ساق اللفت المخلل ولكنها كانت لذيذة الطعم شهية جميلة جدا ، فى الوقت نفسه كنت أحضر الكثير من البطارخ من السوبر ماركت وأتذكر جدتى . ذات يوم ذهبت إلى حديقة النباتات فى فرانكفورت ، كنت وحيدا أشكو الوحدة ، أخذت معى بعض الطعام وبعض المعلبات التى أحبها وذهبت إلى حديقة النباتات ما أجملها حديقة ، هى أجمل

حديقة فى العالم رأيتها ، بها أكثر من مليون نبات ما بين الطويل والرفيع والقصير والمزركش والملون ، لافتات صغيرة دقيقة عليها أحرف لاتينية وأخرى ألمانية . أقرأ ، لا أفهم ، لا يهم الفهم ، أشجار باسقة طويلة وكأنها مثل الجبل الصلد تقف شامخة لا تهتز رغم الريح الباردة فى شهر أكتوبر فى ألمانيا ، أدخل إلى الصوامع لأرى أشكالا وألوانا من النباتات ، تعبت ، ذهبت إلى الكافتيريا ، جلست هناك رأيت جدتى مقبلة ، كانت تحمل كوبا من الشاى قدمته لى ، ابتسمت وقلت لها بالعربية أهلا يا جدتى ابتسمت المرأة ولم تقل شيئا ، وانسحبت إلى داخل الكافتيريا ، وذهبت خلفها أجذبها من يدها ، جدتى لماذا لا تقولين شيئا؟ فجأة تذكرت أنها سيدة ألمانية ، اعتذرت بسرعة ولكنى عدت إلى المائدة وتذكرت أنا جدتى بالفعل ، لم أعد أعرف هل هى سيدة ألمانية تقوم بالخدمة فى تلك الكافيتريا أم أنها جدتى ؟! هذا أمر صعب . كيف أستطيع حسمه ؟! عدت إليها ، تحدثت إليها بالإنجليزية لم تجب ، تحدثت إليها بالعربية لم تجب ، تحدثت إليها بالألمانية ابتسمت وقالت: سآتيك بآنية أخرى للشاى بها الكثير من الشاى ، يبدو أنك تحب الشاى كثيرا ، قلت لها بالعربية : نعم يا جدتى ، نعم ، ماذا أفعل؟ أنا

أحب الشاى ، وأنا فى المستشفى الآن لا أحب الشاى ، ابنتى تحب الشاى تأتى به كل ساعة ، تأتى به وتصنع لى فنجانا ، أشرب رشفة لا أستطيع البلع ، أبتلع الأشياء بصعوبة ، أريد أن أشرب ، يسألنى الطبيب أشرب كثيرا ، كيف أشرب ثلاث لترات ، أتمنى أن أشرب ، أهفو إلى النيل ، ماذا لو أحضروا لى كوبا من ماء زمزم ، لو شربت ماء زمزم لشفيت بالفعل أمسك الكوب ، أدعو الله سبحانه وتعالى أن يحوله إلى زمزم ، أنظر إليه ، ماء رقراق جميل ، اشرب يا فتحى هذا ماء زمزم إن شاء الله ، اللهم اشفنى وعافنى وأتم علىّ نعمتك بالشفاء العاجل يا رب ، اللهم أشفنى شفاء لا سقم بعده ، أتجرع جرعة أسعل ، أضع الكوب ، لا أستطيع الشرب ، أتمنى أن أحسوا من (القلة) مملوءة من ماء النيل العذب ، لماذا يختلف طعم ماء النيل عن بقية مياه العالم؟ لماذا لا نرتوى هنا؟ الماء هنا نقى جدا ، يأتى فى قارورات جميلة يبدو متلألئًا مثل الفضة ، لماذا لا أشرب؟ أرتشف رشفة أخرى ، لا أطيق ، أتمنى ماء النيل ، كم شربت ! أرفع الكوز إلى فمى وأشرب حتى أرتوى ، عمى أحمد كان يحضر لى ماء البئر ، البئر من الأرض ، لا تأتيه المياه من أعلى إنما تنبثق المياه من جوفه ،

يعود عمى أحمد إلى داخل البئر إلى عمقه ، يهبط ويهبط ويهبط حتى إننى أخاف فأنادى عليه ، يجيبنى لا تخف أنا قادم إليك ، يعطينى كوزا من الماء باردا وجميلا وطعمه مثل السكر ، لماذا نقول عن كل شىء حلو إنه مثل طعم السكر؟ عندما آكل قطعة من السكر لا أستطيع أن آكل بعدها شيئا ، ولكن مع هذا أشرب كثيرا من السكر ، أقصد ماء البئر ، أشرب كثيرا من ماء النيل ، لدينا فى المنزل مياه ، أشرب بالقلة وأشرب بالكوب سواء عندما آتى من سفرى ، يكون هو أول شىء أسأل عنه ، هل لديكم ماء أشربه ، هل من ماء النيل؟ بالتأكيد ، سيكون من ماء النيل ، أخى يستقبلنى هكذا ، عندما يقبل من سفر تكون فى سيارتى أكثر من زجاجة مليئة بماء النيل يشرب ويرتوى ويقول الله ، هكذا قال لى جدى ، ماء النيل هو نهر من أنهار الجنة يا ولدى اشرب منه ما شئت ، أذهب إلى النيل مع أصدقائى ، عندما كنت طفلا أسبح فى ماء النيل وعندما كبرت - إلى حد ما - لم يكن عندى من الوقت ما يسمح لى بشرب ماء النيل فكنت أكتفى بالجلوس على الأحجار والنظر إلى مياه النيل ، أرقبه وهو يسير، يجرى ، يندفع وكأنه مجموعة من الثوار يجرون ، تقابلهم ثلة من جنود ، يطلقون النار ، يسقط

شهداء تحيا مصر ، تحيا مصر والسودان ، يسقط الاستعمار ، المياه تندفع ، تكتسح الجنود ، تبتعد الجنود ، الماء يسير ، يدفع كل شيء بقوة ، تحمسوا ، حاربوا . حارب أنت المرض ، يجب أن تكون محاربا شجاعا ، يقول الدكتور بانديا الهندى القادم من أعماق الهند وهو أيضا كان يسكن فى قرية ثم بعد أن انتهت دراسته جاء إلى لندن ليزداد علما ولكنه بقى هنا ، شرب من ماء نهر (التيمس) فبقى هنا ، نسى النهر فى الهند ، لا أدرى ما اسم النهر فى الهند؟ لا بد من أن لديهم أنهارا لأنهم متحضرون ، المتحضرون هم سكان وادى الأنهار ، النيل صنع مصر ، النيل صنع الوحدة ، وصنع الإيمان ، النيل الواحد ، نظام الرى واحد ، نظام الزراعة واحد ، الله واحد ، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ، هكذا قال جدى ، علمنى ، وقالت جدتى : كل شيء فى الدنيا حلال إلا ما حرمه الله ، كيف أعرف يا جدتى الحرام من الحلال؟ أصبحت أشك فى أشياء كثيرة وأخاف أن أرتكب الحرام ، يا ولدى إن قلبك الطيب وعقلك الذكى سوف يعرفان الحرام أو الحلال ، لا تجهد نفسك فقط انظر إلى قلبك ، كيف أنظر إلى قلبى يا جدتى ؟ هل أخرجه ، إن قلبى ليس معى ؟ تقول إنه هنا وتشير إلى

صدرى ، يااااه يا جدتى مرض القلب يا جدتى أعانى من مرضه . ثلاث عمليات فى القلب يا جدتى كنت تملكين قلبا أبيض تملكين شفافية جميلة ، تقولين كلاما سهلا واضحا لا تعقيد فيه ، الحلال حلال ، والحرام حرام ، يجب أن تصلى وأن تؤمن بالله وأن تترك كل شىء بعد ذلك إلى الله لا تفعل شيئا تشعر أنه حرام ، فقط حاول أن تكون أنت ، أن تؤمن بنفسك أن تستفتى قلبك ولو أفتوك ، أقول كيف أستفتى قلبى ؟ هل أنا شيخ معمم؟ نحن نسأل مدرسينا ، نسأل مدرسى المدرسة ، وشيوخ المسجد فيقولون كلاما كثيرا ، ثم يقولون فى النهاية الله أعلم. إذن لا يعلمون ، تقول نعم يا ولدى العلم من عند الله يجب على الإنسان أن ينظر داخل نفسه ، تحكى لى قصة آدم ، كيف استمع إلى زوجته ، لو كان استمع إلى نفسه لما قضم الثمرة المحرمة ولما خرج من الجنة ، أقول لها لو بقى فى الجنة لما جئنا نحن يا جدتى ، تقول هأنتذا قد عرفت ومن عرف خير ممن لا يعرف ، تعلم يا ولدى ، تعلم ، انظر إلى كل شىء تأمله ، لا تنظر إلى كل شىء بعينين براقتين ، لا تحدق فى الأشياء وتكتفى بالتحديق بل انظر ثم ادخل إلى داخل الأشياء ، كيف أدخل إلى داخل الأشياء يا جدتى ، هل

أتكلم معها ؟ أن تخاطبها أن تحادثها ، آه يا جدتى ، سأذهب إلى حجرتى ، أذهب إلى حجرتك ، أنظر إلى السرير إنه عملاق ضخم ذو أعمدة سوداء طويلة ، وعليها ناموسية ، والناموسية مرسوم عليها ملائكة ذات أجنحة بيضاء وكأنها فراشات تطير أو ربما طيور كبيرة تطير ، لكنها لها رأس آدمية تشبه الفتيات فى قريتى ، فتيات قريتى جميلات الوجوه ، أرى كريمة ابنة عمى بيضاء الوجه ، جميلة مليحة مثل تلك المرسومة على الناموسية ، هأنذا أتكلم مع السرير ، السرير يتكلم معى، يقول أنا مثلك أتكلم ، أنا أشعر أنا أحس ، تعاملت مع الأشياء هكذا يجب أن أكون رقيقا ورفيقا ، إنها كائنات إنها تعبد الله ، يقول جدى ما من شىء إلا يسبح باسمه ، إذن هى تتكلم ، إذن هى تقول سبحان الله كما فعل جدى ، كل صباح وكل مساء يقول سبحان الله كثيرا وأردد خلفه سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، أكرر مرات ومرات ، أذهب إلى حلقة الذكر ، أقف قصير القامة ولكنى أردد سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ثم أردد اسم الله ، الله ، الله ، الهنود فى إنجلترا يجتمعون كل أسبوع لكى يرددون اسم الله آلاف المرات ، يقرأون القرآن ثم يختمونه بالدعاء ثم يأكلون بعض الحلوى وينفضوا ،

هكذا يفعل الباكستانيون أيضا ، وهكذا يفعل بقية المجتمعات الإسلامية ، الإسلام هنا له طعم آخر مختلف ، يتبادلون المصاحف ، يتبادلون أشرطة الكاسيت المسجل عليها القرآن الكريم بأصوات المقرئين من مصر ، لماذا من مصر ؟ لا أدرى ، إن لهم أصواتا عذبة ولهم شهرة مدوية فى كل مكان . تحدث معى بانديا أنه للأسف الشديد لا يعرف الإسلام ، أحاول أن أتذكر جدتى ماذا تقول عن الإسلام؟ الإسلام أن تكون مسلما ، أستزيدها ، ما الإسلام يا جدتى ؟ تقول: أن تكون مسلما ، هل أنا مسلم الآن ، نعم يا ولدى أنت مسلم ، لأنك تقول الله من يقل الله فهو مسلم ؛ هذا أمر سهل ، أقول لبانديا . أن تقول الله ، وكفى ، الله واحد وكفى ، يقول هذا حسن ، سأحاول ولكنى لا أعرف العربية ، أحاول أن أدخل إلى قلبك ، جدتى تقول قلبك أو صدرك ولكن أحيانا يكون قلبك فى عقلك ، وأحيانا أخرى يكون عقلك فى رجليك ، أحيانا تقول جدتى رغم سهولة اللفظ وعذوبته أشياء فى غاية التعقيد ، لماذا؟ هل لأنها ولدت فى الصحراء؟ أسرتى من البدو ، لماذا تقول هذا الكلام الذى يبدو لى أنه صعب الفهم ومع هذا تقوله لى فى سهولة شديدة ، الإسلام هو الإسلام ،

الله هو الله ، لا تريد تعقيدا ، تصلى ، وأن تقول الله فقط وأن تأكل وتشرب من حلال وألا تفعل الحرام ، ما الحرام ياجدتى ؟ يا ولدى أنت تسأل كثيرا ومن يسأل كثيرا يتعب نفسه فلا تسأل ، لا تسأل كثيرا طالما تشعر بأنك سعيد بأنك مسلم وهذا يكفيك ، أما إذا كنت غير سعيد فهذا أمر آخر ، لا يا جدتى والله ، أنا سعيد بالفعل، أنا أشعر أحيانا لأن هناك بعض الناس لا يقولون مثلما تقولين ، ليس لك صالح بالآخرين ، كن فى نفسك ، تذكر أبدا يا ولدى أن لك عيوبا مثل الآخرين فلا تقل على طفل من زملائك إن هذا قبيح وهذا سليط اللسان ؛ أيضا أنت إنسان مثله ومن الممكن أن يقول عنك ما قلته عنه ، كن فى نفسك ، لا تحكِ أسرارك لأحد كن دائما مع الله ثم مع نفسك ، حاولت يا جدتى ، حاولت ولكنى لم أستطع ، رأيت الظلم يحيط بى ورأيت العدالة تختفى وسألت قلبى فأجابنى ، يجب أن تحارب ، حاربت يا جدتى ، كانوا يريدون أن يعطونى المال ويأخذوا قلبى وعقلى ، وأخيرا أخذوا جسدى ، حبسونى ، اعتقلونى ، ورفدونى ولكنى حاولت أن أحمل قلبى على يدى وأن يعمل عقلى بلا خوف ، أنت غرستِ فى نفسى أشياء لم أستطع ولا أستطيع أن أحذفها من قلبى ، أنت

السبب يا جدتى ، إننى أراك فى كل لحظة كلما صليت ألمحك هناك ، كلما ذهبت إلى الكعبة أجدك بجوارى ، لماذا يا جدتى تحاصريننى إلى هذا الحد؟ لماذا تصرين على أن تكونى معى فى كل لحظة؟ لماذا تعاقبيننى دائما؟ إذا ما حاولت ذات مرة أن أبدو مثل الآخرين ، فالآخرون يعيشون ، يلهون ، يتندرون ، أجدهم لا ينفعلون كثيرا ، يجلسون فى صمت أو يضحكون أو يتواعدون حول كأس وشراب ، وأنا لا أفهم شيئا ، يقولون لى إننى متخلف ، هل أنا متخلف يا جدتى ؟ هل أنا مجنون يا جدتى ؟هل أنا عاقل أم مجنون ؟ أجيبى لقد ورثت عنك أشياء كثيرة لماذا لم تعلمينى جيدا ؟ لماذا لم تقولى لى ما الحرام وما الحلال؟ لماذا تركتِ هذا السؤال بدون إجابة محددة ، كان يجب أن تقدمى كتابا كاملا ، الحرام محددا ، من رقم واحد إلى رقم ألف ، والحلال محددا من رقم واحد إلى رقم ألف ، فانظر إلى الكتاب فإذا كان هناك ما يريبنى ، نظرت إلى الكتاب ، فوجدت ما هو حلال أفعله وما هو حرام لا أفعله ، لكنك قلت اسأل قلبك ، كيف أسأل قلبى يا جدتى .وقلبى بين ضلوعى؟ كيف أسأل عقلى وقلبى ، وهل قلبى وعقلى واحد؟ لم تجب جدتى ذهبت وبكيت ، بكيت على كتفها

عندما ذهبت ، ولم أجد من يحدثنى عن ثورة الشعب المصرى ، جدتى ماتت دون أن أراها ، عدت إلى قريتى ذات مساء ، كانوا يعلمون أنى متعلق بجدتى تعلق الولد بأمه، حاولوا أن يخبرونى بأمر وفاتها فى سهولة ويسر وكيف تخبر إنسانا أن أعز ما لديه قد مات؟! قبلت خبر وفاتها وأنا أرنو إليها ، نعم إنها لم تعد ، أنا أراها أمامى ولا زلت أراها، أعطونى مهلة كى أبكى جدتى ، وأسألها يا جدتى ، ماذا أفعل لقد سقطت من فوق الشجرة؟ ابتسمت وقالت ولكنى أراك سليما معافى. أقول لها : لقد سقطت من فوق شجرة التوت ، قالت: لم تتسلق فى حياتك شجرة ، وأنت لست مثل بقية الأطفال الذين يتشاجرون فيمزقون ملابسهم ويتسخون ، أنت دائما تخاف من كل شىء، كيف عرفت جدتى هذا السر اننى لم أتشاجر فى حياتى مرة واحدة؟! أذهب إلى أمى الأسمراء الوجه أسرتنا بيض الوجوه أو حمر الوجوه ، ولا يوجد بيننا أسمر اللون إلا هى ، حتى أمها بيضاء شقراء . من أين جاءت هى باللون السمر؟! دقيقة الملامح ، كأنها عروسة صغيرة من تلك التى يرسمونها فى المجلات المصورة ، أمى لا تقل شيئا ، أمى لا تحب الكلام ولكن تعمل ، منذ الفجر تذهب ، تحضر لى اللبن عندما

أعود بعد صلاة الفجر أجد كوز اللبن الساخن أشربه كل يوم ، لم أفكر قط كيف تحصل هى على اللبن وكيف تذهب هى إلى حظيرة المواشى لكى تحلب بنفسها هذا الكوز الجميل من اللبن فتحضره إلىّ بعد صلاة الفجر مباشرة؟ عندما أنظر إليها أجد مثالا للصبر والتفانى فى خدمة الآخرين ، تحكى حكاية ، ولا تتمها ، دائما تنام ، قبل أن تتم الحكاية، أتذكر عندما كنت صبيا أذهب إلى جدتى ، أرنو إليها وأقول لماذا يا جدتى . . أمى سمراء؟ فتقول وهى تبتسم إنها ليست أمك ، أغضب ولكنى أنظر إليها وعساها تغضب هى فتبتسم وتقول لها جدتى لا تغضبى يا خالتى أنا أمزح ، نعم يا أمى كنت دوما لا تتحدثين ، بل تقومين بالعمل(يبدأ الحديث وخروج الكلمات بأسى بحزن وتعب) دون حديث ودون كلام لم تعرفى يوما الملل ولا الشكوى دائما تبتسمين ، عندما تقدم بك العمر جلست فى سكون ، تنظرين نحونا بابتسامة شاحبة تغطى وجهك ، ماذا يحدث لك الآن؟ فيم تفكرين؟ ولدك الكبير الذى كان حبك الأول كما كنت تدللينه يرقد بعيدا عنك مريضا قدم لى أحد الأصدقاء حلوى ونوعا من الطعام صنعته زوجة ابنه، حاولت أن آكله ، ارتعشت يدى ، حاولت بيدى الشمال فلم

أستطع ، قام هو يطعمنى ، صديق لم أره إلا منذ ثلاثة أيام ، باكستانى الجنسية ، كان له صديق أتى لى بورد ، وضعه فى آنية ثم وضعه أمامى، فى اليوم التالى ابتسم الورد ، وتفتح فتذكرتك يا أمى ، يا نبع الحنان يا نبع الحب الصادق ، قروية تجهل الكتابة والقراءة ولكنها جمعت الحكمة كلها ، عندما كان يسبها أبى كانت تهدهده حتى يهدأ ، عندما كان يشعر باليأس تظل معه حتى يتذكر وجود الله فيصلى ويعود إلى حماسه ، عندما تنزل إحدى مصائب الدنيا تهونها علينا وتذكرنا بأن لنا أيضا نعم أخرى. لم تزل باقية ، حاولوا قتل عمى لسرقة مزرعتنا وثار أبى وهدد ولكن استطاعت وهى فى المنزل قابعة ولم تخرج قط ، استطاعت أن تجعل من حاولوا قتل عمى يأتون إليه ويقدمون الاعتذار ، لست أدرى كيف ولا تفسير لدىّ ، عندما جاءت حركة التأميم وشلوا حركة أبى فى التجارة ابتسمت أمى وقالت لدينا المزارع ، كان أبى لا يفهم فى الزراعة ، وكان يحكى لنا كيف يضحك الفلاحون عندما يفعل شيئا أو يأمر بفعل شىء ، ولكنها كانت دائما تقول له : أنت على حق . ثم يأتى المحصول الخاص بأبى أفضل كثيرا من محاصيل الفلاحين الذين ضحكوا عندما قام أبى بزراعة محصوله . لم تخرج قط من

البيت ، عندما وعيت الدنيا وجدتها فى البيت وعندما ذهبت إلى الجامعة ، لم تخرج من البيت وعندما عدت من ألمانيا ، حياتها البيت والأسرة الكبيرة ، الجميع هنا يقولون لها يا أمنا ، أعمامى يقولون لها يا أمى وأخوالى يقولون لها يا أمى وأنا أيضا بعد أن كنت وأنا صغير لا أقول لها ذلك ولكنى عرفت قدرها عندما رأيتها فى المواقف الصعبة هى الأكثر صلابة ، فى كل ما مر بأسرتى لم أجد أشد تماسكا من أمى التى لا تقرأ ولا تكتب ، وعندما قررت الحج حملتها فى سيارتى وذهبت بها إلى المطار وأنا خائف أشد الخوف ، لماذا لم أذهب معها ، لا أدرى ، لماذا لم يذهب أبى ، قال إنه قد حج وإنه يجب أن يكون أحدنا فى البيت ، لم نعد مثل الزمن القديم ، لقد أخذوا تجارتنا ولم نعد نتاجر إلا فى القليل ولم تعد أرضنا تفى إلا بثلث الأشياء ، لهذا أصر أبى على أن يمكث وأن تذهب أمى لأن هذه رغبتها ولأنه أيضا قد حج بمفرده ، وبدونها من قبلها فلتذهب هى أيضا بدونه ، بكيت كيف تذهب بفردها؟ ماذا تفعل وهى لا تقرأ ولا تكتب؟ ولا تعرف الفرق بين القرش والريال ، لا تعرف إذا كانت هذه الورقة نقودا أم هى مجرد ورقة ، وأعطيتها المال وحاولت أن أشرح لها وأنا أضعها فى الطائرة بعد أن

أخذت تصريحا بذلك ، هذا هو الريال وتلك ورقة بعشرة ريالات ، وأخرى بخمسين ريالا ، أما تلك فمائة ريال ، معك الآن ما يمكن أن يكفيك شهرا كاملا ، لا تحاولى أن تخرجى عن الجموع ، وطارت وطرت أنا شعاعا ، سافرت إلى أحد البلدان على شاطئ البحر ، كنت أجلس على الشاطئ عندما أرى طائرة فى السماء وأقول أمى فى هذه الطائرة كنت وقتها أستاذا فى الجامعة وأعلم مقدما موعد وصولها إلى القاهرة ولكنى كنت أنظر إلى كل طائرة وكأنها تحمل أمى، عدت إلى القاهرة وذهبت إلى قريتى ربما أجد هناك نوعا من العطف والحنان يجعلنى لا أشعر بالغربة وأمى بعيدة عن بيتها على الرغم من أنى كنت أسافر بالسنوات وأبتعد عنها بل إننى أنا الابن الوحيد الذى ابتعد عن أمه منذ أن كان فى الخامسة عشرة إلى أن أصبح جدا وله أحفاد ، أما باقى إخوتى فقد التحقوا بها ولم يغادروها وأسكنوا زوجاتهم بجوارها ويجلسون إليها صباح مساء ومع هذا أظل الأثير وأنا المحبوب . . الأستاذ جاء . الأستاذ جلس . لا تتحدث هكذا أمامه يجب أن تصمتوا فى حضوره يجب ألا يسمع هذا الخبر ويكتم الجميع عنى أخبارا يظنون أنها من الممكن أن تضايقنى . ذهبت إلى قريتى وجلست إلى إخوتى ورأيت أبى

شاحبا باكيا كطفل لا يجد أمه واقتربت منه وأخذته بين أحضانى ، أحسست أنه ضعيف ، وأنه ليس أبى الذى أعرفه ، أعرف أبى القوى الشديد ، البأس ، الثائر الذى يستطيع أن يغلب قبيلة بأكملها ، ولكنه اليوم مثل طفل ضل الطريق عن أمه ، قال وهو يبكى : جسدى لا يحتمل . دعتنا أختى الكبيرة للغذاء حاولنا أن نطعمه ولكنه رفض ، كان أبى لا يشعر بوجودها أو هو يحتمل . كذلك كنا نظن به ، كان دائما عندما يدخل إلى البيت يكون ثائرا دوما وغاضبا دوما ، كان لا يحضر إلى البيت إلا فى الثانية عشرة ليلا ويغادره بعد صلاة الفجر فإذا حضر صدفة مع ضيف أو مع أقارب للغذاء فى البيت فإن بيتنا الكبير يصبح قلعة للصمت فلا أحد يتكلم ولا أحد يهمس بكلمة فالكل يعمل فى دأب ، والكل صامت ، لأن أبى هنا ، وأول من يصمت هى أمى ، وينظر إليها وكأنه قد كافأها . هكذا تصورنا جميعا ، وأقصد تخيلنا أن سفرها هذا لا يعنى بالنسبة له أى شىء ولكنى رأيته يبكى يوما كاملا ، أخبرتنى أختى بأنه هكذا طوال غياب أمى وأحيانا فى الليل تجده مسهدا ويهبط إلى الدور الأول ويجلس حيث كانا يجلسان معا ، فى صمت لا يأكل إلا القليل ولا يشرب إلا القليل ولا يذهب إلى العمل ، عدت

من قريتى وأنا محطم النفس ، لا أدرى هل أبى يحبها أكثر منى أم أنا أحبها أكثر منه، أحسست بالغيرة من أبى وأيضا بالإشفاق عليه ، ولم أكن أتخيل أنه يعزها كل هذه المعزة ، داومت الاتصال بالشركة لأتأكد من موعد وصولها ، علمت أنها ستصل يوم الجمعة ، ذهبت إلى المطار يوم الأربعاء وبقيت الأربعاء والخميس والجمعة حتى أوشك يوم الجمعة على الانتهاء وهى لم تصل بعد ، كلما سمعت عن طائرة قادمة من السعودية جرينا ، كنت مثل الفلاحين ، أعلم مسبقا بموعد إقلاع الطائرة من مطار جدة وموعد وصولها بالساعة والدقيقة والثانية ورقم الرحلة والكشف فى جيبى بركاب الطائرة الذين سيأتون مع أمى أو تأتى أمى معهم ، كان موعدها فى الرابعة مساء يوم الجمعة برقم رحلة محددة على شركة طيران محددة ، كنت قد استخبرتهم فأجابونى بكل التفاصيل ، ومع هذا حضرت إلى المطار يوم الأربعاء صباحا ، ووضعت سيارتى فى مكان آمن وظللت يومى الأربعاء والخميس أتردد بين سيارتى وصالة الانتظار فى المطار بل ونمت أيضا على أرض المطار مثل باقى الفلاحين ، أتحدث معهم وأتناقش فى حماس فإذا سمعنا صوت وصول طائرة قفزنا جميعا إلى مدخل الوصول حتى

نرى من وصل، ومن له قريب سوف يجرى مسرعا لاحتضانه ، ثم نعود إلى حيث كنا نفترش الأرض ونحن فى حزن لأن أقاربنا أو أخواتنا أو أهلينا لم يصلوا بعد ، إذا كان هذا هو حال الفلاحين الذين لا يعرفون مواعيد الطائرات فما بالك بى وأنا أعلم أنها لن تأتى الأربعاء ولن تأتى يوم الخميس وأن موعدها حسب الجدول أن تأتى يوم الجمعة فى الرابعة مساء ، ظللت هكذا حتى جاءت الطائرة وهبطت منها مجموعة من قريتنا ، سألت أحدهم فقال لى والدتك معنا وهى بخير ولكن سوف تأتى بعد قليل فهى لا تشترك فى أى زحام كان ، وقفت فى طابور المنتظرين ، قدمى ترتعش ، يداى ترتعشان . تقدم نحوى الدكتور بانديا معلنا أنه لن يرانى فترة طويلة ، وأنه جاء لوداعى ، لم أفهم وتصورت أنه فى إجازة ، صافحنى وتركنى ومضى ، وعدت أنا إلى أمى ، جاءت فجأة ، رأيتها ، أسرعت إليها ، احتضنتها ، كنت مشفقا عليها ، ولكنها ظلت تتكلم عن رحلتها ، سعيدة بها ، تبدو متوردة الوجنتين تتحدث فى حرارة عن الكعبة ، ذهبت إليها لأول مرة ثم كيف عاشت بجوارها أكثر من عشرين يوما دون أن تفارقها أبدا ، كانت تأكل التفاح والموز فقط حتى لا تغادر الكعبة، وكانت

تذهب إلى البيت للنوم فقط كانت تعرف طريقها جيدا وكانت لا تختلط بالناس حتى لا تسمع كلمة تخرجها عن حالتها كانت تتحدث فى انطلاقة غريبة . أحمل متاعها القليل إلى سيارتى وتركب بجوارى وهى تحكى وتقص علىّ كل شىء عن رحلتها منذ أن غادرتها وهى فى الطائرة حتى استقبلتها فى المطار ، وكيف كانت تشرب من ماء زمزم ، وكيف كانت تأكل من التمر وكيف كانت تأكل التفاح والموز ، ولا تقرب الأطعمة الأخرى وكيف كانت تنام وتصحو قبل صلاة الفجر وتلازم الكعبة حتى بعد أذان العشاء ثم تذهب إلى النوم ، هكذا كانت الحياة ، وكيف أدت مناسك الحج ، لقد كان الله معى لم أشعر بأى تعب إنهم يبالغون فى الحديث عن المشقة ولكنى يا ولدى لم أجد أية مشقة ولم أجد أى عسر ولم أجد مشكلة قابلتنى ، كنت أجد طريقى ميسرا سهلا ، ذهبت إلى (منى) ، جلست فى الخيمة أصلى ثم أخذونا إلى عرفة ، إنها كبيرة جدا ، جدا يا ولدى وهناك جلست أناشد ربى أن يمن عليك بالصحة والسلامة وأن تكون فى مكانة ترضاها ويرضاها لك الله ، بكيت وكنت أقود سيارتى وأنا لا أرى شيئا أمامى ، كنت أود أن أذهب بها إلى أبى وأقول ها هى ذى أمى فلا تبك بعد الآن ، كنت أرى

دموع أبى وهى تحكى فى سعادة وانشراح كيف انزلقوا بها نحو (المزدلفة) وكيف كانت تمشى ، تمشى بين الزحام كيف جمعت الحصوات ، جمعتها يا ولدى فى دقيقة واحدة ، مثل حبات الحمص أو أكثر قليلا ثم جلسنا هناك لنصلى المغرب والعشاء ثم أخذونا لنقذف الشيطان ، قذفته بكل قوة ، كبرت عليه حتى لا يغلبنى ، قالوا لى من الممكن أن تكلفى أحد الرجال ولكنى قمت بالعمل وحدى ، لقد كان الأمر سهلا ميسورا ثم ذهبت يا ولدى إلى الكعبة فى الفجر وطفنا وصلينا ، كيف كانت (هاجر)؟ كانت تجلس هنا يا ولدى فى هذا المكان ، كيف كانت تعيش ونحن نتأفف لأن الماء ليس باردا كما يجب؟ أو أن البلاط ساخنا أو أن التكييف لا يفى بالغرض المطلوب ، وهى قد نامت على الصخر الأسود يا ولدى يطل علينا فى مكة ، صخرا أسود كثيبا لم أره فى حياتى ، كيف كانت (أم إسماعيل) تجلس فى هذا الصخر؟!

فى هذا الصهد ؟ لا ماء ولا زرع ولا ناس ، الناس يا ولدى بالملايين ، كثيرون ، نذهب إلى أى مكان نجد الناس كثيرين ، من كل جنس رأيت ناسا يتكلمون بغير اللسان الذى نتكلم به إنهم يتكلمون بلغة لم أرك تتكلم بها

من قبل ، أبتسم وأنا أرى وجه أبى وقد غطته الدموع وأسرع بسيارتى ، الظلام بدأ يحل علينا ، ولكنى أمضى بسرعة وهى تقص على ، عندما كنت فى البيت أقترب من النافذة كى أنظر إلى الكعبة فقد حبانا الله بسكنى بجوار الكعبة ، أهبط الأسانسير ، ولا أدرى كيف يهبط سبع أدوار فى لمح البصر؟! بمجرد أن أقول بسم الله الرحمن الرحيم أجد نفسى فى الطابق الأول ، منه إلى الشارع ، أرى الكعبة أمامى أذهب فى أول ركن أقابله وأجلس للصلاة كنت أصلى وأنا واقفة وأنا جالسة وأنا راقدة على سريرى ، يا سلام على الإسلام ، الإسلام يا ولدى حلو ، حلو قوى ، احنا ربنا كرمنا لأننا طلعنا مسلمين ، المسلمون هنا كثير قوى يا بنى ، أقول لها أرجوك كفاك حتى لا ترهقى نفسك ، تقول لا ياولدى أنا غير مرهقة ، ثم تسألنى فجأة ونحن ندخل القرية كيف حال أبيك؟ بكيت تأثرت هى ، وأخذت تضع ذراعها حول رقبتى أعلم يا ولدى لا تبكِ ، وصلنا إلى باب الدار توقفت فجأة ثم صحت فى أبى ، هى فلا تبكِ بعد اليوم ، لم أكن أرغب فى شىء إلا أن يتكاتفا معا وأن يجلسا معا ، هذا كل مطلبى فى الحياة ، اضطرب أخى الصغير وسقطت منه صفيحة الشربات ، وأغرقت الشارع كله ، الشارع امتلأ

بالزغاريد وكأن دارنا بدت كعبة مقصودة يؤمها كل البشر ، مئات بل آلاف . قالت أمى ناس بالملايين تجمعوا فى الكعبة ، تبتسم فى هدوء عادت إلى بيتها وإلى هوايتها المفضلة .

أخذت سيارتى اكتفيت بتلك السعادة التى رأيتها ظهرت على وجه أبى ولكنه مع هذا لم يقل لها شيئا ، ولم يعبر عن فرحته ، اكتفى فقط بأن جلس شامخا ينسق شاربه بيده اليمنى وقد رفع وجهه وكأنه عاد لتوه أبو سلامة الذى يهابه الجميع ويخافونه ويحترمونه ، قامته ازدادت واقتربت من سقف البيت وأحسست أنا أن هذه هى نهاية رحلتى والتى كنت بدأتها الأربعاء وقد كنت متعبا غاية التعب ، وعدت أدراجى إلى بيتى فى القاهرة وأنا سعيد كل السعادة أبتسم وأقول نعم يا أمى ، نعم هذه حلاوة الإيمان ، حلاوة العاشق ، عندما يصل إلى مكان يشتاق إليه ، أنا شعرت بها يا أمى أنا المحب الولهان ، أنا المحروم الآن ، أنا الذى يتطلع إلى صورة الكعبة ولا أستطيع رؤيتها والدخول إليها ، جفانى النوم ، ترتعش يدى ، وأنا أمسك بكوب الماء أتخيله زمزم (الصوت يخرج بتأثر شديد) ادعو الله أن يكون زمزما ، ماذا لو مد لى أحد يده بشراب زمزم؟ ربما يشفينى ، ربما تلتئم جراحى ، أمى ، لك حبى وفؤادى .

(يبكى ، يتوقف عن التسجيل)

ربما يكون من الأجدر بنا أن نعود إلى المصدر الرئيسى لهذا الكتاب وهو أبى (إبراهيم) ، فهو قد تولى الإشراف على تربيتى وظل معى طوال فترة طفولتى وحتى بداية شبابى، فقد كنت ملتصقا به أشد الالتصاق وعاملنى كصديق منذ أن وعيت الدنيا ، وقد كان مهتما بى إلى درجة كبيرة حتى إنه كان هو الذى يشرف على ملابسى وعلى طريقة ارتدائى تلك الملابس ، وكان يشترى أغلى الملابس وأكثرها أناقة ، ويهتم بذلك ويبذل من أجل ذلك الكثير ، بل ويغضب أشد الغضب إذا رآنى حزينا، مجرد حزن يرتسم على وجهى كفيل بأن يجعله فى قمة غضبه فيظل يلح فى السؤال حتى يعلم السبب والويل كل الويل إذا كان هذا السبب هو واحد من الناس فسوف ينزل به العقاب أشد العقاب، لهذا كنت أخفى عنه كل ما يتصل بأهلى وأقاربى إذا أغضبونى لشىء ما ، حتى ولو كان كبيرا ، كانت علاقتى بأبى علاقة صداقة ، وقد اشتغلت معه يدا بيد ورجلا لرجل : يشترى أشترى مثله، يبيع أبيع مثله . إذا هو وقف ليتاجر أذهب أنا لأذاكر وأقرأ الكتب ، إذا وقفت أنا يهرب هو إلى حيث يلهو قليلا أو ينام قليلا ثم يعود ليحدثنى فى

مكانى، وأحاول أن أكون أنا ذاتى ونفسى ، طريقتى تختلف عن طريقته ، أنا أتعامل مع الناس بإنسانية ورحمة أشد ولكنه يتعامل مع الناس بغلظة - إلى حد ما - رغم كرمه الحاتمى ورغم سماحته ، وقد رأيته مرارا لا يحاسب أحدا إذا جاء إليه مدينا ولا يستطيع سداد دينه وإذا طلب منه بضاعة أعطاه حتى ولو لم يدفع الدين القديم ، وإذا سأله المدين كم دينا لك يا عمى؟ يقول: أنت تعلم فالمدين لا ينسى دينه ، ولكنى أنا أنسى لأنكم كثيرون ، رأيته وأنا صغير وأنا شاب يساعد المدين على سداد دينه ، رأيته يشترى من الجزارين لحمة لا نحتاج إليها لمجرد أنهم لا يستطيعون بيع ما لديهم من لحم، ولأن قريتنا صغيرة الفقر هو السمة العامة لأهل قريتنا حيث كان عدد الملاك قليلا جدا بالنسبة لعدد الأجراء والفلاحين العاديين فإنه كان لا يبخل بمال على أحد وكان يترك البيت مفتوحا ليأكل من شاء ، كان دائما كريما عطوفا ولكن الويل كل الويل لمن يغضبه أو يثيره فهو سريع الغضب يثور لأقل الأسباب ، فإذا ثار فالويل لمن حوله ، غضبه عنيف قاسٍ ، وقوته فى شبابه كانت لا تقارن بقوة أحد الرجال من حوله ، بل كان بقوة ثلاثة أو أربعة رجال كان يمسك بهم يطلقهم فى الهواء وكأنهم قطع من الحلوى ،

كان لدينا مصنعا للحلوى ومتجرا وكنا من الأثرياء أو هكذا كما يخيل لى ، وكان هو يتباهى بأنه صنع كل هذا بنفسه استطاع أن ينفق على إخوته وأن يتكفل بهم وأن يزوجهم جميعا وأن يقيم لهم بيوتا مستقلة ، تخرج أبى فى مدرسة المعلمين ولكنه لم يعين مدرسا بسبب حادثة جدى فجاء إلى قريتنا وبدأ مشواره العملى لكى ينفق على أسرته وعلى أبيه المريض واشتغل فى بداية أمره عند أحد الخواجات من أصحاب الأملاك ولكنه لم يستمر شهرا واحدا فلم يعجبه الحال فتركه ومضى ، واشتغل فى شركة (شل) التى تبيع فى ذلك الوقت الجاز فى القرى وكانت تصنع من أجل هذا كل الحيل لكى يستخدمه الفلاحون، وكانت تشجع من كان يملك أرضًا لكى يبنى بها محطة بنزين وجاز لكى يحصل على توكيل لبيع المواد البترولية ، أقام محطة بدأت تزدهر وبدأ أبى يجنى ثمار المحطة وجمع ثمار المحطة وجمع ثروة لا بأس بها من بيع الجاز ولكنه بعد سنة واحدة كما قص علىّ هذه القصة مرارا وتكرارا، وكنت دوما أشتاق إلى سماع قصص حياته لأنه فى كل مرة يحكيها بطريقة مختلفة وإن لم تختلف الحقائق أو الحوادث الرئيسية ، فكان التشويق فى حكى الحكاية يشدنى ويشد مستمعيه كيف أقام المحطة ثم

كيف وزع العربات التى تبيع الجاز ثم كيف كان يحضر لمبات ويوزعها بالمجان على أهالى القرى المجاورة وهكذا فى عام وبضعة أشهر استطاع أن يكون ثروة لا بأس بها ولكن لم يعجبه هذا العمل لأن رائحة الجاز بدأت تضايقه ، فهى ضد وجاهته وأناقته ، قد كان فى شبابه أنيقا جميلا يتباهى بملابسه بعينيه الخضراوين وشعره الأشقر وقوامه المليح ووجه الصبيح، وكان مثل فتى عاشق يهوى كل البنات وكل الفتيات وتهواه كل الفتيات والبنات والنساء فترك هذه التجارة مع أنها كانت مربحة مجزية وأشار عليه أحد أخواله بأن يشتغل بتجارة الجزارة ، وتربية المواشى فإنها مربحة ولا تحتاج إلى جهد ، فترك البنزين والجاز إلى الجزارة ولكنه ذات يوم اضطر لذبح بقرة وكانت عزيزة لديه فبكى بجوارها ولم يستطع بعد ذلك أن يشتغل بالجزارة ، لقد كان يحب بقرته ومواشيه فكيف إذن يذبحها ، إنها قاسية على قلبه فترك تجارة الجزارة مع أنها أيضا كانت تدر عليه ربحا وأعتقد أن أبى كان ذكيا لماحا جديرا بمهنة التجارة يعرف كيف يكسب ، وكيف يعامل الناس وكيف يكون لا يضن على مدينه بانتظار بل كيف يعطيه ولا يبخل عليه ، حتى يستطيع ذلك المدين الدفع عند الميسرة فأحبه الناس ، وكان دوما

مدافعا عن المظلوم حتى يأخذ حقه وافتتح مخزنا كبيرا وبدأ الاشتغال بتجارة الزيت والعدس والفول وكل شيء يقابله لديه قدرة على الإقناع كما وهبه الله ثقة الناس به وأخذ كلمته مأخذ جد واستطاع هو أن يؤكد أن التاجر يتاجر فى فلوس الآخرين ، وبأموالهم طالما أنه أمين صادق الوعد ، كان دوما يقول لى التاجر الشاطر يكسب القليل ويقنع به فتتسع تجارته ويتسع ربحه لهذا اتسعت تجارته ، لقد اشتغلت معه زمنا طويلا جدا وكنت يده وذراعه وعقله ، وكان يقول دوما إننى لو ظللت بجواره دون هوسة الأدب لكنت فى شأن آخر، صاحب ثروة واشتغلت بالزراعة فى أرضه ولم يكن فلاحا بشكل جيد فذهب إلى الحقل وراح يجرى تجارته فكان لماحا ذكيا يدرك الأشياء بالنظر ، وكان يقرأ القرآن فى تبتل وبصوت رخيم ، كنت أقف مشدوها عندما أجده فى هذه الحالة ، هذا الرجل الغاضب الثائر الذى كان يضرب الناس إذا ما وقفوا أمامه يطلبون حاجياتهم بشىء من الخشونة ، وكان لا يسمح لأحد بأن يدخل إلى مخازنه إلا بعد أن يتوضأ أمامه فإنه كان يخشى من هذا خشية كبيرة كما أنه كان يخشى دوما أن نقص الميزان فقد كان يؤكد على كل من يتعامل معه أن الميزان هو العدل وأن العدل هو الله ،

فالميزان هو الله فمن يخسر الميزان فقد أخطأ فى حق الله ، كانت هذه قاعدته ، وكنت أراها مطبقة أمام عينى ، يحرص على الصلاة فى أوقاتها ولكن كان له عادة حاولت أن أناقشه فيها فقد كان يجلس كل مساء مع مجموعة من التجار يشربون ذلك المخدر المقيت الذى يسمى (الحشيش) على أنه لون من ألوان الفحولة وكان هذا فى زمنه بالفعل من العادات المحبوبة لدى الرجال وخاصة إذا كان هؤلاء الرجال من المستورين ماديا للترويح عن النفس من كثرة أعمالهم وتجارتهم ومستوياتهم ، فكل منهم لديه جيش جرار يعمل ، وهذا الجيش لديه مئات الأفواه التى تأكل ، يجب أن يتدبر أمر كل هؤلاء ، يجب أن يكون منتبها كل الانتباه وإلا راح فى حركة إفلاس يشهرها علنا فلا يبقى منه شىء وتتلطخ اسمه ، وكان هذا كفيلا بأن يجعل التجار يشترون من بعضهم على سبيل السلف أو الدين ، يردونه إذا ما باعوا بضاعتهم ، هكذا كانت الأمور تسير ، العسل يأتى من الصعيد فإذا بعنا أعطينا تجار الصعيد وجامعى العسل أموالهم أما إذا خسرنا أو فسد العسل الأسود فى الأسواق فإن سعره يهبط وهكذا يتعرض التاجر إلى خسارة فادحة ، وهذا سواء فى المحاصيل والمنتجات الزراعية أو غيرها من المنتجات

التى ترد إلينا من مصانع الشركات الكبيرة وفقا للنظام الرأسمالى أو ما يسمونه الآن السوق المفتوح تخضع الأسعار له . لم أعد أفهم التجارة ولا أفهم فى اتفاقية الجات ولكنى كنت أفهم أن العدس يرد إلينا من إسنا فى أجولة كبيرة نبيعه نحن قنطارا قنطارا أو عشرة عشرة أو ربما قدحا يجب أن نحصل على المال ، ماذا لو كان المحصول وفيرا هذا العام؟ ينخفض السعر .

(توقف عن التسجيل)

أبى كان مثل هؤلاء التجار قديما يخشى الله ويتقيه ويعلم علم اليقين أنه إذا ماغش عميلا فإنه سوف يخسر ماله كله .

الحكاية عند أبى هواية وغرام وعشق وهو يروى الحادثة عدة مرات على أوجه مختلفة ولكن وقائع تلك الحادثة واحدة ، نصحه والده بأن يذهب إلى الحج وهو فى شبابه حتى يستمتع . ذهب للحجز قالوا لقد انتهت أماكن حجاج البواخر من أراد أن يركب الطائرة فليأت ، تقدم هو إلى مكتب الحجز الخاص بالطائرات وبالفعل كان له نصيب السفر فى ذلك العام إلى الأراضى الحجازية وعاد سعيدا كل السعادة ، ثم أخذ بعد ذلك يروى تلك الحكاية على أوجه مختلفة . . ذهب إلى البندر ؛ لأنه كان يتألم من ألم بسيط يأتيه كل عام فذهب إلى هناك عسى أن يجد فى تجارته ما

يلهيه عن هذا الألم فرأى الزحام فسأل وهكذا انتهى به المطاف إلى حجز تذكرة بالطائرة إلى الأراضى الحجازية.
كنت سعيدا غاية السعادة عندما أجلس إليه خاصة فى أيام الصباح أيام الإجازات لكى يروى لى حكاية جدى وأجدادى وأسأله أنا ولكن يا أبى أين جدى سلامة هذا؟ فيضحك وينظر ويقول ليس جدك اسمه سلامة إن جدك اسمه سالم فأقول هل تدرك من هو سلامة هذا؟ يقول لا ، إنها يا ولدى اسم القبيلة التى جئنا منها فأسأله مرة أخرى وهل أخوالى وأعمامى الذين يسكنون الجبال ، هؤلاء هم أصل قبيلتنا يقول نعم ولكنهم الآن مثلنا تماما أولاد خال ، وكثيرا ما ذهبت إلى أولاد عمى وأولاد خالى هناك وسط الجبل والطريق يأخذ منى ما يقرب من ساعة مشيا على الأقدام فى جبل يسمى (جبل باغوص) ولكنه الآن تحول إلى منطقة صناعية بعد أن كان مجرد جبل وسط الدلتا وكنت مندهشا غاية الدهشة من وجود هذا الجبل فى تلك المنطقة التى كنا ندرسها فى المدرسة ويقولون عنها إنها من أخصب أراضى الدلتا وكنا عندما نذهب إلى المركز ولا أدرى لماذا كرهت هذا المركز لم يكن بينى وبينه علاقات حميمة لم يكن به أقارب لنا ، كل ما فى الأمر أننا عندما نحتاج إلى ختم ورقة من أوراق المدرسة أو الجامعة كنا نذهب إلى هناك ولكى

نذهب يجب أولا أن نركب سيارة مدينة بنها ثم نأخذ سيارة أخرى من مدينة بنها إلى المركز وهكذا تجد الطريق صعبا للغاية وهناك سيارة واحدة تسمى سيارة (أبى حجاج) تذهب إلى هناك ولكنها تقوم فى السابعة صباحا ويركب بها سبعة أفراد فقط وسائقها أبو حجاج هذا رجل متوتر الأعصاب دوما عندما تركب لا بد من أن تصبر ، وتصل بعد أن تكون قد استنفذت كل ما لديك من قوة صبر وتحمل، فتذهب إلى القسم أو إلى البندر لكى تختم ورقة هزيلة تحتاج إليها فى المدرسة أو الجامعة وهكذا وهى مدينة ، (عندما كنت طفلا أو شابا صغيرا) ، متواضعة جدا وليس بها أى شىء يذكر تقريبا ، بعد ذلك ضحكوا على الناس وقالوا هنا يباع الفطير المشلتت ، وهنا استراحة وهكذا ازدهرت المدينة - إلى حد ما- لأنها تقع على الطريق الزراعى السريع ، أما عاصمة مدينتنا فقد ذهبت إليها أكثر من مرة لزيارة صديق (حسين) ، كانت بلدتنا أكبر كثيرا من مركزها وكان بها من العمارة والتجارة والفلاحة والمصانع ما يؤهلها لأن تكون بالفعل مركزا تجاريا قال لى أبى إنها سميت ميت بره نظرا لأنها كانت منذ أيام الفراعنة ميناء مهمّا معناها بلدة الميناء، هكذا قال لى أبى ولم أحاول أن أناقشه، ولم أحاول أن أرجع إلى القواميس اللغوية الخاصة . تصادق أبى مع والد حسين ،

وكان حسين هذا تلميذًا طيب القلب ولكنه تلميذ بندرى أى أنه يبدو أنه قد دخل فى كيس من النايلون اللامع فهو يبرق دوما ، صادقته ووجدته عفيف اللسان حلو الكلمات لديه من المعلومات ما ليس لدى فقد جاء من البندر الكبير ويعرف أكثر منى من معلومات مدنية فقد سبق له أنه دخل السينما أكثر من مرة وأنا وقتها لم أكن أعرف ما السينما ، فلما ارتحل عن بلدتنا واشتغل والده فى المديرية كنت أشتاق إليه وأركب دراجتى وأذهب إليه قاطعا مسافة تقرب من ستين كيلو مترا بالدراجة ذهابا ومثلها فى الإياب وأذهب يوم الجمعة فى الصباح الباكر مخترقا الحدائق والغيطان وأسعد كل السعادة وأنا أخترق تلك الحقول المترامية والحدائق وخاصة حدائق الليمون حتى أصل إلى البيت -أقصد بيت حسين - فأجلس إليه ساعة أو بَعض ساعة نتحادث ويقول كلًّا منا أخباره ومتاعبه للآخر ثم أعود بدراجتى إلى بلدتى قبل أن يأتى المساء ، وذات مرة وأنا قادم من بلدتى يبدو أننى نمت نوما عميقا وأنا أقود الدراجة وكان هذا من عادتى أننى أشرد وأنظر إلى الحدائق وإلى خضرة متسعة جميلة فيشرد خيالى وتنطلق نفسى إلى آفاق متسعة وتأخذنى سنة من النوم وعندما أفقت واكتشفت أننى قد سرت فى طريق آخر غير ذلك الطريق الذى تعودت أن أسير فيه بالدراجة فقد

كنت أحد المتمرسين فى ركوب الدراجات وفى سباقها أيضا ، وكنت متعودا على أن أقطع مسافة المائة كيلو أو المائة كيلو وعشرين فى الطريق الزراعى دون كلل أو ملل ودون شعور أيضا بالتعب والإرهاق فقد كنت أحب هذه الرياضة حبا شديدا شجعنى أيضا والدى عليها وكانت لدينا دراجتان تخصان أبى كان دوما يقول لى: كيف ركب أول مرة وكيف علمه جدى وكيف كان يسعد بركوب تلك الدراجات وخاصة فى بور سعيد وعندما كنت صغيرا لم أتعلمها ولهذا عندما كبرت – إلى حد ما – قال لى أبى لماذا لا تركب الدراجة ، وأركبنى عليها ثم قال إياك والسقوط إن سقطت فلن تصبح فى نظرى رجلا أبدا، ثم دفعنى بشدة ومن كثرة خوفى ألا أصبح رجلا ظللت راكبا الدراجة وأنا محتفظ بتوازنى وكانت مسافة طويلة وعندما أردت العودة تركتها وهربت إلى الأرض بعيدا عن نظر أبى فلم يشاهدنى وأنا أسقط ، وعندما جئت إليه ممسكا بها قال كيف سقطت؟ قلت له تركت نفسى لأسقط لأننى لم أستطع الهبوط من هذا العلو الشاهق للدراجة الكبيرة وأنا صبى صغير فأخذ يدربنى كيف أقف ثم كيف أستدر كل هذا فى ساعة زمن ثم طلب منى أن أفعل كما علمنى ففعلت فإذا بى أنجح لهذا أحببت الدراجة حبى لأبى أو أحببت أبى لأنه علمنى ركوب

الدراجات ، يبدو أن كل شيء فى حياتى كان له ارتباط بأبى بطريقة ما فأنا لم أسر قط حافى القدمين إلا عندما تضطرنى بعض الظروف فى المنزل فأسير خطوة واحدة أشعر أن جسدى كله يرتعش ، ولأن أبى حاول دائما أن يجعلنى ألبس الحذاء ، فكان يصنع لى أحذية جميلة ويطلب من صانع الأحذية أن يصنع لى أحذية ذات ثقوب فى الصيف تسمى (الصنادل) وذات أشرطة ، وكان المدرسون فى مدرستى يتعجبون لها ويدهشون وكانوا يتمنون أن يحصلوا على واحدة منها ، هكذا علمنى أبى كيف أرتدى ملابسى وكيف تكون زاهية الألوان ، أو متسقة الألوان وكيف أفرق بين لبس العصر ولبس الليل ولبس الصبح ، أو لبس الصيف ولبس الشتاء وهكذا ، كيف أرتدى ملابسى بشكل لائق أنيق، وكان يبذل فى ذلك ومن أجله المال دون تأفف .
ومن عادة أبى أنه كان يأخذنى وأنا طفل إلى البندر ونذهب إلى المخازن التى يتعامل معها فيجلس إلى التجار ساعة ينهى فيها أعماله وكان سريع البت فلا تأخذ منه الصفقة سوى دقيقة أو دقيقتين بالأكثر فيتم صفقاته على عجل وتشعر أنه راض كل الرضا ، ورضا أبى هذا نابع من أنه يقول دوما الرزق عند الله فلا يأخذ الإنسان أكثر من رزقه ولكن عليه السعى ، فنمر على عدة مخازن يعقد صفقاته بيعا أو شراء

وتتم الصفقات دون كتابة عقود أو دفع نقود وهى تتم بين أبى وصديقه التاجر ويتفق على السعر ، يتواعد على الدفع والتسليم وتنتهى بعد أن يشرب أبى فنجانا من القهوة يسمى (فنجان بيشا) أى أنه يأخذه على رشفتين ، ويضعون أمامى كوبا من الليمون فلا أقربها لأنه كان يحذرنى من شراب المقاهى ، وكان يحرص دائما كل الحرص على ألا أشرب شيئا لدى التجار ، وعندما سألته : فلماذا يشرب القهوة؟ قال: إنها مغلية، وقد خرجت توا من النار ، بعد هذا يأخذنى إلى أحد محلات السمك لنأكل سويا ونضحك ، ويحكى لى القصص والحكايات وأنا جالس أمامه آكل فى سعادة ثم يمضى بى إلى الشوارع نتفرج وكأننا ليس لدينا عمل نؤديه ، ونسير وهو يعلق بنكاته ، وسخريته اللاذعة على كل شىء نراه ثم نشترى بعض الأشياء الصغيرة لأمى وإخوتى ، ثم نعود فنركب السيارة الأجرة الخاصة بنا فهو دائما ما كان يحذرنى من ركوب السيارات الأجرة التى يكتظ بها الركاب بالعشرات لكى يدفعوا أجرا زهيدا ، بل يستقل سيارة خاصة ويدفع للرجل ما يريد ، هذا تقريبا كل أسبوع ، وعندما كبرت قليلا كان يأخذنى إلى القاهرة فندور فى شوارعها ويتفق مع زملائه التجار على ما يريده من بضائع ، وذهبنا ذات مرة إلى المدبح لا أدرى ما تلك الصفقة التى

تحتاج منا إلى وجودنا فى المدبح ؟ دخلت المدبح أول مرة فى زينهم ورأيت الجزارين وقد تلطخت ملابسهم بالدماء ورأيت الجاموس والبقر وقد انساقت إلى المدبح ورأيت حيوانات مذعورة وقهقهات . . الجزارين وصياحهم وصراخهم جلسنا إلى أحد التجار الذى أتى بطعام كثير وخاصة من السمك وأرغفة ساخنة وأشياء أخرى كثيرة واجتمع تجار كثيرون يحتفلون بأبى وهو يضحك ويروى النكت ويروى الحكايات البسيطة وكأنها حكايات غزوات نابليون أو فتوحات الإسكندر ، ذهبت معه ذات مرة ومجموعة من التجار إلى العتبة الخضراء وفى هذه المرة ، كنت صبيا صغيرا يمسكنى من يدى ويتحدث مع زملائه التجار فى أمور كان أحيانا صعب علىَّ فهمها رغم أنه أحيانا يستشهد بى فأقول نعم يا أبى أو كنت دائما أشهد أنه لم يقل إلا الصدق فقد عودنى أبى أنه لا يكذب أبدا مهما كانت الظروف ، رأيت أخى ذات مرة وهو ينصح أبى بأن يكتب تلك الديون فى دفتر ولكن أبى يقول يا ولدى المدين لا ينسى دينه أبدا هذه تجارة وليست دينا، أنا أعطيته بضاعة تصور أنها ضاعت أو فقدت كم جوالاً من أجولة الأرز فقدتها عندما سقطت العربة فى النهر أو كم طنا من الفول أكله الفئران أو العصافير كل تلك البضائع التى أخذها هذا

التاجر الصغير ذهبت هكذا أكلته الفئران أو أكلته العصافير ، فإذا جاء بدينه هذا فضل وعدل أما إذا لم يأتِ به فسامحه . والرضا عند أبى فلسفة وعلم وإيمان بالله ، والتقوى عنده أن لا يفعل الإنسان المحاذر ، أو يتقيها أن يبتعد عنها فلا تذهب إلى خمارة وتقول أنا أبحث عن ولدى ، والتقوى عنده هكذا أن تتسابق إلى المسجد وأن تلملم ثوابك حتى تتقى شر الطريق وألا تتكلم فى أعراض الناس وأن تبتعد عن الحديث حول أسرارك أنت فلا تتيح لآخر أن يحكى لك أسراره ويطلع هو على أسرارك وتصبح الأسرار ليست بأسرار إنما مجرد أخبار تروى ويقول لك: إن الرضا يرتكز على التقوى وفقا لفلسفة أبى وأقول فلسفة أبى ؛ لأنى جلست إليه وعاشرته سنوات طوال كنا أحيانا نقضى معا أكثر من عشرين ساعة فى اليوم بدون أن نفترق ، فى أيام مواسم العمل المضنية كنا نتزامل ونجلس معا ونعمل معا ونتشاور فى كل أمورنا ، كنت أنسى الزمن من كثرة العمل ، وفلسفة الرضا من عنده أن تكون حريصا على أن تفى بوعدك قدر استطاعتك أما كيف تفى بوعدك وهل تقدر أم لا تقدر فهذا متروك لله سبحانه وتعالى بما أنك قررت الوفاء بالوعد ، وعندما وعدت فالله سوف يعينك طالما أن نيتك الصادقة الحقيقية للوفاء بالوعد، عندما وعدت وعدك هذا يرجع إلى

قلبك ، أبى يقول إن الله داخل قلبك وليس خارجه ، الله فى داخلك أنت تحمل الله فى قلبك فتتقيه وأنت مدرك أنه بداخلك وليس بخارجك فيكون الإيمان صادقا وركائز الرضا الثلاث موجودة لديك فلا تخلف إذا وعدت الوعد فإن ما داخلك إذا كان صادقا بالفعل يتحقق وعدك بسهولة مع الرضا أى بسهولة ويسر . هكذا كانت نظرة أبى إلى الدنيا هى ملك لله يصرفها كما يشاء ولهذا كان دوما يضحك ويبتسم ويتفاءل رغم أنه يبدو من الخارج وفقا لما تراه عيون الآخرين من أقاربى ومن أصدقائى رجلا ثائرا دائما غضوبا وإخوتى يتحدثون عنه بأن غضبه شديد وبأسه أشد وضربه أيضا وعقابه عنيف ولكن رأيته وأنا أتنزه معه فى القاهرة ننطلق كأصدقاء يحدثنى عن نفسه وأحيانا كثيرة يجلس فيقرأ القرآن ويتباهى بأنه حفظ القرآن فى سن مبكرة ودائما يشعرنى أنى مقصر فى حق نفسى ؛ لأننى لم أحفظ القرآن كما حفظه هو بل تلهيت أنا بقراءات متعددة فلم أحفظ القرآن كله ، وهذا ما يشعرنى حتى الآن بأننى مذنب. وصلتى بأبى أنه كان دائما يصدقنى فى أى شىء أقوله ولا يقبل عنى كلمة نابية فإذا أخبره واشٍ من الوشاة بأمر ما فإنه يقابله بازدراء شديد ، أحيانا يكونُ الخبر الخاص بى والذى قدم إليه من هذا الواشى صحيحا ، وأبكى لأنه لا يريد أن يصدق أننى

فعلت ما قالوه . عندما أقدمت على الزواج لأول مرة كان هو غير راض عن تلك الزيجة وظل يناقشنى فى هذا الأمر مرات عديدة حتى أننى شعرت أننى سوف أخالفه وأفقد صداقته التى حاولت أن أحتفظ بها طوال عمرى ، فلما اختلفنا حول رغبتى فى الزواج بزوجتى الأولى راح يأخذنى إلى السينما فنجلس لنشاهد الفيلم ولكننا كنا فى ذاته الوقت يفكر كلانا فى طريقة لنسوى هذا الخلاف ، ونخرج من السينما لنجلس فى الهواء الطلق هو يحدثنى عن وجهة نظره ولماذا هو غير راض وأنا أتشبث برأيى وكنت فى ذلك الوقت صغير السن غير مدرك لكثير من أمور الحياة وهو بالطبع يدرك أمورا فى الحياة لم أكن أدركها أنا ، فيحاول أن يراجعنى فلا أتراجع أبدا عندما شعر أننا على وشك الخصام ، قال نذهب إلى أسرة زوجتك وذهبنا وجلس إلى أمها وكانت ذات شخصية جديرة بالاحترام مات عنها زوجها وأولادها صغار وأصبحت هى الأم والأب وحملت هذا الحمل عن جدارة واستطاعت أن تعبر بهم سلم الحياة إلى أن حصلوا على درجات علمية تؤهلهم للوظائف العالية بحزمها ومهارتها وتدبيرها وحسن إدراكها للأمور فلما جلس إليها وقدمت إليه فنجان القهوة الذى أحبه كثيرا إذا به يخطب لى العروس من أمها وتصادقا صداقة جميلة وظلت قوية إلى أن توفيت إلى - رحمه الله - وظل يتحدث عن

حسن إدراكها للأمور ، وأحب أولادها جميعا ، أما صداقتنا أنا وأبى فقد ظلت دوما قوية وأتودد إليه كرفيق من رفقاء العمر الذين علمونى ووقفوا بجوارى ولم يتخل عنى قط عندما أصبت بالعمى فى عامى الأول بالجامعة ظل بجوارى يبذل من الجهد والمال ومن صحته ومن وقته ما كاد ينسيه أهله وماله وتجارته كان يبكى بكاء مرا لأننى فقدت البصر ويشعر حتى اللحظة التى أدون فيها رواياتى هذه بأنه مقصر فى حقى لأنه أجهدنى كثيرا وأنا طفل بالاشتغال معه وأنفق فى سبيل إعادة بصرى المال الكثير والحمد لله استطاع الأطباء بعون الله أن يرجعوا بصرى وذهب واشترى لى نظارة من الذهب لأنه كان قد وعد بهذا عندما أخبره الطبيب أول مرة بأنه سوف يعالجنى وسوف ينجح بإذن الله . الحديث عن أبى يطول ويتشعب ، أتذكره عندما أذهب للحج وأقول أبى كان يقف هنا وكان يجلس هنا لأنه قص علىَّ قصة حجه بكل تفاصيلها بل كان يصف لى أماكن جلوسه وأماكن وقوفه وأماكن نومه ولما ذهبت كان قد تغير الحال وأصبح المسجد غير المسجد وأصبحت الأماكن غير الأماكن لقد ذهبت إلى الكعبة لأول مرة فى منتصف السبعينيات وقد رأيته منذ سبعة أشهر فقط من الآن أى أن بين رحلتى الأولى والأخيرة والتى أتمنى ألا تكون الأخيرة ، ما يزيد عن عشرين عاما .

علمت أن صديقى الدكتور بانديا سوف يغيب عن المستشفى ، أحضرنا له هدية أخذها فى فرح شديد ، سقطت دمعتان من عينيه ، شعرت أنه يفارقنى غير راغب فى المفارقة ، شجعنى على أن أسجل خواطرى وأن أعاود نشر موضوعاتى فى الجريدة ، شجعنى على أن أمارس حياتى متحديا الرقاد الطويل ، والألم الذى لا يطاق ، دفع إلى عقلى الأمل فى الشفاء والعودة ، حرر الإنسان داخلى ، خاطب روحى ولم يقصر فى علاج جسدى ، هناك الكثير من الحكايات والتفاصيل ربما كانت هناك من الحكايات ما هو أهم من التى رويتها ولكن ذاكرتى الآن لم تعد قوية كما كانت ولأنى أحكى حكايات مباشرة لا أبذل فيها جهدا ، ولا أحاول أن أطبخها بعطر الأدب كما أفعل فى رواياتى من قبل ، هذه رواية مختلفة لا أقصد منها سرد ذكرياتى ولكننى أسرد فيها ما يعن لى الآن وأنا راقد على فراش المرض أمسك بجهاز التسجيل الصغير ، وأحاول تذكر ينابيع الحزن والمسرة ، فقد كان أبى ينبوعا من ينابيع الأمل والمسرة والرضا . خالى إبراهيم فى طفولتى كنت أعتقد أن لى أبوين ، اسمهما إبراهيم فأبى اسمه إبراهيم ، وخالى أيضا اسمه إبراهيم ، ولحرص خالى على تربيتى وفقا

لوجهة نظره ووجوده المستمر بجوارى فى كل منعطفات حياتى السعيدة والحزينة . سواء فى حالات المرض أو الفرح ، كان خالى موجودا باستمرار بجوار أبى وهما الاثنان يقرران معا ماذا يفعلان لى ، كنت أذهب إلى خالى وأقول له يا أبى وأقول له يا أبى هذا إبراهيم وذاك إبراهيم ، هذا يعاملنى معاملة ود ولطف وهذا يعاملنى مثلها وأفضل أيضا ، يتنافسان على رضاى ، ويتنافسان على تدليلى ويتنافسان على تلبية رغباتى مهما كانت رغباتى هذه وكان من الممكن أن أكون ولدا فاسدا وطفلا مدللا وشابا ميؤوسا من حاله لأن كل شيء كان متيسرًا لى ، المال وموافقة الخال والوالد على كل طلباتى ولكن الله أراد أن أكون هذا الطفل المتزن الذى لا يلهو بلعبه والذى تكون فرحته فى أن يحتضن أعواد البرسيم أو يذهب إلى الحقل ليرى كيف يعمل الفلاحون وفى الوقت نفسه يشتغل مع أبيه كرجل يفهم معنى التجارة ومعنى العرق والتعب ، كنت هذا الطفل الذى لا يلهو ، الطفل الذى وضع فى حسبانه منذ كان صغيرا أن يكون روائيا ، فحاول أن يصل إلى هذه الدرجة ، فلا يلهو مثل بقية الأطفال فى لعبة ولا يشترك معهم فى شجار أو نقار حتى إن رياضتى كانت رياضات فردية تأخذ الهدوء والتأمل

والتعقل ، وخالى من الشخصيات القليلة النادرة التى لا تغضب فهو دائما يبتسم ونطلق عليه حكيم الأسرة وحاكمها ، فإذا كانوا فى ضيق أو فى أزمة وتعرضوا لأمر ما فإن حكيم الأسرة وعاقلها هو خالى إبراهيم هو من يقول القول الفصل ، دائما يبتسم إذا تحدثت إليه فى أمر وعقلك يطير شررا وترى الدنيا وكأنها قد اسودت فى عينيك ، يضيق بك المكان وتضيق بك الدنيا ، تذهب إليه فإذا بالدنيا قد اتسعت وإذا بالضيق فرجا وإذا بالحزن يذهب والفرح والأمل يأتيان إليك فتستريح فتنظر إلى وجهه تجده مبتسما دائما ، لم ألمح على خالى إبراهيم لمحة يأس أو إحباط أو إحساس بالذنب أو بالغضب ، كان دوما يبتسم يأخذنى فى قص رواية شعبية ، رواية من روايات الحكماء فى القرية ، إن أهل البندر يتصورون دائما أن أهل القرى سذج وعبط ومن السهل أن تضحك عليهم الحكومة ولكن الحقيقة أنهم هم أمكر كثيرا من أن تضحك عليهم الحكومة كانوا هم دوما الذين يضحكون على الحكومة ويمكرون بها ، ولديهم من الوسائل ما يستطيعون تنفيذ أمورهم الخاصة بحياتهم وكأن الحكومة هذه فى واد آخر ؛ لأنهم لم يعودوا يؤمنون بأن السلطة الحاكمة تعمل فى صالحهم ، ويبدو أن هذا من طول

الاستعمار وطول الاستبداد وطول التكبر من قبل الحكومة المركزية وبالتالى ممثلوها فى القرى والبنادر الصغيرة ، كان خالى مثالا لهذا الفلاح الذكى الفطن وهو يجمع أيضا بالإضافة إلى أنه فلاح ذكى فطن ، مؤمن أشد الإيمان يجمع بين هذا ودرجة ما من التعليم حصل عليها من الأزهر الشريف ، وكان لديه من العلم الذى أعانه على أن يشكل عقله ويتدبر أمر نفسه وأمر أسرته مهما كان العمل ، مجاملا إلى أبعد الحدود ، فلا يوجد مأتم إلا وذهب إليه مواسيا ولا فرح إلا وذهب إليه مباركا ولا توجد جلسة من جلسات المصالحة إلا وكان رأسها ، تجده دائما فى ترحال دائم يزور فلانا فى القاهرة ؛ لأنه سمع أنه مريض ويأخذه إلى الطبيب ، ويزور فلانا فى أقاصى الدلتا لأنه سمع أنه له ولدا سوف يتزوج ويجامل هذا فى منطقة ثم بعد ساعة تجده فى منطقة أخرى كل هذا وهو حريص على أن يزور أفراد أسرته فى بيوتهم فردا فردا وأن يسلم عليهم ويعرف أخبارهم ويشترك فى حل مشاكلهم بل ويقضى حاجتهم إذا ما كانوا فى حاجة إلى معاونة فلا فرح يحدث فى الأسرة إلا وهو قائد هذا الفرح . . .

(توقف عن التسجيل)

انتابتنى أمس نوبات من الآلام الحادة فى معدتى وإحساس بالحمى غريب أخذنى طول اليوم فى دوامة من الألم لا أدرى كيف بدأت ، ولكنى أعلم كيف انتهت ، يبدو أن ذاكرتى بدأت تعانى ضعفا شديدا فلم أعد أدرى ما هو الماضى وما هو الحاضر ، كان أبى عندما تؤلمنى أسنانى ، يحضر لى شخصا يدعى أنه طبيب ، ويقوم هذا الشخص بخلع ضرسى بطريقة بدائية غريبة ، وقتها يظل فمى ينزف طوال النهار وبعضا من الليل مع ألم حاد فى فمى ، أبكى وأنا راقد على الفراش ، هل أنا الآن بين يدى ذلك الطبيب المجول فى الأسواق يقوم بخلع ضرس ، أم أنا ذلك الرجل العجوز الراقد فى مستشفيات لندن بسبب خطأ طبيب الجامعة؟ من هو الرجل؟ الطبيب الذى أجرى لى الجراحة أم الطبيب الذى قام بخلع الأسنان؟ لا بد من أن أحدهم دجال ، أو كلاهما أو لا بد من أنهما يتصفان بصفة واحدة إلى أين يقودنى هذا الطريق؟ بانديا يقول: لا تكلف نفسك مشقة التفكير فى الماضى يجب أن تحارب يجب أن تكون مقاتلا ، نعم يا بانديا حاولت أن أكون مقاتلا ، ماذا أفعل سوى ذلك؟

ليس أمامى من طريق سوى أن أكون مناضلا ومكافحا ،

أكافح من؟ هذا هو السؤال ، أكافح من يا باندیا؟ يا بن قرية بعيدة فى الهند ، يا من تضحك معى دائما وتبتسم فى وجهى ، وتقول لى الكلمات الطيبة التى على لسان طبيب ماهر مثلك ، ماذا أفعل؟ هل أبكى لأتخلص من هذه العقدة التى تلازمنى الآن ؟ لم أعد أفكر ، الآن أنا ابن الرابعة أم ابن الرابعة والأربعين؟ أنا فعلا ابن الأربعة والأربعين ؛ لأننى بالفعل لا أدرى ماذا أقول . لقد قلت كل شىء عن أسرتى وكأننى أفضحهم وكأننى كنت أتخلص من حمل ما كنت أحمله ، لا أدرى ماذا سيقول عنى القراء؟ هل قلت ما لا يجب قوله؟ إن الناس من حولى يتكلمون عن جمع المال وكأنه أصبح الصنم الذى يعبدون ، قلت صادفنى من بعض المصريين من أهل المهجر من يتسمون بشراسة غريبة ، يقدمون عليك هاشين باشين بأيديهم الهدايا ، لم يعرفوك من قبل سمعوا أنك مريض فجاءوا إليك ، هذا فى حد ذاته حسن مرحبا بكم يا أهلى يا جيرانى يا وطنى يا مصر ، أهلا ،

(توقف عن التسجيل)

الفصل الثامن



مصر ، مصر أم الدنيا ، لكن الذين يقيمون فى لندن لهم رأى آخر ، فأغلبهم عندما تجلس إليهم يقولون عن مصر أشياء كريهة جدا ، المواصلات زحمة والأسعار نار والحياة لا تطاق والجو ملوث والماء ملوث.. تظل تقاوم هذا الاتجاه ولكنك لن تفلح أبدا ، جاءوا إلى هنا من أكثر من عشرين عاما وأقاموا حياتهم واشتروا بيوتهم .. وأطفالهم يدخلون المدارس ويتخرجون ثم منهم من لايجد عملا ، يتبادلون شرائط القرآن ، ويذهبون لصلاة الجمع ولكن الإيمان - أستغفر الله قبل أن أقول هذا الحديث - لم يصل بعد إلى قلوبهم ؛ لأنهم يتحدثون عن المال : بكم هذا ؟ ولماذا أنفقت؟ وهكذا دائما يتفرقون ، ويتشيعون فرقا ، والكل يشكو من جفاء الآخر ، لا يذهب إلى زيارته حتى إذا مرض ، حتى إذا توفى أحد أقاربه ، ومع هذا يشكو من الوحدة ويشكو أن أحدًا لم يزره ولم يسأل عنه فى محنته ، فلماذا لم يذهب هو؟ يقول لك إن بقية الشعوب تتضافر ، الجاليات الأخرى تشكل الأندية تترابط فيما بينها ، أما نحن فلا .. الذين يزورُننى ولا بأس فأنت مريض وأنت تعانى الوحدة والألم وكل أصناف التعذيب البشرى والجسدى ،

ومع هذا تسمع هذا الحديث ، ها هو ذا الريان قد ضحك على الحكومة وعلى الشعب وضحك علينا وكأن الريان هذا بدعة من البدع ، وأنا هنا فى المستشفى منذ زمن سمعت فى نشرات الأنباء عدة آلاف من قصص الريان هذه ، فى أمريكا مثلا سمعت أمس عن بنك ضخم جدا أشهر إفلاسه بسبب أنه فقد فى يوم واحد عشرة ملايين من الدولارات بسبب أحد الموظفين ، والديمقراطية والذين يتشدقون بحرية الكلام فى هايد بارك ، هنا فى هذه المنطقة التى توجد بها المستشفى ، تسببت إحدى الشركات العقارات فى أزمة سكنية حادة وفى انخفاض حاد فى الأسعار العقارية ، حتى إن الكثير فقدوا أموالهم فى تلك المضاربة المجنونة التى كان سببها أحد الأفراد الذين فعلوا ما فعل الريان فى مصر ، وكأن ما يحدث فى مصر بدعة بالنسبة للمهاجرين هنا ، الذين جاءوا فرارا من شىء ما ، وأقاموا هنا حياة ناجحة : من يملك مطعما كبيرا ، ومن يعمل فى منصب مرموق، ومع هذا يضنون علينا بكلمات رقيقة عن بلادنا وكأن النيل لم يجرِ فى عروقهم، ويتحدثون بإنجليزية ركيكة ولكنهم يتخاطبون مع غيرهم وكأنهم قد نسوا العربية ، وفى يوم الجمعة تجدهم جماعات ووحدانا يتجهون إلى المساجد

ويتبادلون شرائط من كل صنف ولون وشكل ، هذا الشيخ (رشدى) وهذا الشيخ (جابرى) وهذا الشيخ (النجعاوى) وهذا الشيخ (الجعفرى) ويتحمسون لهم وكأنهم قد وصلوا إلى حد الصوفية ، عندما تسألهم سؤالا حقيقيا تجد الرد الجاهل وكأنهم ما سمعوا فى مسجلاتهم الإجابة الصحيحة ، مجرد سماع أو مجرد تباهى بأن لديه شرائط الشيخ فلان أو لديه دروس الشيخ فلان ، فى بداية أمرى انكبوا علىّ فى حماس ، مصرى مريض يجب أن يلتفوا حوله ولكن عندما ازداد مرضى وطالت مدته بدءوا ينصرفون كل منهم لا يسأل ، كان فى بداية الأمر متحمسا غاية التحمس ، ماذا تريد وأنا أصنع لك الطعام نحن نضع لك الدنيا كلها بين يديك فى الزيارة الأولى ، والزيارة الثانية تأتى بعيدة ، يقولون لك الدنيا مشاغل ، هنا لا بد من أن تعمل وهنا لا بد من أن تكسب ؛ نحن فى الغربة ولا بد من للغربة ثمن، يجب أن توفر النقود ، أنت لا تعرف الأيام تنظر إلى هذا الشخص الذى يتكلم تجده فى الستين وأن لديه من المال الكثير ويعترف لك بوفرة ماله وفى الوقت نفسه وفى الدقيقة نفسها يعترف بأنه فقير جدا وأنه يحتاج إلى العمل ، تسأل هل تملك بيتا؟ يقول لك نعم وفى أفخم مكان فى

لندن ، إنه يساوى مليونا من الجنيهات الإنجليزية تقول لماذا لا تعود إلى بلدك وموطنك وتقيم مشروعا صغيرا ينتفع به بعض الشباب؟!

(توقف عن التسجيل)

وجريت نحو خالى ، جريت إليه كم كان عمرى فى ذلك الوقت؟ الرابعة أم الخامسة عشرة أم الأربعين؟ رجلا كامل الرجولة ، قالوا إن أبى خص أخى الصغير بقطعة أرض ، ثار إخوتى دون أن يعلنوا هذه الثورة أمامه ، وجاءونى ، تصوروا أننى سوف أواجه أبى ، كنت بعيدا عن هذا المضمون التراثى والاجتماعى والوراثى لهذه القضية ؛ فلم أكن أتصور مطلقا أن أبى سوف يموت وأننى سوف أرث عنه مالا أو عقارا أو أرضا ، لم أتعود التفكير بهذه الطريقة، وقد حاولت ما استطعت أن أشكل نفسى بنفسى وأن أبنى نفسى بنفسى ولا أكون محتاجا فى يوم من الأيام إلى أحد. الآن يدفعوننى لكى أتحدث مع أبى صراحة حول إجلاء هذه الإشاعة ما إذا كانت حقا أو مجرد أقاويل للناس وذهبت إلى بلدتى وجلست إلى مائدة طعام تضم أفراد الأسرة ولم يكن بيننا ضيف حتى نحتفى به كعادتنا فى الريف ، نعد الوليمة ونزيد فى الطعام ونسرف فى ذلك إسرافا شديدا يصل إلى

درجة التبذير والعياذ بالله جلسنا نضحك ونأكل ما نشاء من الأكل وأبى يجلس وسطنا ، يعطى هذا ويناول ذلك كعادته دائما، إنه يأخذ قطعة اللحم يقضمها أولا ويتلذذ بها ثم يناولها لولد من أولاده أو بنتا من بناته ولا يقدر أحد من أولاده على أن يقول لا بل يأخذها بسعادة ورضا ويأكلها ، أما أنا فقد كنت دوما أجلس بجانبه فإذا به يعطينى اللحم ويقول كل وآخذ اللحم وأضعه فى الطبق لأننى لا أشتهى اللحم كثيرا ، وبالطبع أخص أخى الذى يجلس بجوارى ، وأعطيه طبقى لكى يأكل هو ما شاء. وعندما انتهى الطعام فإذا بأبى يواجه إخوتى بقدر كبير من القسوة ويوبخ كل منهم على حدة ، ويكشف بعض أسراره بحيث لا يستطيع أخى الرد عليه فلما أخذهم جميعا بهذا الذى قاله صمتوا جميعا ولم يقل أحد منهم ما كان يقوله لى قبل أن آتى إلى هنا ، قلت يا أبى أنا أعلم أنك رجل ذكى وأن أولادك يرثون منك هذه الدرجة العالية من الذكاء والفطنة فلا تلومهم إذا كانوا أذكياء وحاولوا استغلال ذكائهم فى تجارتهم وفى أعمالهم فلا توبخهم هكذا فإن هذا الشبل من ذاك الأسد ، فإذا به يفطن إلى ما أنوى قوله فأراد أن يجعلنى أنا أيضا فى قفص الاتهام ولكن بشكل مغاير ، فيقول لى اسكت أنت فأنا

حزين من أجلك ، أنا لا أخاف على أحد منهم بقدر خوفى عليك فأنت الفاشل الوحيد بينهم ، وكانت صدمة لى أن يقال عنى هذا بين إخوتى وأسرتى وبين الذين أحببتهم فكيف يقول لى هذا بعد ما فعلت ؟! تصورت أننى قد وصلت إلى ما يمكن أن يصل إليه طالب علم فقد نلت أعلى شهادة فى سلم العلم وأصبحت أبحاثى تدرس ، بلغت فى عالم الأدب مبلغا معقولا كما بلغت فى الصحافة درجة عالية ونجحت فى تكوين أسرة وبيت ولم أحاول أن أمد يدى لأحد وهذا من فضل الله ونعمته ، فأصبت بدهشة والدهشة انقلبت إلى الغضب وخفت أثور فى وجهه أو أقول كلمة نابية تخرج منى فأجرح مشاعره فقمت مسرعا وقد تملكنى حزن شديد واندفعت بسيارتى من منزلنا وسط القرية إلى منزل خالى على أطراف القرية وكنت أقود السيارة بسرعة رهيبة حتى بلغت حضن خالى وارتميت فيه وأنا أبكى ، أخذنى أبى الثانى خالى إبراهيم وصعد بى إلى حجرتى التى خصصها لى فى منزله وأرقدنى على السرير وذهب لإحضار الطبيب الذى جاء وكتب لى الدواء مهدئا ، فنمت ساعة أو بعض ساعة ، وعندما صحوت وجدت أبى جالسا عند رأسى وخالى يجلس فى الناحية المقابلة عندما استيقظت تلفت حولى

وجدتهما ، اعتدلت فبادرنى خالى بأنه قد أعد لى شايا جميلا كنت قد تعودت أن أشربه من يده أصحو من النوم فإذا به وقف على رأسى ومعه كوب الشاى ، أحيانا كنت أصحو فى الثانية صباحا فأجد كوب الشاى فى يد خالى أو أبى الثانى ، يقف عند رأسى ويناولنى الشاى وكأننى أتوقع دوما هذا الفعل من خالى وابتسامة شفافة على وجهه إضاءة لطيفة محببة ، أشعر بالأمل وبالحياة وأرتشف الشاى سعيدا وأقول له هيه يا خال ماذا وراءك ، فيحدثنى حديثا طيبا به الكثير من الآيات القرآنية وأحاديث رسول الله (ﷺ) وكلها أمل وبشرى وتفاؤل ، أفيق من النوم وأعتدل لأجد مائدة عليها طعام وفير من أطعمة القرية الجميلة آكل ما شاء لى من الأكل ثم نهبط معا إلى الدور الأول فنجلس فى المندرة نتحدث وأحكى له عن كل شيء يحدث لى حتى إننى كنت أحيانا أحكى له الأشياء التافهة مثل ماذا أكلت فى الأسبوع الماضى ، ماذا قالت لى ابنتى ، ماذا قلت لها؟ كيف ضحكت ، وكيف ضحكت ، أشياء عادية بالمرة ولكنى كنت أحب أن أحكيها لخالى ، وكان هو يسألنى إذا ما لم أخبره بهذا الأشياء العادية فإنه يحب سماعها ، هذه المرة قال لقد أعددت لك الشاى ، ولكنه غير ممسك بالكوب ونظرت إلى أبى فوجدته يبتسم

ويقول لخالى يا خال لا أدرى لماذا هو غاضب منى فأنا لم أقل شيئا يغضبه؟ تلفت حولى لقد قال إننى فاشل وإننى لم أنجح وإننى أضعت حياتى هباء ، لم أفعل شيئا ، هل هذا لا يغضب رجلا فى الأربعين وصل إلى بداية الشيخوخة ويقال له إنك فاشل ومن من؟ من أبيه؟! نظرت إلى أبى ضحك وضحكت وضحك خالى بصوت مسموع فتجمع أولاد خالى بسرعة وهم يضحكون وأخذ كل منهم يقبل الآخر وكأن ضحكة أبى ثم ضحكة خالى ثم ضحكتى إيذانا ببداية سعيدة، وكأن كابوسا قد زال وأحضروا الشاى وشرب الجميع وامتلأت الحجرة عن آخرها بأولاد أخوالى وهم يتصايحون ويتحدثون فى وقت واحد ، ذهبت إلى خالى فى الرابعة ، لا أذكر وكنت أبكى أيضا ولا أدرى لماذا بكيت يومها ، وذهبت إليه فى الثامنة وشكوت له قسوة هذا الطبيب المجول الذى خلع سنتى وأيضا هذا الطبيب خلع لى مرة ثانية وجريت إلى خالى حزينا لأننى كنت قد كبرت إلى حد ما فآلمنى خلع ضرسى ، وظللت كل عام أشكو من آلام الأسنان حتى إن زوجة خالى كانت دائما تقول لن أزوجك ابنتى لأنك رجل بلا أسنان ، كانت تكرر هذا القول حتى بعد أن تزوجت ابنتها من أحد أقربائى ، خالى منبع من منابع

الحكمة ، دائما يتحدث عن نوعين من أمراض البشر : القلق ، والغضب ، يقول عن القلق إنه مصدر المرض كله ، أن تقلق إذن فأنت مريض ؛ لأن القلق معناه عدم الثقة بالنفس ، وبدايته عدم القدرة على الإيمان المطلق داخل القلب فأنت مؤمن وقلبك قد أسلم قياده بالإيمان وامتلأ بالله أو امتلأ بالإيمان بالله فلن يأتيك الغضب لا من يسار ولا من يمين ولا من فوق ولا من تحت ، فأنت بعيد فى جزيرة منعزلة عما يسمى بأعاصير الغضب ، أما إذا فقدت هذه القدرة الإيمانية المطلقة التى تملأ قلبك فأنت مصدر رئيسى لأعاصير القلق على نفسك أولا ثم على الآخرين ، والقلق عندما يأتى يهز جدار المخ ويصل إلى مصدر التفكير داخل المخ ، هذا قول خالى دائما سمعته عشرات المرات. فالقلق . . يا ولدى هو مصدر المتاعب فلا تقلق ، كل مشكلة ولها حل ، وكل حزن ماله إلى زوال ، وكل ألم له علاج ، والأمر فى النهاية وفى البداية بيد الله ، فأنت لا تملك لنفسك شرا ولا خيرا ، إنما عليك بتقوى الله ، ثم العمل بما يجب أن تعمل ، العمل فى حد ذاته مصدر للرزق وأيضا مصدر للإيمان فى قلبك ، من الممكن أن تتشدق بالأحاديث النبوية الشريفة وأن تتلو دوما القرآن وأن تحفظه

وأن تذهب إلى المسجد ولكن أية بادرة تحدث لك فإذا بالقلق يعصف بك وإذا بالغضب يأتيك وإذا بالغلط يصدر منك . . والغلط يؤدى إلى عواقب وخيمة، الغلط يا ولدى قطعة من هرم تجذبها أمامك فإذا بالهرم كله يتهاوى ويسقط ويصبح كومة من حجارة فوق رأسك منه تبدأ سلسلة من انفجارات متتالية والغضب يحدث من عدم القدرة الإيمانية التى تملأ القلب أما إذا ملأت القلب بالإيمان ثم وثقت بنفسك ثم عملت فإنك فى هذا تحمى نفسك من الغضب ، من القلق ، والغضب ، هذه مقولة خالى ظل يكررها أمامى مئات المرات وفى كل مرة أستعذبها ، ولكن لا أفعلها فأنا كثيرا ما أقلق وكثيرا ما أغضب وكثيرا ما أخطئ وأعترف بينى وبين نفسى بأننى ثائر دائما أقع فى أخطاء كثيرة على الرغم من أنى أشعر بينى وبين نفسى أن إيمانى بالله لا يكاد يتزعزع ولكن ما حيلتى ؟ أنا مجرد إنسان له أخطاء كثيرة بل أحيانا كنت أجلس طوال الليل أبكى لأننى أخطأت فى العام الماضى ، أخطاء لا يمكن تصورها ولا يمكن أن تصدر عن إنسان، وأشك فى أننى نصف مجنون بل إننى ثلاثة أرباع مجنون ، وإننى بالفعل فاقد العقل وفاقد الرشد وكلمة (لو) هذه أكرهها كرها شديدا لو ماذا؟ لو لم أستمع إلى الطبيب

الذى يعالجنى من عشرة أعوام الذى قال يجب إجراء عملية وحدد لى اسم الطبيب واسم المستشفى وكل من كان حولى اعترض على اسم الطبيب لأنه كان من الطبيعى أن يجرى جراحة أخرى أو يصحح الجراحة الأولى ، ولكن قد تقرر هذا وكلمة (لو) هذه لا نستطيع قولها الآن ؛ لأن لو تعنى أنه كان قرار طبيبى صحيحا أو غير صحيح أو أن الجراح الذى سوف يجرى الجراحة على قدر كبير من المهارة أم لا ، وكان ما كان ولو كنت، ولو كنت . . المهم أننى جئت إلى هنا وسقطت فى بئر المرض والألم والحزن ، وأنا الآن جالس على فراشى فى ليلة مظلمة معزول ؛ فالجناح الذى أرقد فيه مهجور ، لا أحد هنا حتى الممرضات بعيدات كل البعد عن المنطقة التى أجلس فيها ، إنها فى مؤخرة المستشفى ، هذا هو المصير الذى انتهيت إليه وأحمد الله عليه ، فقد أعطانى فرصة من عنده حتى أسترجع كل تلك الكلمات عن خالى وأهلى ومصادر ينابيع معرفتى وعلمى ، يتحدث خالى عن التسلح بالعلم فهو موقن تماما بأن الشىء المورث المؤكد الذى يورثه الأب لأبنائه هو أن يعلمهم أن كل قرش ينفقه على تعليم أولاده أو كل جهد أو وقت يقدمه لأولاده لكى يتعلموا فهو إرث فمن الممكن أن يترك لهم

مالا أو عقارا أو أرضا أو أشياء ثمينة وهم جهلاء فإذا بهذا المال يضيع هباء وكأنه لم يترك لهم شيئا ، إنما الذى يمكنه أن يفعله الأب لأولاده هو أن يورثهم العلم هذا هو المطلوب بدقة شديدة من وجهة نظر خالى ، لهذا نظرت إلى أبى وأنا حزين ، أنا فعلا لا أملك دارا ولا عقارا ولا أرضا ولا مصنعا ولا أى شيء ، لا أملك شيئا حتى راتبى يمكن قطعه فى أى لحظة ، لا أملك شيئا أما إخوتى فالله الحمد يمتلكون ولهم ثراء معقول أو ستر كما يقولون فلماذا يغضب أبى وقد تسلحت بالعلم وأنا قادر على استخدام هذا العلم فى عمل يتاح لى واشتغلت بالفعل فى أكثر من عمل مختلف ومتنوع ولدى فى ذلك خبرة طويلة وكنت أذهب من عمل إلى عمل مغاير تماما وأعتقد أننى كنت أنجح .

نظرت إلى مدام (ثريا) التى زارتنى كثيرا وأنا على فراش المرض ، هى لا تريد العودة إلى القاهرة إلا بعد أن تطمئن إلى أن إقامتها فى القاهرة ستكون عيشة مريحة ، هل أضمن لها هذا؟ سألتنى بإصرار وبعناد ، من أنا حتى أضمن لها ؟! أنا مهيض الجناح وصدرى مفتوح ، لا يريد أن يلتئم ، سبحان الله ، إن الأطباء أنفسهم لا يضمنون للجرح أن يلتئم يبذلون من أجله الكثير من الجهد والوقت وأنا أبذل كثيرا من

الصبر ، نظرت إليها، سمراء ذات شعر فاحم ، تبدو- إلى حد ما، شيقة القوام رغم اقترابها من الخامسة والأربعين تعمل بإحدى السفارات العربية لديها ولدان فى المرحلة الإعدادية ، قلت مات زوجك فى الغربة وأنت الآن تقيمين هنا فى بلد المهجر منذ أكثر من عشرين عاما تشكين ألم الوحدة ، لم يكلف أحد من أصدقاء زوجها كى يحضر كما تقولين ذكرى الأربعين إلا ثلاثة من الأصدقاء حضروا بمحض الصدفة وبعد مضى عامين كاملين على هذا الحادث المؤسف بالنسبة لك لا أحد يأتى ، ولا أحد يريد أن يطمئن عليك فى التليفون ، لماذا تصرين على أن تقيمين فى لندن؟ أنت تحصلين على أجر كبير وهذا حقك ، وتودين (خدوا بالكو من كلمة تودين دى) لأنهم جميعا يودون ، لم أقابل منذ إقامتى هنا مهاجرا مصريا لم يود العودة إلى الديار ، جميعهم يودون ولا يفعل أحد شيئا ، جميعهم يودون فإذا قلت أنت تود إذن فاذهب ، فعد إلى موطنك ألك أسرة هناك؟ يقول نعم ، خالى فلان بيه وعمى فلان باشا ، وابنة عمى تعمل فى كذا ولى ابنة خال مذيعة كبيرة مشهورة وابن خالى يعمل فى صحيفة ، وبعد تلك المناصب التى يشغلها أقاربك هل لديك مسكنا يا أخى هناك؟ يقول لى، نعم ، فقد

اشتريت مسكنا جميلا منذ عشرة أعوام أنفقت عليه الكثير وأيضا شقة فى أحد المصايف . أقول إذن إذا كانت هذه رغبتك الحقيقية فلماذا لا تعود؟ يبدأ فى التراجع لأنه يجب أن يفكر جيدا ، ما يحصل عليه الآن لن يحصل عليه هناك والحياة هنا مريحة ، السيارة والشوارع جميلة والمعاملة راقية ولا شىء يشغل البال سوى عمله ويعود فيجلس فى بيته مستمتعا بكل أنواع الرفاهية فلماذا يذهب إلى وطنه؟ إذا ذهب إلى وطنه فإنه سوف يشغل مخه بالأمور العامة والأحداث المهمة مثل الزلازل والسيول وما حدث لآلاف الأسر ، هل يقف مكتوف الأيدى ويرى الشوارع قد امتلأت بالمطبات والهواء قد تلوث ، والقميص الذى يذهب به إلى عمله فإذا بهذا القميص بعد ساعة واحدة يتحول لونه إلى لون مخالف تماما ، هل يقف فى طابور المخبز ليحصل على مجموعة من الأرغفة لأولاده؟ هل يذهب إلى المدرسة الخاصة ليدفع نصف دخله ليتعلم الأولاد فى مدرسة يظن أنها متميزة ؟ هل يذهب ولده إلى مستشفى خاص ويدفع ألفين فى ليلة واحدة فى مقابل لا شىء يحصل عليه من خدمة طبية؟ يقولون هذا الكلام يا خال وللأسف يا خال معظم هذا الكلام صحيح ، فالشوارع ملأى بالمطبات

والهواء ملوث والذمم أصبحت خربة ، هل نحن فقط فى مصر الذين نملك الهواء المدهون بالدوكو ، فقط نحن البلد الوحيد التى بها كل تلك العيوب ، يا ساتر هنا فى لندن ، ألم تقولوا إننا نذهب إلى أسواق السمك فى الساعة الخامسة إلا ربع لكى نحصل على أنواع جديدة من السمك لأن تجار السمك فى وقت معين سوف يضطرون إلى بيع أسماكهم بأسعار تكاد تكون رمزية ، تصنعون هذا ويصنع تجار السمك هذا ، أهذه بدعة أم ماذا تسميها؟ تذهب إلى المحل فتشترى بثلاثين جنيها ويباع فى سوق آخر بثمانية ، لماذا لم تقل لنا هذا؟ لماذا لم تقل لنفسك إن الإيجارات ترتفع ، مضاعفة بشكل يثير غضب الناس ، فالبيت الذى إيجاره مائتين يصبح فى العام الذى يليه أربعة والضرائب وما أدراك ما الضرائب ، وكل الأشياء التى تنغص حياة البعض هنا فى إنجلترا بلد الديمقراطية والخزى والعار الذى ترتكبه أميرات الأسرة المالكة من فواحش الأفعال التى يبثها التلفزيون ليل نهار ، بحجة الديمقراطية ، ولأن المهجر ليس موطنًا فلا الملكة ولا رئيس الوزراء ولا قرار البرلمان يهمه إنه مواطن من الدرجة الثانية وبالتالى لا يهتم بالأحداث الجارية من حوله ، عليه فقط أن يعمل وأن يأكل جيدا وأن ينام

جيدا ، هل هذه حياة؟ أيها السادة إنكم كثيرون وتقولون إننا لا يعرف بعضنا البعض ، إننا نعيش فى جزر منعزلة كل منا يشكو من نفسه ولا نفعل شيئا فقط نعمل ونعمل ، ثم ماذا؟ ماذا بعد جمع المال؟ لا شىء وكأنك يا خال عندما تتحدث فى القلق والغضب والخطأ وعن الدرجة الإيمانية التى تملأ القلوب ، وما إلى ذلك من أحاديث هى بالتأكيد لا تخص كل هؤلاء الناس لقد قدم إلىَّ أحدهم ما يقرب من ثلاثين شريطا. دروسا دينية تحث المرء المسلم على خدمة المواطنين وعلى الخدمة العامة وعلى الإحسان إلى الجار وجار الجار وعن ضرورة التمسك بآداب الدين وعن آلاف القيم الإسلامية ، ثم تجد الشخص نفسه يتحدث أمامك عن المال فقط ، إنه حتى الآن لم يجمع سوى تسعة ملايين ، ماذا يفعل بها؟! ماذا يفعل؟! هذا من أجل أولاده ! إنه جاء للدنيا ليكون أداة يأخذ ليعطى وهم وقفوا مكتوفى الأيدى ينتظرون موته لكى يأخذوا ما ادخره لهم ، أنا لا أعمل من أجل نفسى وإنما أعمل من أجل أولادى ، يقول هذا متباهيا يقولون إذن فلننتظر وفاة الأب حتى نرثه ، أنت يا خال الأب ، يجب أن يورث أولاده العلام والتعليم . فإذا ما تعلموا كانوا على قدر كاف من المواجهة وهم ورزقهم ، إذا

شاء ربك أن يرزقهم ، من المال الكثير أو يمنع عنهم كثرة المال لحكمة فى علمه سبحانه، هذا أب جمع ثروة ومات وتركها ، فيتحول الإخوة إلى أعداء ، كل منهم يريد نصيب الأسد من تلك الثروة ، لأنهم منذ طفولتهم يحلمون بالمال كل منهم يطمع فى الكثير ليتركه لأولاده بدوره . لقد أراد لنا الله التعبد ، والعبادة هى الإرث ، وهى العمل وإعمار الأرض إذا شاء ربك أن يعطيك من المال الكثير ، وكما يشاء ربك أن يعطيك فربك أيضا رب أولادك وسوف يعطيهم ، فلست أنت العبد وحدك ولكن أولادك من ضمن عبيده ، اشتغال المؤمن بإعمار الأرض بغاية أن تصبح الدنيا أجمل ، لا من أجل أولادك فقط بل من أجل كل الناس ومن أجل الخير فى حد ذاته ، أنت تزرع الشجر الكبير وأنت لن تراه وربما أولادك أيضا لن يرونه ولكن تزرعه لكى تعمر الأرض بالخضرة ، وأنت تملأ الأرض بالثمار ليأكل الناس هذا هو العمل ، والعمل عبادة أما أن تعمل لتختزن المال فهذا أمر يبدو لى مرهقا للعقل ولهذا فهم هنا مشتتون حيارى .

خالى يحترم العلم والعمل وتراه دوما يعمل ، إما فى التجارة أو الزراعة ، لم أره فى حياتى كسولا رغم هدوئه وابتسامته العريضة وحديثه الودى الودود وزيارته لأقاربى فى

أقصى الصعيد وفى شمال الدلتا فى جميع المناسبات مرة هنا وأخرى هناك واستعداده الدائم لمعاونة أى إنسان يأتى لطلب المعاونة يقول : القرآن يجب أولا أن يدخل إلى قلبك ويصعد من قلبك إلى عقلك ، وتفكر فيه فيهبط ثانية إلى قلبك وتشعر بالسكينة والسلام والأمان والطمأنينة . سأكتفى بهذا القدر فقد شعرت بإرهاق بعد أن عرفت أننا الآن بعد منتصف الليل ، وأنا الآن مهدد بغضب الممرضات . . جاءنى ولدى الصغير ووقف بباب الغرفة فقلت لماذا لا تنادينى حتى أحضر إليك . . وصحوت من نومى متعبا .

عندما كنت فى السعودية منذ ما يقرب من سبعة أشهر وفى أخر زيارة لى لمدينة الرياض ، حدثنا المرشد المرافق الذى اصطحبنا وكنا مجموعة من كتاب العالم العربى نجول فى المنطقة الأثرية فى مدينة الرياض وهى القلعة القديمة قبل أن يدخلها الملك عبد العزيز آل سعود ويوحد المملكة فى إطار واحد سميت بعد ذلك بالمملكة العربية السعودية ، ولا أدرى سرًا وراء تلك الحكايات الغريبة فقد فكرت فيها توا ، فى أوبرا عايدة مثلا نجد أن القائد المنتصر وزوج الأميرة ابنة الفرعون هذا القائد المنتصر بعد أن عاد بانتصار ساحق على مملكة الحبشة ومعه آلاف من الأسرى وآلاف

من الحيوانات الوحشية إلى الملك الفرعون ومن بين هؤلاء الأسرى ملك الحبشة وابنته السمراء الجميلة فيقع هذا القائد العظيم وهو فى الوقت نفسه زوج ابنة الملك أسيرا فى حب تلك الفتاة السمراء سجينة القصر وتستحوذ على لبه وتدفعه إلى الخيانة وتفشل المؤامرة ويزجان سويًا فى السجن ، ويتحول السجن تدريجيا فى نهاية الأوبرا إلى أن يصبح قبرا يضمهما معا والغريب أن هذه الحكاية تتكرر دوما وتنتهى عندما ينتهى الحب .

قليل من عذاب الدنيا والدنيا كلها عذاب ، تمرض بقليل من أنفلونزا يعد بالنسبة لك مرضا يلزمك الفراش عدة أيام مثله مثل عملية القلب كلها ثوان وتبقى زى البمب أنا أكرر دائما هذا ، وهم دائما يحتاجون إلى مثل هذه الأقوال لكى تعود إليهم الطمأنينة خاصة الذين جاءوا من الأقطار العربية لا يجيدون الإنجليزية يريدون من يتحدث إليهم لكى يدخل على قلوبهم الراحة ، وهم يتصورون أنهم مقدمون على الموت بقليل من المرح الذى أتظاهر به أمامهم وبكثير من الإيمان والدعاء وآيات الله المباركات يجلس المريض وقد هدأت نفسه وذهب إلى حجرة العمليات وهو متيقن – إن شاء الله – من الشفاء وتكرر هذا مع كثيرين . وبعد أن شفوا

تماما تحدثوا إلىّ بالتليفون أو زارونى وكل منهم يحمل هدية
لكى يقول لى شكرا ويسألون لماذا أبقى بحجرتى وأقول أنا
(شاويش المستشفى) أنا (العمدة) لقد أرادوا أن يحتفظوا بى
كتميمة لهذا المستشفى لكى أجلب لهم الحظ فأنا دائما أول
من يقابل المريض القادم وآخر من يودع المريض المعانى
بإذنه تعالى . حجرتى بها الكثير من الهدايا وكثير من الأشياء
التى تؤكل بداية من الحلاوة الطحينية إلى البلح الأمهات
مرورا بالعنب والمانجو والكمثرى والتفاح وغير ذلك من
الفاكهة والجميع يأتون ويأكلون ويأخذون ويتركون ولا أحد
فى حجرتى يسأل من هذا ومن ذاك بل الحجرة أحيانا تمتلئ
بالناس سواء من المرافقين للمرضى أو المرضى ، وفى ذات
مرة جاءت إلينا ممرضة إنجليزية صارمة وقالت يجب ألا
تختلط بالمرضى عندك مرض معدى يمكن أن تنقل إليهم
العدوى لم أنم ليلتها ظللت مسهدا؛ هل أنا إلى هذا الحد
مجرد جرثومة تنقل العدوى إلى الآخرين مع أننى أبتسم فى
وجه الدكتور وفى وجه الممرضة وفى وجه المريض وفى
وجه كل زوارى بينما أتألم بشدة ، وقد كنت بالأمس فى
حالة غاية فى السوء وعندما يقترب منى أحد أسرع بالابتسام
وأردد بالإنجليزية أنا بخير وقد تحسنت اليوم عن أمس ،

لا أدرى لماذا تحدثت عن نفسى ربما لأن الطبيب كان عندى منذ لحظات وتحدث معى حول الأدوية ، ولكنى كنت أتحدث عن النماذج التى نراها فى أجهزة الإعلام وفى المسارح وفى الأفلام طول قرن كامل وهم يعرضون علينا أن الحب جميل وأن المرأة لها الحقوق نفسها التى للرجل وأننا يجب أن نعترف بحق المرأة فى الحياة وفى الحكم وفى تبادل العواطف بل رأيت فى التليفزيون مجموعة من القرارات التى اتخذها مؤتمر النساء فى بكين فاستغفرت الله كيف تطالب المرأة بالدعارة؟! كيف تطالب المرأة بحرية الجماع وحرية الإجهاض وحرية التنازل عن شرفها وما إلى ذلك من حريات؟! بل وجلست إلى مجموعة من الممرضات وهن يتحدثن عن أهمية الحرية فى أن تتزوج المرأة بأخرى وأن يتزوج الرجل برجل أخر هذا يبدو من وجهة نظرهن أمرا طبيعيا وهم يوافقون عليه كيف يتزوج طالما أنها تستطيع أن تذهب معه أو يذهب إليها فى أى وقت شاءت؟ فلماذا الزواج؟ ولماذا تلك الأفلام والفقرات والقصص عن أن الحب هو كل شىء أن تخرج الابنة عن طاعة أبيها وأن تصور السينما والتلفزيون هذا الأب على أنه رجل جلف لا يفهم فى العواطف ولا يفهم فى القيم الروحية

ولا يفهم فى الحرية وهو يقف عثرة فى سبيل سعادة ابنته أو ابنه لماذا لا نترك الحبل على الغارب؟ حسنا هنا فى إنجلترا تركوا الحبل على الغارب لنرى إذن تلك الحرية : آلاف من البنات فى بداية المرحلة المتوسطة والفتاة لم تتجاوز عامها الحادى عشر وهى حامل تسأل ماذا تفعل ؟

والأب بالطبع مجهول عندما يسألونها تبدو مثل طفلة تعبث بضفيرتها من هو والد الطفل تقول لا أعرف كنا فى نزهة مع عشرات من الشباب فكيف تعرف من هو والد الطفل؟! توقف الطبيب الإنجليزى فى غطرسة وقال : يجب أن تستعد للجراحة . وإن محمد عبده وإن إسماعيل باشا عرفوا أن أوروبا هى النموذج الأمثل للإسلام . ما أكتبه مجرد تهويمات ومجرد ثرثرة مريض يا أخى القارئ لا يهمنى أن تقرأها أو لا تقرأها ، لم يعد أحد يقرأ الكتب ، دلونى ، على من قرأ نجيب محفوظ؟ رغم شهرته الواسعة كم كتابًا وزعته المكتبات لنجيب محفوظ فى كل العالم العربى؟ هه ، ألف ، ألفين ، خمسة ، عشرة آلاف ، خمسين ألف؟ وكم عدد أفراد سكان الوطن العربى ، مائة مليون ، مائتا مليون؟ ثم تتحدث عن خمسة آلاف ، كلنا نعرف نجيب محفوظ من التلفزيون من السينما ومن الصحف ، ولكننا لم

نقرأ له ، من يقرأ لنجيب محفوظ ؟ من يقرأ لفتحى سلامة ؟ ها هو ذا فتحى سلامة يكتب روايات فلا داعى إذن أن أكتبها بكل حرفنة وكل لغة رصينة أبذل فيها دمى وقلبى وحياتى لكى لا تقرأها أنت ، لكى تطبع وتوضع على أرفف المكتبات ، ثم إذا كنت صديقى تأتى وتسبنى لأننى طبعت الرواية ولم أعطك نسخة ، يا سلام ، هو أنا طبعت الكتاب عشان أوزع منشورات انتخابية يجب أن أحظى بإعجاب سيادتك ، لمجرد أن أعطيك نسخة ممهورة بإمضائى ، لماذا لم تشتر أنت نسخة؟ إذا كنت فعلا صديقى اشترِ نسخة ، هذا أفضل لى وللناشر الذى دفع دم قلبه من أجل نشر الكتاب، أما أن توبخنى يوما كاملا لأننى لم أسأل عنك وأعطيك نسخة مجانا تضعها فى مكتبتك لتتباهى بأنها جاءت من صديقك فلان بل ويتباهى النقاد بأن كل تلك الكتب الزفت جاءت إليه عندما تكتشف هذا الزفت الذى جاءت إليه تجدها كتبا لـ(محمود العزب) و (محمود البدوى) و (نجيب محفوظ) و (ثروت أباظة) وغيرهم ، هؤلاء الزفت من وجهة نظر الناقد اللى مش راضى لأنه هو أيضا زفت فى زفت يقذف بالكتب فى سلة المهملات ليس لديه الوقت الكافى للقراءة يقول لك إن عينه لم تعد تبصر ومع هذا يصر على

الكتابة أسبوعيا صفحات من تاريخ الثقافة المصرية كأنه قد كتب فى زمانه الأول كتابا واحدا ثم أخذ ينشره على حلقات ثم جمع الحلقات لكى يجعلها كتابا ثم وزعها على حلقات، هكذا منذ أن بدأ الكتابة ويجب أن يقول على روايتى هذه الزفت لأننى بالفعل أعتقد أنها زفت ، فحتى لا يقول عنها «زفت» أنا أعترف من الآن بأنها زفت هذه ليست لغة عربية إنما من العامية ولا داعى لتحويلها إلى لغة عربية وأصدقاؤنا الكتاب وخاصة هؤلاء الذين كانوا فى يوم ما يتجهون إلى موسكو وقد تحولوا إلى جهة أخرى راحوا يكتبون بالعامية حتى تكون أسهل ، حسنا يجب أن أقول أنا أيضا مثلهم الموضة كده الكتابة بالبلدى ربما يفهم بعض الناس ، وخاصة إذا كانت الكتابة من (الألب) قصدى من القلب المجروح .

نعود إلى الينابيع أو إلى مصادر الرواية وخاصة أننى على وشك ختامها فلا داعى للخوض فى حكايات أخرى أنا لم أتحدث عن حرب ٦٧ وماذا حدث فى معسكر شبابنا كيف احترق ؟ كتبت قبل الحرب عن هزيمتنا فى ٦٧ فى مسرحية (ما بعد الحروف) ولم يلتفت أحد إليها على الرغم من أنها كتبت فى إبريل سنة ٦٤ فى الساعة التاسعة صباحا ، يوم ٦٧

يوم بدأت فى كتابة المزامير وهى عن حرب أكتوبر لم يلتفت أحد يذكر كتاب المزامير ولأننى لست من أبناء الشلل ولا أشرب الخمر ولا أتعاطى المخدرات ولا أجلس مجالس النساء كل ذلك أبعدنى عن دوائر النقد وأرجو أن أكون قد أحسنت خيرا أننى ابتعدت عن النقد وأنا أسعد كثيرا عندما اكتشفت أن قارئًا ما فى بلدة ما قرأ كتابى وأعجب به وأسعدنى أننى ذات مرة حدثتنى أمى أنها كانت فى زيارة لإحدى القرى ومعها جماعة من أقاربنا فإذا بالسيارة تتعطل ويقف السائق ليقول للنساء انتظرن هنا لحظات حتى آتى بمن يصلح السيارة فإذا بسيدة تخرج إليهن وتقدم لهن المقاعد لكى يجلسن فى حماية دارها وتقدم لهن الماء والشراب ثم كعادة النساء تتحدث كل امرأة عن عائلتها وعن ابنها الذى أصبح مدرسا أو وكيلا للنيابة أو محاميا أو ما شاء الله ، بسم ، بسم الله النبى حرصه بقه دكتور ، وجاء الدور على أمى وكانت لا تجيد الحديث فهى قليلا ما تخرج من البيت وقد خرجت اليوم لأنها فى واجب عزاء لإحدى قريباتها فإذا بها لا تجد من تتحدث عنه سوى أن لها ابنا اسمه كذا ويقيم فى القاهرة ويعمل عملا لا تفهمه جيدا فهو يكتب الروايات الخيالية فإذا بصوت رجل من أقصى الدار التى يجلسون

أمامها يهرع إليها ويسألها هل حقا هى أم ذلك الكاتب الكبير تقول له أمى إنه ابنى الكبير ، ويعود الرجل إلى أمه ويخبرها بأنها الآن تحظى باستضافة أم رجل عبقرى ، والأم تفهم شيئا واحدا أن ولدها يتحدث عن شخصية مرموقة ويبدو عليه السعادة والانشراح فتقسم أن . . تستضيف أمى ومن معها للغذاء فتذبح لذلك شاة وتقيم وليمة فى شرف أم هذه الشخصية المرموقة يتحدث عنها ابنها الذى يعمل مدرسا بإحدى الكليات ، وهو يعرف قيمة الشخصيات المهمة وعادة يكون فى نظرها وكيلا للنيابة ، أو ناظرا لمدرسة ، أو رئيسا لابنها أى أنه شخصية مهمة وكفى فلتقم لها مأدبة مكلفة حتى يحظى ابنها بعين الرضا وتشعر أمى بالفخر لأنها أنجبت ولدا مثلى ويتصادف أن أزورها فى اليوم التالى فأجدها سعيدة كل السعادة لأننى شخص معروف وأدهش لأنها لم تعر اهتماما من قبل ، وكل ما كانت فعلته أنها تبتسم عندما تسمع أننى صاحب المسرحية أو التمثيلية الإذاعية أو المسلسل الذى يذاع فى التلفزيون ، يقول لها شقيقى انظرى يا أمى هذا هو اسم أخى مكتوب على شاشة التلفزيون وتبتسم وتقول (ليه يا ابنى كده ، مش كان أحس ما يكتبوش اسمه عشان ما حدش يحسده) ، ويضحك إخوتى كثيرا على

أن اسمى مكتوب وأن أمى خائفة من الحسد ، وعندما أمرض تقول انظروا ما كنت خائفة منه حسدوه بالفعل وعندما أزورها بعد ذلك تجلس بجوارى وتمد يدها برقوة ترقينى بها لأنهم كتبوا اسمى ذات مرة فى التلفزيون أو أن ابن أخى الصغير وضع يده على اسمى وهو مكتوب فى الصحيفة ، انظرى يا جدتى هاهو ذا اسم عمى أنا أستطيع أن أقرأه لك ، هذه . . تضحك أمى وتقبل الاسم وهى سعيدة ثم تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم لأننى أعمل مع الكفرة ومع الذين ينشرون صورا قبيحة وتقذف بالجريدة بيدها وتقول لحفيدها انزع اسم عمك ثم احرقه حتى لا يدوسه من يدخل درنا ، ويضحك الولد ، أعود إلى خالى ذلك الرجل الذى تأثرت به كثيرا والذى كان يعطينى الحكمة بالقول والفعل فى الوقت نفسه ، فكان إذا ما حدث لى مكروه أجده بجوارى يخفف من ألمى ويبثنى العزيمة والقوة ويجعلنى أعود إلى حظيرة الإيمان ويأخذنى إلى المسجد وأصلى وهناك حيث الهدوء الشامل والحصير البارد والكون المفعم بالقداسة والإحساس بالإيمان المطلق بعيدا عن ضجيج أوربا التى عشت بها كثيرا وعشت فى بلدانها ، ورأيت فيها العجب وكأننى أرى نهاية العالم ثم بعد ذلك أتذكر الأعمام

والأخوال ، ولكنى أضمهم فى مصدر واحد يأخذ رقما واحدا ، أما أخوالى فكانوا مصدر الإلهام فى الحواديت الشعبية كانوا يجهلون القراءة والكتابة ولكنهم كانوا يحفظون الكثير من المواويل الشعبية والمدائح النبوية أو تلك الخرافة التى جاءت إليهم من قديم الزمان على شكل حواديت ، حواديت الجن والعفاريت والملائكة وغيرها ، تفسر وجود العالم وتفسر الشر والخير والصراع ، ثم أعمامى الذين تأثرت بأصغرهم الذى يكبرنى قليلا ، فقد تأثرت به تأثرا بالغا على نحو يكاد يكون مسيطرا على شخصيتى حتى الآن؛ فهو على حياء شديد وعلى درجة كبيرة من الصدق والإحساس بالمسئولية والجدية وهو لا يضحك إلا نادرا ومع هذا فهو دائما هاشا باشا فى وجه أولاده ، وأولاد أخيه وأولاد كل من يتعامل معهم ، وعصبيته تلك تذكرنى بجدى فهو لا يثور إلا إذا كان الأمر يستحق الثورة . بالفعل علمنى عمى كل فنون اللعب فقد كان فى طور السن الصغير وأنا كنت فى طور الطفولة نذهب معا إلى الحدائق وإلى الحقول ونذهب إلى مزرعتنا ، وعلمنى كيف أقلع الزرع ، كيف أحصد النبات وكيف أوزع حبات الذرة فى الحقل وكيف أقف خلف الجاموسة عند الساقية وكيف أدير المحراث ،

وكيف أسبح فى الترعة ، وكيف اصطاد السمك ، وكيف أحكى الحكايات ، كان لديه الكثير من الحكايات بل أحببت (أدهم الشرقاوى) من خلال سماعى لقصته من عمى ، ولم أسمع قصص الغرام القديمة إلا عندما كان يرويها عمى من مشاهير الأحبة ، ولم أحظ باللعب والعمل اليدوى إلا معه وقد كان نعم المعلم على الرغم من أنه كان لا يكبرنى إلا بالقليل جدا من الأعوام ، ولكن كانت لديه حكمة الشيوخ وهو حتى الآن مصدر إلهام وينبوع علم لا ينفد أبقاه الله وأحياه وأدامه لأولاده ولى . سألتنى ابنتى عن أولاد عمى وضحكت رغم شدة مرضى قلت تصورى أن هناك أولاد عم لا أعرفهم تصورى أنه من الممكن أن أقابل أولاد عمى فى الشارع ولا أعرف ما إذا كانوا أولاد عم أم هم أولاد خال! ضحكت ابنتى قلت لها: وأنت هل تعرفين مثلا أولاد أعمامك؟ أو على الأقل عم واحد فتلعثمت وبدأت تذكر بعض الأسماء وخاصة هؤلاء الذين دائما نراهم فى بيت جدها فقلت لها أنت إذن لا تعرفين ، وذهبت ذات مرة بعد عودتى من الجراحة الأولى وطلبت من خالى أن يجمع أولاد أخوالى حتى أراهم جميعا دفعة واحدة ، بالفعل جاءوا فلم أستطع أن أسمى بعضهم باسمه تذكرت واحدًا أو اثنين ثم لم

أستطع تذكر باقى الأسماء فلم أنادِ أحدًا باسمه مكتفيا بالترحيب والسلام والابتسامة لأدارى خجلى ؛ لأننى لا أعرف كل أولاد الأخوال والذين أعرفهم هم الملتصقون بأبى حتى الآن أو يعيشون بجوارى ثم لا شىء من قبيلة كبيرة جاءت منذ زمن بعيد جدا من أراضى نجد لكى تكتشف لها مكانا فى سهل أو فى وادى مصر أو فى تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والسودان والصومال وطرابلس والشام ، هكذا تفرقوا كل منهم فى وادٍ يزرع أسرة جديدة وهذه الأسرة الجديدة لا تحمل سوى الاسم سلامة ثم تمل بعد ذلك العديد من الأسماء وتتفرق ولا أحد يعرف . مصادفة عرفت قريبا لى من ليبيا كان يسكن مرسى مطروح وكان يعمل مقاولا عندما سمع باسمى رغب فى رؤيتى وأخذ يسألنى عن أسماء أجدادى حتى وصل إلى جدى سالم الكبير وهو جد لجدى وقال هذا هو المفترض إننى من سلالته إننى ابن عمك ، نظرت إلى الرجل وجدته شيخا هرما تعدى السبعين من عمره له لحية بيضاء ضئيل الجسم ويمتاز بحدة الذكاء أخذت أرقبه وأنظر إلى جبهته وألمح التجاعيد وأحاول أن أزيلها لكى اكتشف صورته وهو شاب وقفز إلى ذهنى صورة عمى عبد الخالق فسلمت عليه بحرارة وسعد

الرجل بذلك سعادة كبيرة حتى إنه وافق على بناء المعسكر الذى جئت من أجله فى الزمن الذى حددته من أجل عيون قبيلتنا المنتشرة فى أنحاء العالم كله . يحدثنى الدكتور عبد الحميد - يونس رحمه الله - ويقول أهلا بابن القبيلة التى حصلت من أجلها على درجة الدكتوراه . معلمى الأول الدكتور (يوسف مراد) الذى أسس مدرسة الدراسات النفسية فى مصر ومن بعده الدكتور (مصطفى سويف) وبالتالى يجب ذكر (مصطفى الخشاب) و(أحمد الخشاب) و(إبراهيم سلامة) الذى علمنى معنى أن أدرس ما يسمى بالأدب المقارن وأن أعرف بالضبط ما طبيعة الأدب الفرنسى ، ثم يجب أن أذكر بكل خير الأستاذ المرحوم الروائى (محمد فريد أبو حديد) الذى أخذ بيدى وكان يعطينا الكثير من وقته وجهده وبالتالى يجب ذكر (يحيى حقى) الذى كان ينبوع القصة المصرية كلها منذ أوائل هذا القرن و(توفيق الحكيم) الذى علمنى الكثير ولا أنكر فضل أخى الأكبر (ثروت أباظة) الذى عرفته طوال أكثر من ثلاثين عاما عرفته رجلا عند الشدائد ولا يستطيع الإنسان أن ينكر ماذا تعلم من (يوسف السباعى) و(محمود العزب) ومن (عبد العال) وغيرهم إنهم أصدقائى ويعاملوننى معاملة الأخ الكبير وتعلمت أيضا من تلامذة لى كتبوا بعدى وتعلموا منى

الكتابة ولكنهم استطاعوا أن يدفعونى إلى المزيد من الإبداع والكتابة الجيدة .

(توقف التسجيل)

حدثنى بعض الأصدقاء عن أشياء عديدة وتحدثت معهم عن أشياء عديدة من خلال تلك الأحاديث عن أمور الحياة ومن كلمات عابرة ربما يسمعها الكاتب فى السيارة أو عندما يسير فى أحد الشوارع أو فى إحدى الحارات من تلك الأشياء الرقيقة والدقيقة والتى تبدو عادية يستطيع الكاتب أن يأخذ منها ما يمكن أن نسميه إبداعا روائيا لا شك فى أننى تأثرت تأثرا كبيرا عندما اشتغلت بالتجارة مع أبى طوال سنوات طفولتى وصباى وشبابى بل : إننى أذكر أنه ذات مرة حلا لى وأنا بجوار أبى وكنت فى سن الصبا المبكر أن أتحدث فى ذلك اليوم عن الحظ وعندما أقول للرجل سواء ، كان غنيا أم فقيرا : إنك رجل طيب ذكى فطن ومع هذا لاحظ لديك فأنت غير محظوظ . يقول : نعم يا ولدى هذا بالضبط ما أشكو منه ليس عندى من الحظ ما يكفى بل أنا ليس لى حظ على الإطلاق وتكرر الأسئلة ويتكرر الأجوبة فى نهاية اليوم سألنى أبى ماذا تفعل يا ولدى ؟ لما؟! تقول هذا لكل الناس ؟ قلت يا أبى لأثبت لنفسى أن لا أحد

راض عن نفسه ، ودائما ما يعلق على الحظ آمالا كان يحلم بها أو آمالا لم تتحقق أو فشلا ذريعا ويبدو أن الحظ المسكين هو الشماعة الموجودة دائما فى متناول أى رجل كان ، وبالطبع كانت تجارتنا تسمح لنا بالاحتكاك مع كبار التجار وأثريائهم ومع صغار التجار وفقرائهم ومع الأذكياء والأغبياء ومع كل الطبقات من أفراد الشعب ولهذا كانت مجالا خصبا وواسعا لأتناول منه وأعرف كل ما أريد .

وإن كنت أعترف فى النهاية بأننى لم أحقق ما كنت أصبو إليه وليس ذلك بسبب الحظ كما قالوا إنما بسبب غباء شخصى منيت به وأعترف به فأنا أعترف بينى وبين نفسى بأننى بالتأكيد لست ذكيا بالقدر الكافى ، والحمد لله على هذا القدر من الذكاء الذى استطعت به أن أشق طريقى وسط عباقرة كبار من أمثال ما ذكرت من الأصدقاء والأحباب ، وأيضا عندما اشتغلت فى مجال رعاية الأحداث وكان مجالا خصبا مملوءا بكل ألوان الإنسانيات فهذا طفل لا يدرى من أمر نفسه شيئا دفعته أمه إلى أن يمسك بحلة من تلك الأوانى الألومونيوم وتذهب به إلى القسم لكى تتهمه صراحة بأنه لص وهو لا يدرى ماذا تعنى كلمة لص هذه فيذهب معها إلى المحكمة ثم يذهب إلى المؤسسة وهو موصوف بأنه لص

ولص قذر لأنه سرق أمه ، ولم يكتف بسرقة الجيران ولكن هذا الطفل كل ذنبه أنه جاء فى زمن الشح وفى زمن اللاضمير ، وتركه والده بعد أن أنجب سبعة أو تسعة أو عشرة من الأطفال وترك أولاده وزوجته ، وهرب إلى بلد أخرى ليتزوج بأخرى ويفعل بها مثلما فعل بالأولى فلا تملك المسكينة إلا أن تدفع بطفلها إلى السجن لكى يأكل ويشرب وتعلمه الحكومة علما نافعا . أو هذا الغلام الذى نشأ فى قرية ثم جاء مع أبيه إلى السوق وانشغل أبوه بشراء الجاموسة وترك الولد الذى لم يستطع أن يهتدى إلى أبيه وضاع فى السوق كما تضيع الأشياء وافتقده الأب وصار فى طريق كله شوك حتى قبض عليه بتهمة ما وزج به فى هذه المؤسسة ليلقى عقابه على يد إسماعيل أفندى المعاون الذى لا يتورع عن سرقة طعامهم وبيعه فى الحلل المقفولة ، كل حلة بعشرة قروش للجيران الذين يستحلون شراء هذه الأطعمة من ذلك الأفاق وكأننا كلنا نعمل فى ساقية واحدة وتريدون أن نكتب روايات ! ما هذه الروايات التى نكتبها؟!
أيكفى إن نقول إن رجلا يؤتمن على أطفال جياع منهم الأيتام يسرق طعامهم ليبيعه للجيران الذين يتلهفون على شراء الحلة بطبيخها بلحمها بعشرة قروش فقط ، لقد عاشرت هذا

الرجل أربعة أعوام كاملة حاولت خلالها أن أتخلص منه ولكن لا فائدة فقد كان رجلا جشعا لا يشبع، يخيف الأطفال ولا أملك أنا إلا أن أجاهده بقدر استطاعتى ولكن كيف يجاهد شاب ريفى مثلى بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة من عمرى جاء من قريته يقف هذا الموقف بمفرده، أمام هذا الإسماعيل الذى لا يتورع عن فعل أى شىء، تسانده إدارة هشة لا تملك له صدا ولا تملك له جزاء رادعا، بل كل انشغالها وانشغال تلك المديرة بما تطهوه اليوم فى بيتها وكيف تصنع الجونلة ثم كيف تصنع بلوفر لابنها الكبير وتحلق حولها الأخصائيات الاجتماعيات وهن شابات يافعات جميلات يقفن جميعا فى مكتب الست المديرة كل منهن تدلو بدلوها حول الطعام والملابس وألوان أخرى من الحياة الأسرية لا تصلح إلا أن تكون حديثا شهيا فى المنزل فقط، ولكن هنا فى المؤسسة وحولهن مئات من الأحداث الذين فى سن المراهقة الأولى يحتاجون إلى رعاية! لا أحد، لا شىء يهم، المهم أن نقبض أخر الشهر ثم نشكو الغلاء ثم نشكو الإدارة ثم نشكو من كل شىء حتى أصبحنا نشكو من أننا نشكو، ثم يقول لنا السادة النقاد اكتبوا روايات واقعية والواقع أصبح فوق الخيال. الطبيب

الإنجليزى يحاول معرفة سبب الغثيان المستمر ، وطبيب الأعصاب اكتشف أن عصب الذراع الأيمن قطعه الجراح من الداخل حملونى إلى مستشفى آخر ، وهناك وضعونى عاريا فى جهاز يدور بى وأنا أرتعد ، يجب أن أتحمل . لم يعد الأدب الواقعى يصلح لهذا الزمان ، إذن نكتب أدبا لا هو سريالى ولا هو أدب اللا معقول بل هو لون من ألوان الأدب غير الموجود وغير المقروء بل هو أدب يصل للتوهان إلى حد الجنون ، يجب أن نكتب أدبا مجنونا عاصفا يقتلع كل الأشياء من جذورها فلم تعد للأشياء جذور إلا قلة هداهم الله إلى الإيمان فتشبثوا بجذورهم ، جاء الدكتور (شورم برم) ليجرى جراحة لإخراج السلك المعدنى الذى يربط العظام ولكن العظام تفتت ، راح فى ثبات ينزع السلك والعظم معا ، وأنا بين الحى والميت . . هناك ثلاث دوائر امتزجت فى نفس الفتى ، أراد أن يحلم وأن يرى أحلامه واقعا وظل بين الحلم والواقع مترددا ، هل هو يحلم أم أن ما يراه هو الواقع ؟ ذلك الفتى الذى تحدثنا عنه وعن ذكرياته ومذكراته وأوهامه وآلامه والذى جاء إلى لندن ليجرى جراحة لا يدرى إذا كانت ضرورية أو لا بل إنه حتى الآن وبعد مضى كل تلك الليالى على سرير المرض إلا أنه حتى

أتت اللحظة التى يكتب فيها هذا الفصل لا يدرى ما إذا كان قد شفى أم لا ، أهو مجروح يتألم؟ هل يده مشلولة هكذا دوما ترتعش؟ كل شىء من حوله صار فى تلك اللحظة وكأنه لا شىء ، يلجأ إلى أوهامه إلى أحلامه يمتصها ، يحاول أن يشربها أن يتجرعها جرعة جرعة ، هو لا يستطيع شرب الماء مرة واحدة ؛ لأنه لا يقدر على ابتلاع الماء إلا بصعوبة بالغة ، ونستطيع أن ننهى ذلك النبع أو تلك الينابيع التى كانت مصدرا لأحلامه ولأوهامه أيضا ونقول : إذا كانت قريته الصغيرة ميت بره والتى لا تبعد كثيرا عن عاصمة الدولة ، القاهرة ، والتى يمكن قطع المسافة إليها فى مدة لا تتجاوز ساعة واحدة إلا أنها تعيش كقرية معزولة عن بقية المدن والحواضر ، قرية لا زالت تعيش فى القرن التاسع عشر رغم وجود الكهرباء والتلفزيون وكل ألوان التسلية التى جاءت مع الغزو التكنولوچى ، إنهم حتى الآن يعيشون المعيشة نفسها الطريقة نفسها يجرى النيل بجوارهم عزيزا بعد أن حجبه السد العالى وأغلق عليه الباب فأصبح مثل طفل يحبو ضئيلا وهادئا لونه غير اللون ، لونه قاتم ، أحيانا يميل لونه للسواد وشاطئاه عجوزان ، تصور أنت أن الشاطئ

أصبح عجوزا؟! الغاب الذى كان ينمو أخضر مترعرعا وكنا بجوار الشاطئ ، نحن الأطفال نجزه جزا نصنع منه سنانير لاصطياد السمك ، أصبح جافا هاشا لا بريق فيه ولا عافية وأصبحت الزراعة تكاد تخنق شاطئ النيل لا نجد مكانا نجلس عليه بل إن تلك الأحجار التى نضعها لكى نصل إلى ماء النيل أصبحت الآن جرداء مشوهة ، النيل ليس هو النيل نفسه ، لقد ذهبت إلى هناك قبل أن آتى إلى لندن ، ذهبت لأرى أسرتى فوجدت النيل قد شاخ ، أصبح هرما عجوزا ، ضاقت به الأرض وضاق هو بها ، وأصبح عنها ضنينا كما أصبحت هى تعطيه ظهرها لا تكاد تنظر إليه فقد شاخت هى أيضا وابتعدت وأحسست أن النيل والأرض أصبحا مثل عاشقين افترقا على خلاف هكذا يا أخى! زمن مضى وأنت تشق هذه الأرض بشبابك وعافيتك وكأنك تلقحها لكى تنجب لنا أبقارا وحقولا وماشية ونباتا وحصادا ورغيفا نأكله ولكنك أنت الآن مثل رجل يمشى بجوار الحائط ، هل صرنا شعبا يسير بجوار الحائط؟ تحولنا جميعا إلى مجموعة من الجرذان تخاف أن تظهر إلى الضوء ، تأكل فى الظل وتعيش فى الظل ولا تفعل شيئا سوى أن تحفر لنفسها

حفرة كى تختفى عن عراكها مع الزمن ، لا تريد أن تتعارك ، لا تريد أن تناضل لا تريد أن تتكلم ، فقد رأيت ذات مرة أحد اللصوص فى الأتوبيس فى وسط القاهرة يشهر مطواة صغيرة مثل تلك التى كنا نلهو بها ، ويجبر الركاب وعددهم يقترب من المائة بين نساء ورجال ، شباب وكهول ، على أن يعطوه ما لديهم من مال ، فأعطوه لا أحد منهم حاول أن يقول له لا ، لا أحد حاول أن يمسك به ، كل منهم قال فليفعل هذا غيرى ، أنا أريد أن أعيش أنا عندى بيت وكأنه قد فتح البيت وجلس بجواره ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ورأيت سيدة تخلع سلسلتها الذهبية من رقبتها وتقذف بها إلى الشارع وتقول له (أرميها فى الشارع ولكن لا أعطيها لك) اللص لم يفعل لها شيئا ، أخذ كل ما جمعه ووثب بخفة وانطلق نحو الشارع بينما ثارت بعد ذلك ثورة الركاب وتحولوا فجأة إلى حكومة فى المنفى ، كلهم ثوار وكلهم يتصايحون بكلمات جوفاء ، ماذا لو كانوا فعلوا ؟ ماذا يحدث لهم؟ من كان مكتوب عليه الموت كان سيموت ولكن هاهم أولاء عاشوا جبناء وظلوا جبناء وسوف يموتون جبناء ، هذا المنظر ليس فريدا ولا أحكيه من باب

التندر أو من باب الحكايات الغربية إنه باستمرار يحدث ، تدخل إلى مكتب الموظف فلا تجده ، فتجلس مستسلما مع أنك صاحب حق ، وعندما يأتى الموظف يكون ثائرا ثورة هائجة وكأنه يؤدى لك خدمة من جيبه الخاص وأنه تفضل عليك بأن ينظر فى أوراقك ويقول لك بكل كبرياء وعنطزة لا أستطيع ، وهكذا أنت يا نيل ، ماذا حدث ياخالى؟ ماذا حدث يا عمى؟ ماذا حدث يا أبى؟ ماذا حدث يا بن خالى؟ أين قبيلتنا ؟ ولماذا تفرقوا شعثا بين الأرض؟ لماذا ذهبوا إلى الجزائر والمغرب وتونس وليبيا والصومال ولبنان وإنجلترا؟ إنهم يعيشون هنا فى إنجلترا ، كل منهم يعيش وكأنه صنع لنفسه منطقة مصهورة من الفولاذ لا يخرج منها أبدا ، ثم يشكو وتمتلئ القارورة الزجاجية التى صنعها لنفسه بالشكوى فيصدقها ويتحول إلى شاكٍ ومشكو وشكوى فيصبح هو الأستاذ شكوى ذاته ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، رأيت هذا فى ألمانيا ، ورأيته فى سويسرا ، ورأيته هنا فى إنجلترا إننى أرقد فى سريرى هذا منذ أشهر عدة أرى على شفتيه تلك الكلمات تخرج من فمه كأفاعى تريد أن تنقض على من معه فى الحجرة ، يريد أن يلتهمه وهو

أيضا يتباكى ثم يقول لك أين النيل؟ النيل قد جف يا أخى . النيل قد جف فى قلبك قبل أن يجف خارج قلبك ، آه يا قبيلتى ، لماذا تجلسون بجوار الحائط فى ظل الحائط ، لا تريدون أن تفعلوا شيئا ، هذا هو مصير قبيلتنا ، وهذه هى روايتنا منذ أن قتل الأخ أخاه ولم يستطع دفنه ، منذ تلك اللحظة وحتى دخولى غرفة العمليات فى مستشفى جامعة أكسفورد وأنا أسأل لماذا؟ لماذا جئت إلى هنا؟ هل كان الأستاذ الكبير الذى فحصنى قبل أن آتى مخطئا ؟ هل كان الأستاذ الكبير الذى أجرى لى العملية مخطئا ؟ ثم هل الأستاذ الكبير الذى أجرى لى العملية الثانية مخطئا ؟ ثم هل الأستاذ الذى قال إنهم جميعًا على خطأ لم يخطئ؟ من المخطئ يا أخى يبدو أنهم سيحملوننى إلى مكان آخر . . الظلام يحيط بى .

(توقف عن التسجيل)

والآن لا يعلن الفتى ما إذا كان سيعود أم لا؟ لهذا تجد حكاياته من الممكن أن تكون حقيقة ومن الممكن أن تكون غير ذلك ، على العموم سواء أكانت تلك أم تلك فإن الأمور دائما تتساوى ونعود إلى حيث بدأنا ،

فقد بدأنا عند منتصف اليوم من يوليو ونعود إلى النقطة نفسها ونسأل الأسئلة نفسها ، ماذا حدث؟ ولماذا حدث؟ كل ذلك فى أمر الله وفى علمه ، ربما يكون ذا فائدة ، وربما يكون فيه من العبر ما يكفى ولكننا حاولنا خلال سرد تلك الحكايات والأوهام (التهويمات) إذا صح لنا استخدام هذا التعبير فإننا نكتفى بالقول إننا نترك الساحة خالية من إجابة لنعود لنسأل الله التوفيق ونسأل أن يكون لنا عبرة بما حدث ، فكما قلنا إنها حكاية الشقيقين اقتتلا من أجل أول فتاة تظهر على الدنيا أصبح هناك الطيب والشرير ، هناك الخير والشر تتكرر المأساة نفسها بصورة مختلفة ولكنها تتكرر ونحن الآن لا نعرف وإن كان كل منا يحاول أن يظهر وجهه الطيب ويخفى وجهه الشرير ، وكلنا نفعل الخير فمن أين يأتى الشر إذن؟ هل هو الشيطان وحده أم أنه جاء من داخل أنفسنا أو أننا نرتكب الشر عندما نكون فى حالة غير إنسانية ، هذا هو السؤال ، هل نرتكب الشر ونحن فى حالة غير آدمية أم أن الشر قادم إلينا من خارج أنفسنا ، لقد أراد الله بنا خيرا وقد أردنا بأنفسنا شيئا أخر؟ إلا قلة منا أرادوا الخير كله لهذا يمتد العمران على الأرض ، ونعود والعود أحمد ،

ونسأل الله أن نكون قد وفقنا إلى فعل الخير وإن كنا نحتاج إلى الاعتراف بأن ديننا عظيم ، وثقتنا برحمة الله كبيرة . . أعود إلى مستشفى (هير فيلد) حيث كنت هنا من أربعة أعوام مضت وضعونى على مقعد متحرك ، لم تعد ابنتى معى ، سافرت وعادت إلى أمها ، دفعونى إلى غرفة باردة جدا راحت الممرضة تنزع عنى ملابسى ، أصبحت عاريا صدرى ينزف دما ، ودفعوا بى إلى أسطوانة معدنية تصدر أزيزا أمرنى الطبيب الإنجليزى فى غضب بأن أصمت . . فلم أنطق بحرف واحد . . أمرنى ألا أتنفس . . وأظلمت الدنيا .

* * *

مستشفى أولد كورت . لندن ١٩٩٤

مستشفى هير فيلد . لندن ١٩٩٥

وأخيرا مستشفى الفيروز . القاهرة ١٩٩٦

الفهرس